نصف مواطن محترم





هاني نقشبندي

رواية



دار الساقي

هاني نقشبندي

نصف مواطن محترم





الغلاف بريشة الرسام محمد السمهوري
خطوط العناوين: علي عاصي

ISBN-978-1-85516-866-4

الطبعة الأولى، 2012

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 2033 - 6114
هاتف: 866442-1-961+، فاكس: 866443-1-961+

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

قال لي جدي عندما كنت صغيراً إن الوطن ملك الجميع.

قال أيضاً إنه أكبر من الجميع.

عندما كبرت، وجدت الوطن قد أصبح قطعة أرض يريد كل واحد امتلاك جزء منها.

لقد أصبح الوطن ملك الجميع بالفعل، كما قال جدي، لكنه لم يعد أكبر من الجميع.

بالمناسبة: لم ألتق جدي يوماً، فقد مات قبل ولادتي.

المؤلف

«الحياة مصح كبير...»

بودلير

(شاعر فرنسي)

«... الحياة غسّالة معطوبة»

مواطن

(لا شيء)

في المحفل

«إن حُلمي، وحُلمي فقط، هو ما شفع لكم، لا ذكاؤكم». قال الزعيم مخاطباً أعضاء محفله بكبرياء عتيق. وأضاف في حدة متصاعدة غلبت كبرياءه «كيف لشيء مثل هذا أن يحدث في عهدي الذي لم يمض عليه سوى سبعة وثمانين عاماً فقط؟ سبعة وثمانون عاماً ثم يأتي نكرة ليهدّد الوطن، ويعبث بكبرياء محفلنا العظيم هذا»؟

صمت الزعيم قليلاً وهو يتكئ بكلتا يديه على صندوق خشبي يشبه جهاز راديو قديماً، مولياً ظهره لأعضاء محفله. رفع سبّابته يلوّح بها دون أن ينظر إليهم «الآن... سأبارك جهدكم الذي قادكم إلى القبض عليه وانتزاع اعتراف من شفتيه اللعينتين». ختم عبارته الأخيرة والتفت إليهم وكأنه يمنحهم بركة رضاه.

بعد أن انتهى وقت ابتسامته، أدار نفسه ثانية باتجاه جهازه الخشبي الذي تحمل لوحته الأمامية أربعة عشر مفتاحاً، وأدار الثالث منها بهدوء وقال «أنصتوا...»

سرى تيّار غريب في فضاء المحفل وسط صمت يداعب في النفس شيئاً. استمر الصمت لحظات انتصبت فيها رؤوس الأعضاء المصبوغة

الشعر، واتسعت أحداقهم، وكبرت الآذان نافرة من جانبي الرأس.

في لحظات بدأ صوت يصدر من الجهاز بين يدي الزعيم لا صفة تجسّده أو تفسّر مغزاه كما يدرك الزعيم وحده. تجاهله غير ممكن والهروب من قبضته مستحيل. صوت يأسر وإن خلا من كل نغم. يحفر في قلب السامع كلمات سيمر وقت طويل قبل أن ينساها. سحر فرعون وعصا موسى. إنها تجربة متكرّرة خبرها أعضاء المحفل كلما لجأ الزعيم إلى صندوقه ذاك الذي لا يعرف سواه سرّه. فلم تكن تلك المرة الأولى التي يكون الجهاز ذو الأربعة عشر مفتاحاً، وما يصدر عنه من صوت، هو أهم فعاليات المحفل. لكن اليوم، واليوم تحديداً، كان استثنائياً وشديد الخصوصية.

الصوت هو كل ما يريد الزعيم قوله. يأتي ممهوراً بإرادته، حسب الظروف الاستثنائية واللا استثنائية في الوطن، لتدفع بتأثير الرجل الأول، إلى داخل كل عقل يحلل، أو يسير، أو يعبر أجواء الوطن.

ولما كان ذلك اليوم استثنائيا، فقد أتى الصوت كذلك. قوياً، مباشراً، كطوفان غمر المحفل حتى أدرك سقفه، والثريا العملاقة المدلاة من القبة، والقبة ذاتها، والشوارع البعيدة وراء النوافذ المغلقة.

وكأنها مسرحية أعدت فصولها بعناية، كان الزعيم يقف باعتزاز وهو يتكئ بإحدى يديه على جهازه الخشبي، ينظر في زهو إلى أعضاء المحفل وهم يتلقون التأثير المنبعث من الجهاز إلى داخلهم دون إرادة. أخذ صوت الأثير المنعكس على الحوائط الرخامية العالية للمحفل يرتد كهمسات مبهمة، لم تلبث أن أصبحت هتافات صريحة «عاش الزعيم... عاش الزعيم».

همهمة سرت بين أعضاء المحفل، الذين شعروا بتلك الهتافات تنطلق من عقولهم هم أيضاً وكأنهم جوقة تكمل هتافات الأصوات القادمة من الشارع التي سحرها الجهاز العجائبي. فأخذوا يردّدون المعزوفة ذاتها «عاش الزعيم... عاش الزعيم...».

ولما كان التأثير آخذاً في التصاعد حتى سماء الوطن، ومع ما يقتضيه اجتماع المحفل هذا اليوم للاحتفال بانتصاره على الرجل الذي حاول أن يعيث فيه فساداً، فقد أضيفت لهتافات الزعيم عبارة «الموت للخائن...» متكرّرة كصدى يصل حتى الأجنة في أرحام أمهاتها.

«الموت للخائن... عاش الزعيم... عاش الوطن».

الخائن ينتظر مصيره في السجن، والزعيم منتشٍ أمام جهازه، والوطن يلملم جراح تظاهرات انطلقت ضد المحفل منذ وقت.

وكأن الخائن الذي قبض عليه هو ما يحرك الشارع وحده، كان الأمل يحدو أعضاء المحفل بأكملهم أن تنتهي محنة الوطن الثائر بالقضاء على الخائن ولو كان رجلاً واحداً فقط.

بقي الزعيم يعبث بالمفاتيح ملوّناً كلمات الهتافات كما يريد. بلغ انتشاؤه حداً لم يعد يرى فيه سوى نفسه في قاعة المحفل العظيمة التي كسيت حوائطها بالرخام النادر حتى القبة الذهبية التي ترتفع ثلاثين متراً. كانت الثريا التي تتدلى من قبة المحفل والتي يكفي ثمنها لبناء مشفى كبير، تتراقص مع أثير ما انطلق من جهاز الزعيم العجائبي. وتتداخل الهتافات في تصاعدها مع أضواء الثريا بألوانها البراقة وفضائها الكبير. خلق التداخل بين الأصوات وارتداداتها ضجيجاً

يصم الآذان دون أن يجرؤ أحد من الأعضاء على وضع يده على أذنيه النافرتين من رأسه.

«عاش الزعيم... الموت للخائن».

«عاش الزعيم... الموت للخائن».

بعد دقائق من الحفلة الصوتية المجلجلة، عبث الزعيم بالمفتاح الثالث ذاته، فبدأت الأصوات تخفت تدريجاً. حتى التدرّج نفسه، كان عجائبياً هو الآخر. يرحل ملامساً كل رأس في الوطن تاركاً فيه أثراً وكأنه نبضة قلب لا حياة بدونها.

الأصوات المرتدة من الشوارع خلف النوافذ المغلقة، ومن تحت المقاعد والطاولة وأضواء الثريا، بدأت تنسحب في تدرجها الغريب هذا. لقد كان عزيزاً على الزعيم أن تغيب الهتافات فجأة، فلا يغادره انتشاؤه فجأة.

تطلب الأمر أكثر من عشر دقائق قبل أن يصمت الجهاز الخشبي ويلتفت الزعيم إلى أعضاء محفله الذين أصاب الصمم نصفهم. كانت عقولهم قد أخذت جرعتها من الولاء الوطني الذي أراده الزعيم من صندوقه الخشبي الذي لا يعرف أحداً سره.

بقايا الهتافات كانت ترشح من حوائط القاعة عندما رفع الزعيم ذراعيه قائلاً: «والآن... ماذا تقترحون أن نعمل به؟»

لم يكن معظم أعضاء المحفل، السبعة والثلاثين رجلاً والمرأتين، قد استوعب السؤال وسط طنين ما يزال عالقاً في قواقع آذانهم. اتسعت حدقتا الزعيم وهما تتنقلان بين رؤوس الأعضاء «... لم أسمع جواباً... ما رأيكم أن نفعل بهذا الخائن وقد اعترف بجرمه»؟ كرّر

سؤاله بصوت جهوري أزاح الطنين من الآذان شبه الصمّاء.

أجاب عضو في المحفل ذو كرش عظيمة «الرأي ما تراه أيها الزعيم. لكن لو غفرنا إرهابه لنا طوال الأيام التي مضت، فكيف لنا غفران خروجه على طاعتكم، وإثارته الشارع ضدنا، ونيّته الشيطانية بقتل الأبرياء في الوطن؟»

نطق عضو آخر له صلعة براقة تليق بعضو محفل «ليست المسألة تقف هنا، بل إن التوقيت يجب أن يؤخذ في الحسبان. فكيف يجرؤ مواطن من هذه البلاد على أن يستغل هذا الوقت الذي نواجه فيه كل ما خلق الله من أعداء كي يفعل فعلته»؟

«صدق زميلي المحترم» أجابت الكرش الوقورة، «وأضيف إلى ذلك خطورة ما هدّد به... نعم... خطورة ما هدّد به، وما يستوجبه ذلك من إظهار حزم لا يرحم في إنزال العقوبة التي يستحق».

طافت همهمة فضاء المحفل، ممتزجة ببقايا صدى الجهاز الخشبي، موافقة على ما تقول الكرش الوقورة.

الاستثناء الوحيد كان عضواً نحيل الجسم في المحفل، هو الأقرب إلى الزعيم في تراتبية جلوسه إلى طاولة الاجتماعات. قال بصوت أشبه بالهامس «لعلنا نسينا شيئاً مهماً».

لم تلق عبارته رداً وسط حماسة باقي الأعضاء الذين قرروا أن «الإعدام... هو عقوبة الخائن» كما قرر الزعيم.

تعالت الأصوات تبارك القرار. وانطلقت الحناجر بهتافات ملأت القاعة. وكأن الحوائط جزء من الأعضاء أنفسهم، أدلت بنصيبها من الهتاف المؤيّد. لكن الصمت عاد ثانية مع خطوة تقدم بها الزعيم إلى

حيث كان الأعضاء يجلسون إلى طاولتهم. اقترب منهم شابكا يداه وراء ظهره، قبل أن يتوقف قرب مقعده على رأس الطاولة، والذي يرتفع ظهره ثلاثة أمتار عن الأرض.

«نعم... يستحق تلك العقوبة»... قال عضو له صوت أجش وهو ينظر إلى الزعيم الواقف بجواره.

«بل يستحق أن يصلب أولاً ثم يقتل» قال أجش آخر.

«المهم أن لا نجعله موتاً بلا ألم» قال ثالث وهو يلوّح بقبضة هرمة.

«يا سادة ليس المهم كيف يموت... المهم متى يموت». قال رابع.

«نعم... يستحق تلك العقوبة ولكن...» قال العضو النحيل الجسم وهو ينظر إلى الزعيم «لكن، هل سيضمن موته صمت الشارع، ثم إن هناك نقطة يجب أن لا نغفلها...»

قاطعه الزعيم وهو ينظر إليه بملامح لا يُقرأ فيها شيء، «نعم... سيصمت الشارع إن أزلنا الرأس المحرّض له».

«لكن أيّها الزعيم...» قال نحيل الجسم.

«لا أريد أن أسمع شيئاً آخر» قاطعه الزعيم وأخذ مكانه على رأس الطاولة ينظر إلى من يعلق على قراره النهائي، عالماً في سره أن أحداً لن يجرؤ، ثم قال بهدوء واثق «أعضاء محفلنا العزيز، تعلمون أنكم سلالة عظماء خبروا شؤون الوطن. ولست أعتقد أن الحزم الذي أبديناه دوماً في كل ما يهدّد أمننا قد ندمنا عليه. لقد صدمنا جميعاً بخروج أحد أبناء هذا الوطن علينا، وكلنا يعلم الآن، أنه المحرّك لما يدّعيه الحس الوطني في الشارع. فكانت النتيجة أن تحرك الشارع ضد محفله. ثار عليه. ثار على من أضنوا عمرهم يحققون له الرفاه الذي يريد والأمن

الذي ينعم به. ومع حرصنا على أمن الوطن، فقد وجب أن لا نتردّد لحظة في اتخاذ القرار المناسب، لا بحق هذا الخائن وحده، بل وكل من وقف معه وسانده. وأنا هنا أشكر عضو الأمن الموقر الذي بذل جهداً صادقاً للإيقاع بالخائن في هذا الوقت السريع».

تناول الزعيم كأس ماء رشفها بهدوء وواصل حديثه الذي أتى نصفه مشابهاً لأكثر من خمسة الآف خطبة سابقة له «كما تعلمون أيها السادة، فإن لنا أعداءً يتربّصون بنا. يتعاطفون مع صعاليك يطالبون بما لا يحتمل، هم لا يعلمون قدر التنازلات التي وهبناها لهم. ولا يرون ما فعلناه من أجلهم. جامعات، مصانع، طرقات وحدائق، صحيح أن بعضها يشكو الإهمال، لكننا لا نألو جهداً في كمالها، فماذا يريد هؤلاء الذين يزعقون في الشارع أكثر من ذلك؟ وما هذا الحس الوطني الذي يدّعون؟ هل تراه يختلف عن وطنيتنا نحن؟ إن الحس الوطني الذي يختبئ وراءه هؤلاء قد كشف حقيقتهم... فهم ليسوا بأكثر من إرهابيين وحفنة متطرفة يريدون أن تعودوا إلى القرون الأولى».

كان الزعيم ينظر إلى عيون أعضاء محفله، بما يكفي لإقناعهم بأن كل كلمة يقولها هي الحقيقة المتجسّدة بذاتها كما خلقت منذ الانفجار الكبير للكون.

«والآن... من هو المنتصر؟ إنه الوطن. إنه أنتم أيتها السيدات والسادة». نهض الأعضاء من فرط حماستهم، المكرّرة ذاتها، ودوّى تصفيق حاد مماثل لخمسة الآف تصفيقة سابقة.

رفع الزعيم يده وأشار لهم بالجلوس بعد أن تركهم يباركون

كلماته المقدسة بضع دقائق. التفت إلى العضو النحيل الجسم، الذي يجلس دوماً إلى يمينه عاكساً مكانة استثنائية «لقد عاد الشارع إلى قبضتنا، وهذا هو المهم».

ثم نظر إلى عضو آخر يجلس غير بعيد عنه مكلف بشؤون الأمن وسأله «هل أنتم واثقون أيّها العضو الموقر بأن تنظيم الخائن سينتهي بعد القبض عليه؟»

«لا شك في ذلك» أجاب العضو.

«كم عددهم؟»

«هم في الحقيقة... حتى الآن... هم شخص واحد. لكن السلاح الذي كان يهدّدنا به يعادل جيشاً بكامله».

«أنتم واثقون إذاً من شأن السلاح؟»

«كل الثقة أيها الزعيم... فلقد اطلعتم بأنفسكم، كما اطلع الأعضاء الموقرون، على التقارير التي تتحدث عن هذا السلاح الخطير الذي أُعدّ ليستخدمه أعداء الوطن ضدنا. والأهم من كل هذا أن الرجل قد اعترف به».

سألت عضوة في المجلس، ذات صوت هادئ تجلس في آخر الطاولة «... هل سيحاكم الرجل؟»

تلفت الأعضاء بعضهم إلى بعض في استنكار صامت، ليس معلوماً إن كان السبب هو سؤال العضوة المفاجئ أم لأنه أتى من امرأة لا رجل.

«لقد اعترف بذنبه...» أجابها عضو الأمن في حزم.

«تحت التعذيب ربما... من أجل ذلك لا بد من محاكمة تنصفه

حتى وإن اتفقنا على عظم جرمه».

« لم يعذبه أحد. . » قال عضو الأمن «هي الأدلة تدينه، ولن يتمكن أمهر المحامين من الدفاع عنه».

«هذا يكفي لإدانته» قال عضو ترك زمن عتيق آثاره على وجهه.

«لا نريد تجاوز القانون وإلا كنا المدانين» قالت صاحبة الصوت الأنثوي الهادئ «فأنظار العالم تتركز إلى حيث لا شيء في العالم سوى نحن... وعلى أية حال، فحتى إن اعترف، يجب أن يحاكم أي متهم بشكل عادل وعلني».

«هذا لو كان متهماً في جريمة سرقة أو قتل، أما في قضية وطن، فاعتراف المتهم يكفي لإدانته والحكم عليه».

«... هذه نقطة يجب أن نتعامل معها بجدية» قال الزعيم «ما يهمنا هو أن يتوافق الأمر مع شريعتنا. فما رأيك أيها العضو المبجل في إعدام المتهم»؟ قال موجهاً سؤاله إلى نحيل الجسم الجالس إلى يمينه.

«هو مجرم... قد اعترف بجرمه. وخطيئة أن يترك المذنب بلا عقاب، لكنني أرى أهمية محاكمته أولاً، كما قالت العضوة الموقرة».

«أشكر العضو الموقر» قالت عضوة المحفل «لا نريد أن نرتكب خطيئة بحق مواطن لم...».

قاطعها بحدة عضو له لحية كثة قائلاً وكأنه يلقي موعظة دينية «خلقت الخطايا لترتكب، ومن هنا أتى الغفران، ومن أجل ذلك كنا نحن حماة الشريعة والوطن، نعمل كي نحول دون الوقوع في الخطأ أو تحقيق الغفران بإيقاع العقوبة».

ثم التفت إلى الزعيم دون أن ينتظر رداً من زميلته الجالسة على

الضفة الأخرى من الطاولة «إن الخروج على وليّ الأمر وحده مخالف لشريعتنا. وهذا الذي أوقعتم به قد خرج عليكم أيها الزعيم، وهذه وحدها خطيئة، ومن يملك القدرة على المغفرة هنا هو وليّ الأمر وحده، أي أنتم. والرأي عندي أن العفو أو التردد سيقود إلى التهلكة».

نظر الزعيم إلى صاحب الجسم النحيل إلى يمينه «هذا ما أحب سماعه. ما رأيك؟»

«بالنظر إلى كل الأمور التي جرت، وما أسمعه من آراء في هذا المحفل، فمن الواضح أن الأمر قد حسم، لكن...»

«لكن ماذا؟... هل لديك رأي يخالف الجميع»؟ سأل الزعيم.

صمت الرجل برهة ثم قال في اقتضاب «لا... ولكن...»

«أنا اعلم كيف يفكر كل فرد في هذا الوطن» قال الزعيم ونهض من مقعده «اعلم ما يفكر فيه كل واحد منكم أنتم». نهض الجميع من ورءاه وهو يخطو باتجاه جهازه ذو الاربعة عشر مفتاحا «وأعلم كيف يمكن للأمور أن تسير».

اقترب من الزعيم بعض الأعضاء ووقفوا في نصف دائرة حوله لا يتقدمون أكثر إلى حيث هو، فهم يعلمون أن الاقتراب من جهاز الزعيم الخشبي محظور أكثر من الزعيم ذاته. لقد تعلموا الدرس مراراً. حتى إن الزعيم نفسه لم يكن يجد حرجاً في أن يطلب من أي عضو يقترب من جهازه العجيب أن يبتعد عنه بضعفي طوله. كان ذلك أمراً لم يخالفه أحد منذ أكثر من ثمانين عاماً.

«أيها الزعيم، أنصح أن يكون التنفيذ فوراً. في هذا الأسبوع،

أو في الغد إن أمكن فلا داعي للانتظار استباقاً لأي تبعات محتملة» قال عضو الأمن وأضاف «لنوجه ضربة لخصومنا وتصلهم رسالتنا الحازمة».

«ليكن موعده في الغد إذاً» قال الزعيم.

هتف الأعضاء بثقة من أجل الغد.

«أرى أن نرجئ الأمر قليلاً...».

قال نحيل الجسم وقد أخذ مكانه غير بعيد عن يمين الزعيم.

«وهل سيغيّر التأجيل شيئاً»؟ سأله عضو الأمن الذي أخذ مكانه إلى يسار الزعيم.

«نحن مع سرعة التنفيذ» ردّد الأعضاء وكأن المتهم القابع في السجن خصم لكل واحد منهم.

«هو رأي الجميع كما ترى أيها العضو الموقر» قال الزعيم متباهياً برأي أعضائه لنحيل الجسم.

«نعم...»

«بالتأكيد نعم».

«نعم ولا شك أيها الزعيم».

ردّد الأعضاء واحداً تلو آخر وكأنهم في صف مدرسي.

قبل أن يكتمل نعم الأعضاء كلهم رفع الزعيم يده حاسماً أمره «ليكن التنفيذ غداً».

«عاش الزعيم... الموت للخائن»

«عاش الزعيم...»

«عاش الزعيم...»

«أيها الزعيم...» قال العضو النحيل الجسم بصوت وقور « لم أكن لأخالفكم الرأي يوماً، ولست أخالفكم الرأي الآن، لكنكم أغفلتم نقطة هامة... هامة جداً تفرض علينا التأجيل».

* * *

«... ابتعدي قليلاً عزيزتي، فالأرض مبتلة».

أوصل الزوج قابس غسّالة يصلحها وأدار مفتاح التشغيل. لم تعمل الغسالة. أدخل مفتاح ربط في جزء مفتوح من جسدها وشد عليه بقوة، وأدار مفتاح التشغيل ثانية، و لم تعمل الغسالة.

«لقد اهترأت يا عزيزي. إنها المرة المئة التي تتعطل فيها وتصر على إصلاحها». قالت الزوجة وهي تتصنع ابتسامة متعبة تغطي ألمها كقناع ضاحك لسيدة حزينة.

«ألم أكن أصلحها من قبل»؟ قال الزوج وهو منصرف إلى الربط والشد والمحاولة من جديد.

«وما النفع إن كانت تتعطل بعد نصف ساعة من إصلاحها؟»

«أعطيني المفتاح الذي إلى يمينك وابقي بعيدة»... عبث ببعض محتوى الغسالة قليلاً قبل أن يمسك بمفتاح التشغيل للمرة الثالثة «آه... اكتشفت السبب... الآن ستسمعين هدير طائرة لا غسّالة» أدار المفتاح و لم تعمل أيضاً.

«حسن...» قال الزوج وهو يمد ثنايا كمّي قميصه «إنها عنيدة»، وأطلق ضحكة يخفي بها كآبة إعياء زوجته، وأضاف مداعباً «يا زوجتي الجميلة، ألا تكونين أغضبتها قليلاً؟»

رمت الزوجة بمنشفة كانت بيدها في تأفف ومضت حتى تهالكت على مقعدها في صالون الدار الصغيرة.

لحق بها بعد أن غسل يديه وقال في دلال «أيتها الحبيبة، تعلمين أن علاجك يتطلب معظم ما ادخرنا. لا عليك، سأصلح الغسالة، وستعمل كما تشائين، لكن لا تغضبيها مرة أخرى» قال في سخرية غزلية وسألها «كيف تشعرين الآن؟»

«أحسن بكثير... ألم قليل ولا شيء أكثر». صمتت مترددة في قول شيء، ثم أضافت «هل تعتقد أن عليّ فعلاً إجراء تلك العملية؟ أشعر بخوف كبير».

«لا تخافي... لقد أخبرني الطبيب أنها ستكون سهلة جداً. لن يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة».

ضم يدها إليه ومالت إلى صدره فضمها بيده الأخرى، قبّل رأسها ومسد شعرها بحنان.

«ممم، ما رأيك في رائحتي...؟ إنها تشبه زيت محرك». قال مخترقاً صمتاً حزيناً يختبئ بين خصلات شعرها.

«قلت لك إنها خربة وهرمة جداً».

«ستعمل يا عزيزتي، بعد أن أفرغ من إصلاح السيارة أولاً، ثم الثلاجة».

«أتوسّل إليك ألا تفعل... فالسيارة على ما يرام، والثلاجة أيضاً. يا إلهي كم أنت مهووس بفك الأشياء وتركيبها... إنك تشبه الأطفال أحياناً».

«ألا ترين النتيجة...؟ كل شيء يعمل على ما يرام إذاً».

«إلا تلك الغسالة. حلفتك بالله أن نستبدلها بأخرى ولو مستعملة».

«بل سأصلحها، والليلة تحديداً بعد أن نتناول عشاءك الرائع».

«إنك طفل حقيقي»... قالت ونهضت تعد عشاءهما. أدار الزوج مفتاح تلفاز صغير، ومضى يساعد زوجته على إعداد المائدة.

«هل تعتقد أن الأمور تسوء؟ يا لهم من مجرمين؟»

سألت الزوجة في خوف وهي تطالع الأخبار المسائية، وتقرأ شريطاً ظهر أسفل الشاشة، يحمل خبراً عاجلاً: «القبض على مجموعة إرهابية جديدة تقود متظاهرين ضد الوطن».

بقي الزوج صامتاً يتأمل الصور المرافقة للخبر. أفراد أمن يحملون صور الوطن ويهللون وقد أمسكوا بضعة رجال لا تظهر صورهم.

«ليحمِ الله الوطن» قالت الزوجة.

«نعم...» أجاب هو وأطلق زفرة ونظر إلى وجهها الذي بدا شاحباً.

«لا عليك، أنا بخير، أنت من أرهق اليوم».

«إنه مثل أي يوم آخر. كيف تشعرين الآن؟»

«هل ستسألني كل دقيقة؟» أجابت ثم قالت بعد لحظة صمت «ألا يمكن تأجيل العملية قليلاً؟»

«لن يكون الأمر في مصلحتنا، ثم كما تعلمين إننا حصلنا على الموعد بمشقة بالغة بفضل لا يمكن نكرانه لمسؤول الاستقبال بعد أن زرعت في يده ورقة ثمينة، فمن يضمن موعداً آخر لو تأجل هذا؟ ستتم العملية في موعدها، وستكون الأمور كما تشتهين». قال

وعاد، من على مائدة الطعام، يشاهد التلفاز وهو يبث أغنية وطنية تلتها صور الزعيم مجتمعاً بأعضاء محفله.

«هذا الوجوم على وجوههم يخيفني. يبدون كأنهم في ميدان معركة أو صيوان عزاء» قال.

«لكل إنسان هموم بحجمه».

«هموم...؟ أي هم يعيش فيه هؤلاء»؟

«هم الوطن»... أجابت.

«الوطن هو المحفل بالنسبة لهم لا شيء سواه. يحسبون دورنا مكسوّة بالرخام كما هو المحفل الذي لا نرى سواه في التلفاز. من يرَ محفلنا يعتقد أن لا فقير ينام جائعاً في الوطن، انظري إلى تلك...»

قاطعته «ما أدراك بذلك وأنت الموظف البسيط في دائرة صغيرة؟ ثم احذر أن تنطق بكلام كهذا أمام أحدهم. الوطن بخير، لكن أعداءه لا يريدونه كذلك».

«يا لهذه الكرش المحترمة» قال الزوج في تهكم وهو يراقب بعض أعضاء المحفل يصافحون مواطنين قد التصقت جلودهم بعظامهم... ثم تمتم وهو يتابع التلفاز «كلما امتدت كرش الرجل أمامه رجع عقله إلى الوراء...»

«احذر لسانك يا صاحب الكرش الصغيرة، فللحوائط آذان تسمع، وتذكر ما حدث لجارنا ذات يوم».

بصورة ما... أحس الزوج أن أحد حوائط الدار يتحرك وكأنه أذن تسمع بالفعل. مضت الزوجة تقول «الحمد لله على ما نعيشه من أمان مقارنة بغيرنا. هكذا يجب أن تقول وهذا ما هي عليه الحال. ولولا

ذلك لما كنا موضع حسد من يريدون الشر لنا». وختمت الزوجة «لدينا كل ما نحتاج إليه ولو كان قليلاً. وكثيراً ما كان الخير في القلة. والقلة في الكلام كما هي القلة في الطعام، أفضل».

بقي الزوج صامتاً ينظر إلى وجه زوجته البريء وهي تتم حديثها وتأخذ رشفة ماء مع حبّتي دواء. كانت نشرة الأخبار تتحدث عن الخارجين عن إرادة الوطن الذين بدا للزوج أنهم ظهروا فجأة وكأنما اختبأوا في كهف لمئة عام أو يزيد، ثم هكذا... وبدون مقدّمات، ظهروا واحداً تلو الآخر.

لم يعلم الزوج سبب إحساسه بأن حوائط الدار كلها تنصت معه إلى التلفاز والى ما قد يقوله هو نفسه معلقاً على ما يسمع. «للحوائط آذان تسمع» عبارة زوجته تلك كانت تتردد في عقله، حتى تهيّأ له أن الحائط الذي تحرك قبل قليل ينظر إليه ويسخر، في وقاحة، منه.

نشيد وطني ثان تلى الأول، وساعة انقضت تلو ساعة فاضت بأخبار انتصارات الوطن، وصورة وراء أخرى لأعضاء المحفل يتبسمون ويصافحون ويتحدثون. وبين تلك الصور طالع الزوج منظر الجار الثرثار الذي أخذه الأمن ذات يوم لأنه كان، حسبما قيل، لا يحب الوطن. اختفى بضعة أسابيع قبل أن يعود إلى داره بعد أن أحب الوطن وتصالح معه إلى درجة أنه ما عاد يتحدث أبداً. لم يكن متهموه معنيين بحب الوطن، بل، على وجه الخصوص، معنيون أكثر بكلمة «لا» ذاتها، التي صدر قرار من المحفل منذ زمن بإلغائها.

بعد العشاء، تناول الزوج قدحه من الشاي وهو بجوار زوجته يتابعان التلفاز. كان الزعيم يلقي خطابا. لم تكن أخبار السياسة تعنيهما

بأكثر مما يتصل بارتفاع أسعار الخبز وثمن الخيار. لكن، لما كان الأمر يتعلق بالوطنية والوطن، فقد تجاوز اهتمامهما تلك الليلة قضية الخبز والخيار إلى متابعة أين ومتى ظهر أعداء الوطن؟ تنقلا على قنوات الأخبار وكأنها تسليتهما الوحيدة، حتى اعتاد التلفاز على هذا التنقل بين القنوات من تلقاء نفسه. كان كل شيء يتكرر، الأخبار ذاتها والصور ذاتها. لم يخل الأمر من تعليقات زوج متململ، وزوجة تحذر من أذن الحيطان التي تسمع.

«الزم الصمت أيها الرجل. إن لسانك هذا سيقود إلى هلاكك».

ساد صمت إلا من صوت مذيع الأخبار.

«هناك شيء يحدث في الوطن أكثر مما نراه أو نعرفه» قال الزوج.

«لنستمع إلى ما يقولون». اعتدلت في جلستها وسمّرت عينيها على التلفاز. كان الزعيم يلقي خطاباً. بدت مطابقة لكل أعضاء المحفل وكأنها واحد منهم، بل وكأنها في حضرة الزعيم. أحس الزوج وهو يقلب نظره ما بين زوجته والتلفاز أن ما يتمتع به الزعيم هو شيء يفوق الجاذبية الشخصية. ولما كان مولعاً بتفكيك الأجهزة الكهربائية والإلكترونية وفق منطق علمي، فقد كانت مسألة السحر الشخصي، أو الجاذبية السياسية هرطقة محفل، وإن كان هناك من شيء يسيطر به الزعيم على الآخرين،بما في ذلك زوجته المريضة، فإن للعلم دوراً في الأمر. وكومضة برق تساءل الزوج إن كانت هناك شريحة إلكترونية قد زرعت في عقول الناس، منذ ولادتهم، يحركهم الزعيم من خلالها.

وضع الزوج سبابته على فمه وهو يتأمّل زوجته في إنصاتها

ومتابعتها الدقيقة للتلفاز «ليحمك الله لي يا زوجتي الغالية» قال في سره، وعاد يتابع خطاباً مكرّراً للزعيم الذي ما انفك يتحدث عن أعداء الأمة، وخيانات البعض، والدعوات التي يطلقها المتجمهرون في الشارع الثائر.

تحدث لثلاثة أرباع الساعة، دون أن يحدد الزعيم من هم أعداء الوطن، ومن هم الخونة، وما هي الدعوات التي يطلقها هؤلاء المتجمهرون المتهمون بالتطرف.

وقبل أن ينهي جملته الأخيرة، انطلق تصفيق حاد من أروقة المحفل، ونهض الأعضاء كفرقة عسكرية تتأهب للقتال. استمر التصفيق وقتاً أكثر من الخطاب ذاته، وامتد كتيّار لا يرى خارج المحفل، متسللاً إلى البيوت من أبوابها، من نوافذها، ومنساباً من كل تلفاز فيها. تهيّأ للزوجين، أن حيّهم يصفق، وأثاث منزلهم، والغسالة المعطوبة، فصفقت الزوجة مع الجميع. بدت حماستها ملتهبة مقارنة بحماسة الزوج الذي توقف عن تصفيق ساخر في أقل من ثانيتين.

بعد أن انتهت العاصفة، وهدأت الشوارع، واستقرت شاشة التلفاز التي كادت تسقط من مكانها، نظر الزوج إلى زوجته وقال في تهكم «هناك أمر عظيم يحدث في الوطن يليق وحجم التصفيق هذا».

وقبل أن تجيب الزوجة، ظهر عدد من أعضاء المحفل على الشاشة وهم يتحدثون ويشيدون بخطاب الزعيم. كان من الجلي أن أحاديثهم في تلك اللحظة سابقة على الخطاب. استطاع الزوج تمييز ذلك من ثياب اختلف شكلها لدى عضو أثناء إلقاء الزعيم كلمته، وبعدها.

اتفق الأعضاء في تعليقاتهم على أهمية كلمة الزعيم، فهي رسالة

شديدة الوضوح. إلا أنهم لم يحدّدوا أيضاً لمن تكون الرسالة، بل وما هي الرسالة في الأساس.

«هل تعتقدين أن هؤلاء مثلنا»؟ سأل الزوج وهو يشير إلى أعضاء المحفل يتحدثون بحماسة عن الخطاب التاريخي.

«أقصد، هل يأكلون مثلنا ويشربون...»؟

بقيت الزوجة صامتة، فيما أضاف الزوج مداعباً «... هل يضرطون أيضاً؟»

«اضحك يا زوجي العزيز، ولنر عاقبة تعليقاتك تلك».

عادت تتابع التلفاز الذي كان أكثر حكمة من الزوج، فانتقل بذاته إلى قناة أخرى تعرض برنامجاً جديداً. بعد أن أنهى الأعضاء، ورجال الإعلام، وبعض رجالات الشارع، وأرامل وعانسات وبضعة أطفال التعليق على خطاب الزعيم، صدحت موسيقى الوطن في أرجاء البيت.

فاجأها الزوج بسؤال «هل تعتقدين أنهم مهمومون بالفعل... أقصد أعضاء المحفل؟ لا أعتقد أن أحداً منهم يتوسّل سريراً في المستشفى على الأقل».

نظرت بحزن إلى عيني زوجها وقالت «سبّبت لك الكثير من الأسى بمرضي... أليس كذلك؟»

وقبل أن يجيبها وضعت أطراف أصابعها على شفتيه بدلال ليصمت، ثم مسحت على يده برفق وقالت «لم لا تفكر كيف سنغسل ثيابنا غداً؟»

* * *

رغم ضآلة جسمه، وسنوات عمره الطويلة، استطاع عضو المحفل النحيل الجسم أن يبقى واقفاً لأكثر من خمس دقائق وهو يتحدث إلى بقية الأعضاء بصوت هو مزيج من حكمة وخوف.

«إنها إرادة الله أن يتكرر الأمر ذاته. إنه اختبار لمدى إيماننا وحكمتنا. لكنني لا أعلم ما سأقول للزعيم فأنتم تعلمون كم يكره الأخبار المزعجة. وأمر كهذا لن يخفى عليه».

«لا أعتقد أن الأمر خطير إلى هذا الحد أيها العضو المبجّل» علق أحدهم.

نظر إليه صاحب الجسم النحيل ثم قال موجهاً حديثه للجميع «ربما هو كذلك، إلا أننا لن نلزم الصمت حتى يصبح الأمر خطيراً. والرأي عندي... الرأي عندي يا سادة، أن نواجه الحقائق بشجاعة أكبر هذه المرة». صمت قليلاً ثم أضاف وهو يعبث بذقن حسنة التشذيب «لا أعرف كيف عادت تلك الأصوات تظهر من جديد بعدما اعتقدنا أننا احتوينا الأمر»؟ قال ونظر إلى مقعد الزعيم الخاوي، الذي يبعد عنه ببضع خطوات إلى الوراء الجهاز ذو الأربعة عشر مفتاحاً.

«كان الزعيم رحيماً» قال عضو الأمن «وأنا كرجل أمن مسؤول عن الوطن، أقول إن حكمة الزعيم ورحمته لا تلائمان أولئك الرعاع الذين لن تُسكت أصواتهم سوى القوة المجردة وحدها. والرأي عندي، أن يتكرم علينا الزعيم بإطلاق يدنا ولن يندم على ذلك».

علق آخر «أعتقد أيها العضو المبجل أننا قللنا من قوة تلك الأصوات

ولا شك. وأوافقك على أن جرعة أخرى من ترياق الأمن قد تعيد الأمور لنصابها».

«لا يمكن للأمن أن يكون دواء كل شيء». قالت عضوة المحفل

«الأمن يا عزيزتي هو ما يصنع الأوطان، وأنت العارفة بمطامع من حولنا».

«الحب يبني والقوة تدمّر».

«لا تبني العواطف وطناً أيتها العضوة الموقرة... ولو كان الأمر كذلك ما بقي أحد منا تحت هذه القبة». أجاب عضو الأمن في تهكم، ثم لوّح بقبضة برزت معها عروق ساعده كشجرة عجوز «القوة أساس كل شيء...»

«لسنا في سجال أيها الأعضاء المحترمون» قال نحيل الجسم «إن كان من شيء نحتاج إليه اللحظة، فهو العقل».

«نعم... العقل، ربما، لكن ليست المشاعر» أجابه الآخر وهو ينظر إلى عضوة المحفل.

نظر الأعضاء بعضهم إلى بعض، كتائهين في صحراء لا حياة فيها قبل أن يقول أحدهم «لتكن حكمة الزعيم هادياً لنا. إن له أذنين تسمعان حديث فراشتين في حديقة عامة على أطراف المدينة. ألم يحدثنا هو بذلك ذات مرة؟»

«سيعلم الزعيم ولا شك. لنكن متأهّبين أيها السادة» قال نحيل الجسم «لكن... ليس ذلك ما يقلقني، بل تطوّر الأمور هو ما أخافه».

«وهل تعتقد أن تلك الأصوات الضئيلة لها الجرأة كي تعلو على صوت الوطن»؟ سأل عضو بدا كمن أدرك للتو ما يتحدث به المحفل.

نظر إليه نحيل الجسم وقال «ليست المشكلة في الأصوات، بل في الشارع ذاته. من أجل ذلك نتعرّض لانتقاد حتى أصدقائنا في الخارج. وهي مسالة تسبّب حرجاً كبيراً للزعيم. وحقيقة الأمر أيها السادة أننا لا نعرف عن شارعنا ما كنا نعتقد».

ساد القاعة هدوء إلا من بعض همهمات قبل أن تنطق العضوة في صوت واثق «لقد صدق العضو الموقر. نحن أبعد ما نكون عن الشارع، ولسنا نعلم كيف هو وما يدور فيه».

«ومن قال ذلك»؟ سألها أحد الأعضاء بتعال «أجهزتنا تعرف كل ما يدور فيه. كيف يفكر، وماذا يقول. نحن نعرف إذا ما احترق ضوء إنارة في أقصى قرية، وما إذا كانت حمامة قد وضعت بيضها في عش خفي داخل شجرة».

«نحن نراقب الشارع، لكننا لا نعيش فيه» أجابت العضوة.

«هل تريدين أن نعيش فيه؟»

«أن ننصت لما يريد على الأقل» قالت والتفتت إلى نحيل الجسم «ألستم توافقوني الرأي»؟

«حسن...» قال عضو الأمن «أنصتي إليه إذاً... ألا تسمعين. أصيخي. إنهم يلهجون بالدعاء للوطن، وزعيم الوطن، ولنا نحن أعضاء هذا المحفل الموقر. أما تلك الأصوات النشاز فهي لغوغاء، الله وحده يعلم ماذا يريدون وكيف يفكرون. لكن لا تخافوا أيها الأعضاء الأجلاء، فأعيننا ترصد كل شيء. ولن يحدث ما يعكّر رخاءنا. وأعتقد أنكم تأكدتم من ذلك طوال العقود الماضية التي أشرفت فيها شخصياً على أمن الوطن».

أومأ نحيل الجسم برأسه كتحية تقدير دون أن ينطق.

«أيها السادة» قالت عضوة المحفل «هناك أصوات تطالب بحقوق أراها متواضعة لا تهدّد الوطن في شيء».

«هل ترينها متواضعة أيتها العضوة المحترمة؟ هؤلاء أعداء يتخفون بثياب مواطنين يطالبون بما تقولين عنه «حقوق متواضعة» ويتحدثون عن «حس وطني». لو أعطيناهم ما يريدون فهل سيصمتون؟ وهل سيغادرهم الحس الوطني إن أعطيناهم مالاً؟ أنت تجهلين إلى أين تقود الحقوق المتواضعة بعد حين. إن أعطيناهم شيئاً الآن، ولو قليلاً كما تقولين، فتأكدي أن ذلك سيفتح شهيتهم لما هو أكثر وأكبر. لقد رأيت بنفسك كيف أعطى الزعيم كل ما طالبوا به، فهل صمتوا»؟

«لقد أعطينا وضربنا. ولن تكون القوة علاجاً للمرة الثانية. ودليلي أنا هو نفس ما تسوقه أنت من دليل، إنه تزايد الأصوات، وتزايد عدد المتظاهرين...»

«متطرفون... إرهابيون».

«ما قتلوا ولا هدّدوا أحداً».

«هل تتعاطفين معهم إذاً»؟

«أنا أفكر في مصلحة الوطن».

«من يعمل من أجل الوطن، نحن أم هم»؟ قال عضو له رأس يشبه كرة قدم.

«نعم... نحن أم هم»؟ كرّر السؤال عضو آخر.

«نحن... وهم» قالت العضوة في ثقة.

«هناك طعام يكفي الجميع، ومدارس لكل طفل، ومشافٍ عدد

أسرّتها أكثر من المرضى... والأمن... لا تنسي ما ننعم به من أمن أيتها العضوة الكريمة. فماذا أكثر من هذا؟ إن تخطت مطلب الناس ما هو متاح لهم، فذاك أكثر من شيء «متواضع».

بدت قاعة المحفل وقد أطلقت لحوائطها العنان بالمشاركة في الرأي بصدى يتكرر مع صوت كل عضو. كأن القاعة نفسها باتت عضواً له الحق في الرأي. كما أنها، بحق لا يمكن إنكاره، إن أجزنا لها العضوية، فهي أكبر الأعضاء عمراً والأمينة على أسرار الوطن، وليس أدل على ذلك من حرصها على أن يترك الأعضاء كل ما نطقوا به في اجتماعاتهم داخل القاعة قبل أن يغادروا بابها الكبير.

«أيها السادة» تحدث صاحب الكرش الوقورة «هناك بعض المطالب، ليكن، سنعد بتلبيتها، ثم ندرسها، ولنا الحق في رفضها أو قبولها. إنها عملية تستغرق وقتاً، وهو كل ما نحتاج إليه حتى ينسى الناس ما أرادوه أصلاً».

«بل الرأي عندي أن نعجل في تحقيق ما يطالبون به خشية أن تطال مطالبهم شخوصنا نحن». قال أحد الأعضاء وهو يزفر بضيق وينظر إلى القبة العالية فوقه.

اعتدل نحيل الجسم في جلسته وقال «محفلنا الموقر، سنعطي الناس ما يريدون، لكن دون المساس بمحفلنا. هذا موقع لا مكان فيه لغوغاء أو عامة. هنا تصنع قرارات الوطن، ومن غير الممكن أن يشارك أحد، لا يملك الخبرة والأهلية، في مصير الوطن. لكن ذلك لا يعني أيضاً، لا يعني أبداً في الواقع، أن تمثيلنا للناس مكتمل دون أن يكون لبعضهم حضور ولو ضئيلاً نلمس من خلاله ما يريدون مباشرة».

«واو...»...

«ماذا...؟ ماذا قال»؟

«هذا كلام خطير...»

«ماذا...؟ ماذا قال ثانية»؟

تلفت الأعضاء في ما بينهم مستنكرين رأي نحيل الجسم الذي فاجأهم. كانت تلك سابقة أن يطرح أحد أعضاء المحفل، لا سيما أكبرهم عمراً ومكانة، رأياً كهذا. أن يكون للشارع «حضور ضئيل» يعني أن يكون في داخل المحفل من يمثل هؤلاء... تلك سابقة... وهي سابقة ما كان لأحد جرأة طرحها لو لم يكن نحيل الجسم قد فعل. تشفع له مكانته لدى الزعيم، وعمره، وإيمان باقي الأعضاء بحكمته. مع هذا، استهجن رأيه، وبقوة أيضاً.

لم تعن نحيل الجسم همهمات المحفل ومضى يتابع حديثه «أنا لا أثق بكل أولئك الذين يصرخون، وأشك في ولائهم لنا» التفت إلى العضوة التي تجلس بعيداً عنه «مع ذلك أقول، ودرءاً لأيّ احتمال، وإظهاراً لكرمنا ورغبتنا الصادقة في الاستجابة لهم، فإني أرى أن نستجيب لبعض مطالبهم، وإن كانت المشاركة في صنع القرار. ويبقى الزعيم صاحب القرار إن ارتأى خلاف ذلك».

لم ينطق أيّ من الأعضاء. وساد صمت إلا من صدى صوت نحيل الجسم...

«أخشى أيها المحفل الكريم» قال مواصلاً حديثه «أخشى أن سفينتنا الهادئة ستواجه ريحاً قد تبعدها عن مرفأ الوطن. وسنحتاج ولا شك إلى ما وهبنا الله من حكمة كي ترسو السفينة حيث ينبغي

لها. لقد عالجت حكمة الزعيم، وجهازه العجائبي الذي ترونه هناك، الموقف في المرة الأولى. وعلينا الاستفادة من حكمته وجهازه لتجاوز الأمر ثانية. ولو أن الأمر بيدي لقلت أعطوا أولئك الزاعقين في الشارع، ما يطلبون، وليصمتوا».

«عاش الوطن»...

«عاش الزعيم»...

«المحفل مقدّس... المحفل مقدس»

هتف الأعضاء.

دون توقع، فتح باب القاعة العملاق على مصراعيه ودخل الزعيم.

* * *

قال أحدهم لنحيل الجسم «لم أنم البارحة أيها العضو الموقر... لقد أمرت كل من يعمل في منزلي بأن يمنع تسلل أصوات المحتجين إليه، هل تعلم ما حدث؟ لقد اخترقت أصواتهم جمجمتي وأنا أتقلب على سريري. زوجتي لم تسمع شيئاً. هل تصدق هذا؟ وحدي كنت أسمعهم. صوتهم صاخب وقوي. لقد جعلني أرتعب. لأول مرة منذ سبعين عاماً في المحفل، أرتعب من هذه الأصوات».

«قد لا تهنأ بنومك في الأيام القادمة أيضاً».

«لقد طلبت من زوجتي، التي لم تسمع شيئاً، أن تشدّد الرقابة في المنزل، وتسد كل المنافذ، وتضع لاصقاً حول إطار النوافذ. إن تلك الأصوات أشبه بمرض معد».

«ستجدك الأصوات أينما ذهبت».

«نحن في حاجة إلى رجاحة عقلك... كلنا في حاجة إليها أيها العضو الموقر. فكيف ترى الأمر»؟

بقي نحيل الجسم صامتاً.

«... إني خائف... قل لي كيف ترى الأمر»؟

بقي نحيل الجسم صامتاً.

«... أستحلفك بالله قل شيئاً. عقلي يكاد يجن، وعقلك هو أملنا».

التفت إليه نحيل الجسم وقال في وقار «من الخطأ أحياناً الاعتماد على العقل دائماً».

* * *

لم ينتبه، وهو في طريقه إلى المستشفى صبيحة ذلك اليوم، أنه منذ عدة أيام، وغير بعيد عن منزله في الحيّ المتواضع، يتجمهر بضع عشرات وهم يحملون لافتات ضد المحفل وضد الزعيم. لم ينتبه أيضاً، إلى أنه غير بعيد عن حيّ راقٍ على أطراف المدينة، تجمهر بضعة الآف وهم يحملون صور الزعيم وأعضاء المحفل يهتفون بحياتهم. كان يقودهم رجل مربوع القامة يضع على رأسه طربوشاً أحمر.

لم يكن الزوج معنياً بأحوال الشارع كثيراً، وهتافات من هو مع أو ضد، كما أنه في تلك اللحظة تحديداً، ما كان يشغله سوى أمرين: مرض زوجته وإصلاح غسالة الثياب التي استعصت عليه.

في المشفى، أحس بثقل يجثم على صدره وهو يسمع صفير سيارات إسعاف تتوالى على مدخل طوارئ جانبي.

تمتم بضع كلمات أشبه بترنيمة صلاة وأخذ مكانه في مؤخرة

طابور طويل انتظم أمام موظف الاستقبال. من بعيد أتاه صوت الموظف الذي أنقده مالاً كي يساعده في تحديد موعد عاجل لعملية زوجته الجراحية. صوته مع صفير سيارات الإسعاف ملأ فضاء المشفى بكآبة دسمة.

ببطء تحرك الطابور. بدت قسمات الموظف القاسية ونبرته الحادة وكأنه هو من يقرّر استحقاق المريض للعلاج من عدمه، ولو كان على حساب الدولة. كان يتصرّف، فوق ذلك، بجفاء كفيل بدفع البعض إلى العودة بمرضاهم إلى بيوتهم التعيسة، على أن يصفعهم بفظاظته.

بعد ساعات من الانتظار، حان دوره. فور أن رآه الموظف استبدل تكشيرته الرسمية بابتسامة بالكاد تسمّى ابتسامة.

«أتيت حسب طلبكم لإتمام الإجراءات الخاصة بالعملية. ستكون بعد خمسة أيام أليس كذلك»؟ سأل الزوج في انكسار وكأنه يطلب إحساناً.

«حسن، لنرَ» قال الموظف نصف المبتسم، وأخذ يقلب في بضع أوراق أمامه «هناك عملية، اثنتان، ثلاث، وهذه أيضاً، ثم هذه...» ومضى يقلب ورقة إثر أخرى قبل أن ينظر في خبث إلى الزوج ويقول «هناك جيش كبير من المرضى. يا إلهي ماذا يفعل هؤلاء بحياتهم ليلقوا بأحمالهم علينا»؟ سرت رعشة في أطراف الزوج وهو ينظر بعيني متوسّل إلى الموظف يقلب أوراقه «لا تخف... سأبذل جهدي ليكون الموعد بعد سبعة أيام لا خمسة كما أخبرتك من قبل. ها أنت ترى عدد من ينتظرون».

«لكن... أنت قلت خمسة أيام من قبل».

«لا عليك. سأرى ما يمكن فعله. دعني أفرغ من بعض المراجعين. انتظرني هناك».

تساءل الزوج إن كانت الورقة الثمينة التي زرعها في يد الموظف أول مرة متواضعة بما يحول دون إبقاء العملية كما هي في موعدها بعد خمسة أيام. بتلقائية، وهو جالس إلى مقعده ينتظر، وضع يده في جيبه ولامس حافظة نقوده. لم يجرؤ على إخراجها، واكتفى بأن تعد أصابعه ما بداخلها.

تصبّب عرقاً وهو يتحسّس ورقتين نقديتين هما كل ما في محفظته، وكل ما بقي لهذا الشهر. لم يكن أمامه بد من القرار الصعب: التخلي عن واحدة من أجل الموظف. وكأنه يعتذر من التفريق بين الورقتين تمتم كلمات غير مفهومة، وأخذ يفكر ما يمكن لإنسان يعيش حياة بسيطة مثله أن يفعل بورقة واحدة لما بقي من الشهر. ولما كان الشهر في منتصفه فكر أنه يمكن أن يكون البصل والقرع غذاءً جيداً للأيام المقبلة. وأجّل، بطبيعة الحال، إمكانية شراء غسالة ثياب جديدة يدفع قسطها الأول على الأقل.

نظر إلى الطابور المتزايد أمام موظف الاستقبال. وقدّر أن العدد ربما تخطى الخمسين. وفكر بحسبة بسيطة، لو أن كل واحد من هؤلاء دفع مبلغاً زهيداً من المال للموظف نفسه، فإن هذا الأخير سيكون من الثراء بحيث يفتح مستوصفاً يملكه، وربما مستشفى في ما بعد.

بقي جالساً ينتظر حتى انتصف النهار، وضاع يوم عمل جديد، ولم يحسم أمر موعد العملية النهائية بعد. بلغ التوتر حده الأقصى مع انضمام بضعة مراجعين إليه بعدما أشار لهم الموظف ذاته بأن ينتظروه

حتى يفرغ. «كلهم سيدفعون»، قال في سره وعاد يتلمس حافظة نقوده. وكأنه قارب على البكاء، قرر أن تكون الورقتان من نصيب الموظف. دفعته إلى ذلك رغبة أن يزيد من فرص نجاحه في تقديم موعد العملية فيما لو كان أحد المنضمين الجدد إلى طابور انتظاره يطمح إلى الشيء ذاته.

مضت أكثر من ثلاث ساعات قبل أن يأتي موظف آخر مستبدلاً مكان الموظف الأول. اتجه الأخير إلى الزوج الذي تيبّست يده على حافظة نقوده، كما تيبّس جسده على مقعده الخشبي حتى بات له ظهر يشبه انحناءات المقعد.

أشار عليه أن يتبعه في صمت، وأشار إلى البقية أن ينتظروه قليلاً. مضى به إلى حجرة مجاورة فيها عدد غير قليل من النساء والأطفال.

التفت إلى الزوج وقال «كما ترى، عدد المراجعين كبير جداً. وتأمين موعد بعد خمسة أيام، كما أخبرتك من قبل، قد لا يكون سهلاً، لكن...» قاطعه الزوج في ما يشبه الرجاء «سيدي... كنت أتساءل لو أمكن تقديم موعد العملية يومين أو يوماً واحداً على الأقل عن الأيام الخمسة. فألم زوجتي يزداد. وقد نصح الطبيب بنفسه، أنت تعرف الطبيب أليس كذلك؟ لقد نصح هذا الطبيب المحترم بتعجيل الموعد خشية عواقب، الله وحده يعلم كيف ستكون».

نظر إليه الموظف، وهو يفتح كتيباً صغيراً، من أسفل نظارة لم تنظف منذ عدة أعوام. بقي صامتاً يقلب صفحاته قبل أن ينطق «تريد تقديم الموعد هه...»؟

«جميل لن أنساه لك» ومد يده إلى حافظة نقوده، وبعجل

وارتباك، أخرج ورقة نقدية واحدة زرعها في يد الرجل. لم يعرف في تلك اللحظة ما إذا كان إلهام سماوي قد دفعه إلى الاكتفاء بورقة واحدة أم هو حظ سيّئ في شراء ذمة موظف هو سيئ بطبيعته. لكنه في الحالتين نجح في ما أراد.

«... كونا هنا في السابعة صباحاً بعد أربعة أيام. ولا تدع زوجتك تأكل شيئاً قبلها». قال الموظف وهو يضع غنيمته في جيبه وينصرف إلى مراجع آخر طلبه إلى المكان ذاته.

«الحمد لله» قالها الزوج وزفر «أنقذت الورقة الثانية».

خطا إلى الخارج سعيداً بفوزه أن تمكن من تأمين موعد العملية، بل وتقديمها يوماً واحداً، ولو دفع من أجل ذلك نصف ثروة هذا الشهر. في لحظة انتشائه تلك خطرت في باله فكرة سؤال الموظف أن كان بإمكانه المكوث مع زوجته أثناء العملية، فعاد أدراجه. كان الموظف مشغولاً بمذاق دم آخرين في الحجرة ذاتها. انتبه له فسأله من تحت نظارته السميكة بدوائرها القذرة عما يريد.

«هل بالإمكان مرافقتها أثناء العملية»؟

«إمم... كما ترى، عدد المراجعين كبير جداً، وكلهم يطلبون الشيء ذاته، والسماح بمرافق معها قد لا يكون سهلاً...»

«حسن، لا داعي لذلك. ستكون في أيد أمينة على أية حال. أثق بذلك. أشكرك مرة أخرى» قال وهو يعود إلى الوراء بظهره ويفكر بأن التضحية بالورقة الأخرى ليست فكرة سديدة من أجل البقاء مع زوجته وهي في مستشفى يرعاها بأية حال. قبل أن ينصرف قال مداعباً الموظف «لا شيء بالمجان هنا».

«بلى... فنحن لا نأخذ شيئاً على الموت».

سرت رعشة في الزوج وهو يسمع العبارة القاسية، وانصرف مهرولاً. زاد من ارتعاشته أصوات سيارات إسعاف ظلت تتوالى على المستشفى. وعوضاً عن أن يسلك الممر الموصل إلى باب الخروج الرئيسي، وجد نفسه يجتاز قاعة الاستقبال الكبرى، ويدخل في ممر جانبي يعج بالحركة. عندما أدرك خطأه وهمّ بالعودة متخطياً بضعة أبواب جانبية وجد أحدها نصف مفتوح يقف على جانبيه رجلا أمن مسلحان. راوده فضول بالنظر إلى الداخل فلمح أحدهم من بعيد وهو ملقى على سرير يقطر دماً يقف حوله أطباء وممرّضون. أحس بخوف لا يعرف سببه، ومضى في طريقه يتلمس باب الخروج وسط هرج ومرج كبيرين. لكن الفضول عاد به أمام الباب الذي شاءت الصدفة أن ينفتح على مصراعيه مع خروج ممرض تلطخ رداؤه بالدم. من ورائه منظر لن ينساه لعشرات الأجساد النازفة وهي تتأوّه في ألم. ثم لم يلبث أن أغلق أحد رجلي الأمن الباب.

هرول الزوج باتجاه الباب الرئيسي خارج المستشفى وهو يرتطم بمسعفين يحملون الكثير من المصابين الجدد، حتى خيّل له أن زلزالاً أصاب المدينة كلها. في باحة المشفى رأى ثلاث سيارات شرطة تدخل في هدوء دون أن تطلق صافراتها.

جاهد كي يغلب انتشاء موعد عملية زوجته ما رآه خلف الباب المفتوح. ركب سيارته التي بحجم حبة الفول، وسلك طريقه عائداً إلى المنزل.

كان المساء يقترب، والحركة في الشوارع عادية باستثناء بضع

سيارات أمن انتشرت في أماكن متفرقة. لم يكن واثقاً إن كانت تتمركز مكانها هكذا دائماً أو... أو... «أن لذلك علاقة بأعداء الوطن» الذين يتحدث عنهم التلفاز؟ بصورة ما عادت إلى أذنه تلك الأصوات المتألمة وراء الباب في الممرّ الجانبي داخل المستشفى.

توقف غير بعيد عن منزله، واشترى باقة ورد وعلبة شوكولا. في المنزل طبع قبلة على وجنتها وسألها «كيف تشعرين الآن»؟

«أبطأت كثيراً. هل كل شيء بخير؟ وما هذا الشحوب على وجهك؟ هل أخبروك بشيء»؟

«كل شيء على ما يرام» قال وهو يتحاشى النظر إلى شحوبها وقد ازداد عما كان عليه، «موعدنا في السابعة صباحاً، بعد أربعة أيام».

أعدت له وجبة هي بين الغداء والعشاء. تناول طعامه في شبه صمت. كانت صور كثيرة تدور في رأسه، ممزوجة بتأوّهات مؤلمة. أزعجه أن يرتبط ذلك باليوم الذي تحدّد فيه موعد العملية، ورآه نذير شؤم. فكر أن يخبرها بما رآه وراء الباب في الممر الجانبي، لكنه أحجم وآثر الصمت فلا يزداد خوف الزوجة المترددة بشأن العملية في الأصل.

في مساء ذاك اليوم، حاول أن يخرج من مزاجه العكر بالانصراف إلى إصلاح الغسالة من جديد.

«لا ترهق نفسك بها. سأدبّر أمر الغسيل بيدي حتى نتمكن من شراء واحدة أخرى».

«تحتاجين إلى راحة كاملة بعد العملية. ولست أعتقد أني أستطيع تدبّر أمر الغسيل بنفسي». قالها وهو يجاهد في صنع ابتسامة.

أخذت الزوجة مكانها مقابل التلفزيون تتابع الأخبار، وانهمك هو بإزاحة سلك وتوصيل آخر. من بعيد سمع الأخبار تتحدث عن بضعة أشخاص ألقي القبض عليهم. اشتبكوا مع رجال أمن أثناء تظاهرة لمحتجين اكتشف لاحقاً «أنهم أصحاب فكر متطرف». لوهلة خطر له أن يكون من رآهم وراء الباب المفتوح هم أولئك المحتجين. جمدت عيناه في محجرهما وهو يتذكر بعض صور من رآهم يتأوّهون دون أن تبدوا عليهم ملامح شر أو تطرّف.

عجز عن مواصلة عمله مع الغسالة، فتركها مفككة الأوصال كلعبة عبث بها طفل.

«سألقنها درساً في وقت آخر» قال في سخرية يطرد بها أصواتاً مؤلمة تضرب جنبات رأسه، وأخذ مكانه بجوار زوجته المنصرفة بكليتها إلى متابعة الأخبار.

لم تتفوه بكلمة واكتفت بنظرة باسمة إليه. كانت أكثر ما يحتاج إليه في تلك اللحظة. كانت ثروته. ترياقه. كانت هي كل ما يملك في الدنيا منذ خمسة عشر عاماً عاشا خلالها لا أحد للآخر سواه.

في تلك اللحظة، جرفته الذاكرة إلى لقائه الأول بها في منزل شقيقته التي تعيش اليوم في مكان بعيد. أحبها من النظرة الأولى. وبادلته المشاعر في اللحظة ذاتها. من ذلك الحين لم يفترقا. لم يكن يبتعد عنها أكثر من ساعات العمل، ولم يرزقا بأطفال لعلة بها. وكم جاهدا وزارا أطباء ودجالين من أجل طفل. لكن بقيت العلة بلا دواء فاستسلم كل منهما لواقع أن الآخر هو الابن كما هو الزوج.

مرضها الأخير لم يكن الأول. وما قضاه من وقت معها في

المستشفيات لا يقل عما قضياه في منزلهما الصغير. ما تأفف يوماً ولا اشتكى. وبقي واثقاً، بل ويزداد ثقة كل يوم، بأن أحلامه لن تكون ذات قيمة بدونها. كان مفعماً بالإيمان، وهو الموظف البسيط، بأن القادم أفضل، معززاً ذلك بحدسه الذي كثيراً ما ردّده بأن الحظ لا يأتي سوى للمبتسمين وحدهم. وإذا ما أضاف إلى هذا الحظ، الذي سيأتي إليه ذات يوم ولا شك، مع اجتهاده في عمله، واعتنائه بزوجته التي هي كل ما يملك، فإنه عما قريب سيكون قادراً على شراء غسالة جديدة وسيارة أحدث ربما.

تفكيره وهو جالس إلى جوار زوجته بالحظ والحياة الجميلة القادمة دفعه بصورة عبثية إلى التفكير بالماضي. داخله، للحظة فقط، خوف أن يكون الماضي هو أجمل ما عاش، ودون أن يدري أحس بعينيه تدمعان. أشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى فلا تراهما زوجته، ثم سأل في نبرة ساخرة شديدة التصنع «هل من أخبار عنّي في التلفاز»؟

لم تجبه. التفتت إليه في هدوء وبيد رقيقة أدارت رأسه إليها. كان كتابها المفتوح. ضمّته إلى صدرها ولامست بشفاهها وجنته.

لم يتمالك الزوج فبكى وهو يضمّها بقوة إلى صدره.

همست في أذنه «سأكون بخير».

غالب شهقة وهو يقول بكلمات تشبه أحجية «قولي إنك تحبينني. قولي إنك ستبقين معي للأبد...». ضمّته أكثر مداعبة مؤخرة رأسه «يا طفلي الصغير، سأبقى معك للأبد».

ألهتهما الحميمية عن أخبار التلفاز. أهم ما فيها إعلان المحفل عن قرارات سيعلنها الزعيم في الغد. قال المحفل بالحرف الواحد إن تلك

القرارات «ستحمل الوطن إلى عهد جديد».

* * *

أطبق على القاعة الكبرى للمحفل صمت إلا من وقع خطوات الزعيم المنتظمة حتى توقفت أمام جهازه ذي الأربعة عشر مفتاحاً. اتكأ عليه دون أن ينظر إلى الوراء حيث الأعضاء يقفون، وبحزم قال «هل لدى أحدكم ما يقول»؟

لم يجبه صوت. اعتدل في وقفته ومضى يقول «لقد سئمت من أفكاركم. إن هذا الجهاز أكثر فائدة منكم».

استدار ينظر إليهم وقد علا قسماتهم وجوم ثقيل «هؤلاء ليسوا رعاعاً يزعقون بلا سبب. ولا هم غوغاء تقودهم عواطفهم. الأمر أكبر من ذلك. هناك فكر يقودهم. ولن نسيطر على الشارع قبل أن نعرف الرأس المدبّر».

اقترب نحيل الجسد خطوتين منه «أيها الزعيم، إن كان هناك من يحرك الشارع فأنتم قادرون ولا شك على الوصول إليه. والرأي عندي، إن أحببت سماعه دون أن أزيد سأمكم، هو أن نقترب أكثر من تلك الأصوات لنعرف ما تريد أولاً، ومن يقودها ثانياً».

«أجيبك أنا على الأولى والثانية أيها العضو الموقر» قال الزعيم «تطلب الإصلاح في ظاهرها، لتغطي على فكر متطرّف يقودها. يريدون أن يقلبوا المجتمع رأساً على عقب. كل واحد من هؤلاء يرى نفسه قائداً».

«أيها الزعيم» قالت عضوة المحفل الجريئة الطرح «إن اقتربنا من

الشارع أكثر، كما أشار العضو الموقر، فسنعرف أي إصلاح يريد ونحقق ما استطعنا عليه. إن تجاهل الأمر، أو إعطاء القليل، أو التلويح بقبضة قوية، قد لا يكون ذا أثر ناجع في هذه المرحلة».

«لو أعطيناهم ما يريدون، ما بقي عضو في محفلنا هذا، وانقلب المجتمع رأساً على عقب. إصلاحهم قناع يخفي وراءه ما هو أكثر خطورة من دعوات حرية».

«إن القوة وحدها ما يحمي محفلنا ومجتمعنا من عبث هؤلاء» قال عضو الأمن.

«لا نريد أن نعظم من شأنهم فيبدوا كندّ لنا» قال الزعيم وهو يعاود النظر إلى جهازه ذي الأربعة عشر مفتاحاً «سنعطيهم مرة أخرى بعض ما يطلبون فنمتص جزءاً من ثورتهم، وفي الوقت نفسه نبحث عن أولئك الذين يحركونهم».

«إعطاؤهم ما يريدون وإن كان قليلاً قد يفسد الأمر أيها الزعيم» قال عضو الأمن.

«لو أعطيت شحاذاً يسكن قرب بيتك درهماً مرة واحدة طوال عام كامل، فسيذكره لك بخير. ولو أعطيته كل يوم ومنعت عنه يوماً واحداً، تذكر هذا اليوم ونسي الأيام الأخرى» قال الزعيم ثم التفت إلى الوراء وأضاف «أعط القليل فيعظم ندرته ولا تمنح الكثير فتفقد الندرة قيمتها».

وكما لو أن الزعيم نطق بالحكمة الوحيدة التي خلقت ذلك اليوم دوى تصفيق حاد جنبات القاعة اهتزّت معها ثريا القبة العظيمة كراقصة فلامنغو.

«عاش الزعيم...» هتف صاحب الكرش المحترمة

«عاش الزعيم...» هتف صاحب الصلعة العظيمة

«عاش الزعيم...» هتف ثالث لم ينطق منذ بضعة أعوام.

«عطاء كهذا سيمنحنا المهلة أيضاً لنعرف حقيقة أولئك الذين يحركون الشارع في الخفاء» أضاف الزعيم وسط جلبة الهتافات.

«عاش الزعيم...».

«عاش الزعيم...».

وقف الزعيم أمام جهازه، تحفه حماسة الأعضاء وهتافهم، وعبث بأحد المفاتيح، ثم رفع رأسه في وقار تعلوه ابتسامة وكأنه يسمع مقطعاً موسيقياً.

علت موجة التصفيق حتى ملأت فضاء القاعة فتسربت من كل ثقب لتجوب شوارع الوطن في مسيرة تهتف باسم الزعيم، متجاوزة في تجاهل مطلق الفئة المحتجة التي زادها الأمر استفزازاً.

وبتحكم عجيب، بدأت القاعة تسكن قليلاً في تناغم مع حركة أصابع الزعيم وهي تلعب بمفاتيح جهازه، حتى ساد الصمت أرجاء المكان.

وكأن الزعيم وحده هو الوطن وأمانه، سكن الجميع إحساس الثقة دون أن يسأل أحدهم عن مصادر إلهام الزعيم وحقيقة أفكاره وماهية جهازه العجائبي الذي يُحظر الاقتراب منه.

في أقل من خمس دقائق، انقلب المحفل من مترقب خائف وآراء تتطاير كشظايا جارحة إلى فكرة واحدة قررها الزعيم، وهي أن يمتص أي غضبة أو احتجاج بقرارات عطائه التي ما كان لأحد أن يقترحها

بتلك الكيفية التي طرحها هو.

«سيترقب الشارع قرارات سنعلنها» قال الزعيم وهو يعود إلى طاولة المحفل الكبيرة ويشير إلى بقية الأعضاء أن يأخذوا أماكنهم.

بعد أن استقر كل في مكانه نظر الزعيم إلى نحيل الجسد بلحيته البيضاء، وحدّثه في شبه همس «أتمنى أن أكون مخطئاً، فلا يكون هؤلاء الذين يزعقون في الشارع هم من أتوقع».

« لم نعهد خطأ منك، لكني أتمنى بالمثل أن لا يكونوا هم».

أطلق الزعيم زفرة ثم رفع رأسه إلى الأعلى كأنما يتابع تفاصيل ما نقش على سقف المحفل «ما أجمل الوطن، انظروا إلى هذه القبة المهيبة وزجاجها المعشق بألوان الوطن، وإلى هذه الثريا الجميلة التي تنير الوطن، وإلى تلك الأعمدة الشامخة والحوائط الرخامية، والنقوش الذهبية التي تفوح رائحتها بقوة الوطن وثراء تاريخه. كيف لأحد أن يعبث بكل هذا»؟

دارت رؤوس أعضاء المحفل تجوب ما ذكر الزعيم، في السقف، والحوائط، والقبة الذهبية المعشقة. كانت رؤوسهم تدور وكأنما عصا سحرية تحركها.

«يا لجمال سقف الوطن»...

«يا لروعة أعمدته»...

«أيّ وطن له تلك القبة الرائعة»...؟ قال ثالث وكأنها المرة الأولى التي يرفع فيها رأسه هنا.

تعليقات أعضاء المحفل كانت من التقديس حداً يمكن تضمينها دستور الوطن. ولعله كان في حاجة إلى ذلك وسط صراخ الشارع

الآخذ في التصاعد. إنه الشارع الذي يرى الوطن أكبر من مجرد قبة ذهبية ونوافذ معشقة.

«ستكون قراراتنا تاريخية... سأقول أيضاً إنها غير مسبوقة. واعلموا أيها الأعضاء الأجلاء أني لا أحقق بعض ما يطلبه الشارع خوفاً من أحد، فذلك لن يحدث أبداً. بل إن هدفي هو معرفة ما يريد هؤلاء. إن الحيلة وحدها طريقنا للإيقاع بمن يحركهم. أطلقوا سراح المعتقلين».

نظر الأعضاء بعضهم إلى بعض في صمت، وعلق عضو الأمن «سنفعل أيها الزعيم».

«تمضي الأيام سريعاً أيها السادة. أسرع مما تصوّرون. لكن مشاغلكم تحت هذه القبة، وعملكم المضني، وانصرافكم عن بيوتكم وحياتكم وصداقاتكم من أجل الوطن، أفقدتكم حس الزمن. وإني إذ أقدّر حجم اجتهادكم من أجل شعبنا ووطننا فإنه قد فاتكم وسط وفائكم الوطني أن الناس قد تضاعف عددهم. الصغار قد كبروا، وتزوّجوا، وأنجبوا. والقرية التي كان يسكنها مئة يسكنها اليوم ألف إنسان، ومدينة المليون أصبحت أرض بضعة ملايين».

«صدقت أيها الزعيم»... قال أحدهم...

«ما عاد مستشفى واحد يكفي، ولا مركز شرطة واحد يكفي، ولا مدرسة واحدة تكفي» صمت الزعيم قليلاً ثم أضاف وهو يلتقط أنفاسه ويقلب النظر في عيون تسمّرت عليه «سنبني مشفى جديداً، وعدة مراكز شرطة، نريد عشر مدارس إضافية، وجامعة أو اثنتين».

«سنبني المشفى أيها الزعيم».

«... وسنبني عشر مدارس».

«بالنسبة لمراكز الشرطة...» قال عضو الأمن «نحن في حاجة إلى أفراد أمن أكثر، كما أننا في حاجة إلى سجون أكبر».

«وماذا عن جيش العاطلين والعاطلات»؟ سألت عضوة المحفل.

سرت همهمة في القاعة، بدت استنكاراً لسؤال العضوة، فمسألة العاطلين تعني أحد أمرين: خلق وظائف جديدة، وهو ما يتطلب ميزانية قد تفوق قدرات الوطن، أو إحلال دم جديد في الوظائف مكان من عشّشوا فيها لسنوات طوال، وهذه النقطة الأخيرة تحديداً هي ما يثير حساسية أعضاء المحفل، لأن ذلك يعني على وجه الخصوص المساس بقدسية أهل الخبرة المتمسكين بمواقعهم ولو كانوا أعضاء المحفل ذاته. وإن كانت قدسية المنصب قد حمت طوال عشرات السنين مواقع الأعضاء حيث هم، فإن تلك النبرة الجديدة التي يطلقها البعض في الشارع، وحتى طرح عضوة المحفل لها كفيل بإدخال شيء من الخوف إلى نفوسهم.

لكن الزعيم أجابها في هدوء «عندما نبني مشفى جديداً ومراكز أمن جديدة ومدارس وجامعات، فإن ذلك كفيل بتوظيف العاطلين دون المساس بأهل الخبرة».

«إن في ذلك ضغطاً على قدراتنا المادية» قال عضو معني بموارد الوطن.

«لنعط الأولوية للصحة والتعليم» قالت عضوة المحفل وهي تنظر إلى عضو الأمن «ولست أعتقد أن الوطن في حاجة إلى سجون أكبر بعد أن نطلق سراح من شملهم قرار الزعيم».

«في الواقع...» قال الزعيم وهو ينظر إلى العضوة «إن ما نطقت به هو الصواب بعينه. فلسنا بحاجة إلى سجون إضافية لأن السجن هو لأعداء الوطن فقط. ونحن نحب الوطن. إلا أننا في حاجة إلى معرفة من يحبه حقيقة لا ظاهراً فقط. ومن أجل ذلك وجب علينا أن نزيد عدد آذاننا في كل مكان. نريد أن نعرف كل كلمة تقال في الشارع ووراء الأبواب المغلقة، وحتى في غرف النوم. المعلومة سلاح خطير أيها السادة. ما رأيك في ذلك أيها العضو المبجل»؟ سأل الزعيم صاحب الجسد النحيل الذي لم يكف عن مداعبة لحيته البيضاء الطويلة.

«نعم... هو كذلك، فأمن الوطن قبل كل شيء» أجاب في اقتضاب ثم أضاف «كنت قد اقترحت أيها الزعيم...»

لم يلتفت الزعيم إلى ما سيقول نحيل الجسم واستمر في حديثه «لن نزعج أحداً بعيوننا وآذاننا، لأنها ستعمل في صمت، أليس كذلك يا صاحب الأمن»؟

«أعدكم بذلك أيها الزعيم».

«وبذلك، فإن العاطلين عن العمل سيكون لهم نصيب من هذه المهمة. وهكذا نؤمن لهم وظائف محترمة، وفي الوقت ذاته نحمي الوطن».

«عاش الزعيم...».

«عاش الزعيم...».

«هل رأيتم أيها السادة... ها نحن نعطي ولو كان قليلاً، المهم أن لا يتوقف العطاء». قال الزعيم ونهض باتجاه جهازه الذي يشبه بيانو

قديماً، أدار أحد المفاتيح بحرص ودقة، ثم التفت إلى الأعضاء وقال قبل أن يغادر «عندما تخرجون من هذا الباب الكبير أيها السادة، ستجدون وطناً مختلفاً».

* * *

عاد الزوج إلى منزله أبكر من موعده. أراد أن يسامر زوجته ويهدّئ من روعها في الليلة التي تسبق العملية صباح اليوم التالي، كما أن عليهما النوم باكراً.

لفت انتباهه أثناء عودته امتلاء الشارع بحركة غير معتادة. وبشكل غير مسبوق، بالنسبة له، رأى مجموعة أفراد يتجمعون قرب شجرة هزيلة تتوسّط ميدان المدينة، وقد حملوا صوراً للزعيم يهتفون بحياته. تكرّر المنظر في أكثر من مكان على امتداد الطريق إلى البيت. في واحدة من تلك المسيرات، وقد كانت أكبرها، رأى حشوداً، يقودها رجل يلبس طربوشاً أحمر، تحمل أعلاماً كبيرة للوطن تلوّح بها أمام مجموعة تقابلها تحمل شعارات تطالب بالإصلاح وتهتف ضد المحفل. مجموعتان تقفان أمام بعضهما بتماسك شديد مع هتافات تأييد هنا وصيحات تنديد هناك. القاسم المشترك بين المجموعتين كان حملهما لأعلام الوطن.

لم يكن الزوج معنياً، ولا زوجته، بأي من الفئتين، ولا بالقرارات التي أصدرها الزعيم بشأن إطلاق المعتقلين وبناء مدارس أو جامعات. العملية الجراحية كانت همّهما الأكبر، وإصلاح الغسالة القديمة من بعدها.

عندما دخل منزله مساء كان يخبّئ وراء ظهره وردة بيضاء قدّمها لزوجته «إنها بلون قلبك» قال وطبع قبلة على جبين شاحب.

ساعدها في إعداد مائدة خفيفة ليتناول طعامه، فيما هي تراقبه دون أن تأكل شيئاً حسب توجيهات الطبيب، أو بالأحرى، حسب توجيهات الموظف صاحب النظارة السميكة الملوّثة بعرق الفقراء.

لم يأكل الزوج كثيراً، مكتفياً ببضع لقيمات. ساعدها في تنظيف المائدة والأطباق وهو يشعر بها تتألم صامتة. انصرف إلى مخدعهما فيما جلست هي أمام التلفاز. غاب عنها أكثر من ربع ساعة، ثم نصف ساعة. نادته بصوت تعب دون أن يردّ عليها. قامت تنظر الأمر فوجدته جاثماً على الأرض يصلي. عندما رفع رأسه كانت عيناه تدمعان. جثمت بجواره حتى فرغ من صلاته وضمّته إلى صدرها «أنت تخيفني».

ردّ عليها بصوت متحشرج «أصلي لله أن خلقك من أجلي».

«لا نريد أمسية درامية» قالت وهي تنهض وتمسك بيده. تلمّس يدها وأرخى خدّه على راحتها قبل أن ينهض معها ويمضيا إلى صالتهما الصغيرة. حلت الظلمة في الخارج وهما يشاهدان التلفاز. أخبرها في حديث أقرب للهمس بما شاهده من مسيرات في الشارع، وبما يردّده الناس.

«ليحمِ الله الوطن» قالت عبارتها التي تكرّرها كلما همّ هو بالحديث عن الوطن أو المحفل والزعيم، وكأنها تذكّره دوماً بأن للحوائط آذاناً تسمع. ورغبة في إضفاء جو أكثر مرحاً، طالع برنامجاً ساخراً مستجدياً منه ابتسامة تنسيه خوفه. ثم طالع برنامجاً عن الفضاء.

كان الفضاء يأسره دوماً. إنه يأخذه إلى عالم طوباوي يعشقه ويهبه فرصة للتفكير والتأمل في شيء أكثر نفعاً من وظيفته المملة وحياته الرتيبة إلا من زوجة يحبها وأشياء يهوى تفكيكها وإصلاحها.

«لا أعلم ما تحب في برامج الفضاء تلك» قالت «إنها تصيبني بالملل».

«عذراً... عذراً» قال وانتقل إلى قناة أخرى. استقر أمره على قناة دينية جذبت انتباه زوجته.

«أليست علوم الدين أفضل»؟

«علماء الفضاء يقربونا إلى الله أكثر مما يفعل رجال الدين» أجابها وهو يمسك بيدها في رفق «يومنا طويل في الغد لنذهب إلى الفراش».

انسل إلى فراشه، فيما بقيت هي تصلي وسط صمت مطبق. كاد يسمع صلاتها، وهي جاثية قرب السرير. اختلطت ترانيمها الهادئة مع ألم أرقدته عنوة في أعماقها. وكأنها كانت تصرخ في صمت، ابتلع الزوج بقايا دمعة عنيدة علقت في مقلتيه، وتمتم صلاة سريعة مستجدياً السكينة والنوم.

وحده النوم، والساعات القليلة المقبلة، كانت أملهما في الخلاص من معاناة التهاب حاد في المرارة بدأ منذ ثلاثة أشهر. إنها الفترة التي نضج فيها المرض، فتفجر كنافورة ألم زاد بسكوتها عنه، حتى باحت به تحت وطأة إحساس زوجها بها ولو بقيت صامتة. لو قدّر لألمها أن يتجسّد كرغيف خبز يابس، فإن الزوج قد نال نصف الرغيف كاملاً.

بعدما أتمّت صلاتها، نظرت إليه فرأته نائماً، وهي على يقين بأنه لم ينم بعد. انسلت بهدوء إلى فراشها ومالت على جنبها الأيسر وهي

تنظر إليه مغمض العينين. بقيت تنظر إليه واثقة بأنه ينظر إليها من وراء جفنيه المطبقين. كانا يتحدثان في صمتهما، وكان الحديث عميقاً.

لم يسبق لأحدهما أن نام بعيداً عن الآخر. و لم ينفصلا منذ زواجهما الطويل يوماً واحداً. وعملية اليوم التالي هي انفصال إجباري ولو لهذا اليوم فقط، أو حتى بضع ساعات منه. آلاف الأسئلة كانت تدور في رأسه، ولعلها ذاتها كانت تدور في رأسها هي أيضاً. «هل تحتمل المخدّر»؟ «هل ستطول العملية»؟ «هل سيكون لها آثار جانبية»؟ دوامة الاسئلة كانت هي محور الحديث الصامت بينهما.

«ما من خطر ما دام ممكناً استئصال المرارة قبل انفجارها». كانت عبارة الطبيب هذه تسكّن من روعهما من جهة، وتزيد مخاوفهما من جهة أخرى، فمن يعلم متى تنفجر؟ لقد أحسن صنعاً أن قدّم موعد العملية ولو ليوم واحد.

انقلب على جنبه الآخر متمتماً كلمات أمل يطلبه في أحلامه. وفيما كانت المدينة تبدأ نشاطها المسائي، انتصر تعبهما على القلق، وناما.

* * *

استفاق مع الفجر، فوجدها تصلي.

اغتسل سريعاً، ولبس ثيابه على عجل.

«ما يزال الوقت باكراً» قالت له.

«كانت الشوارع مزدحمة مساء البارحة، وأخشى أن تعيقنا بعض التجمعات وانصراف الناس إلى أعمالهم دون بلوغنا المستشفى في الموعد المحدّد».

لم يدعها تعد إفطاره، واكتفى بشربة ماء. أحس، وهو يضع فوقها رداءً سميكاً، أنه هو من ستجرى له العملية لا هي. وكم تمنّى في قرارة نفسه لو كان الأمر كذلك بالفعل.

شيء استثنائي لفت انتباهه أكثر منها هي المشغولة ببعض التسابيح الصباحية وهما يغادران المنزل. إنه هدوء غامض يلف الشارع. لم ير أحداً، ولم يسمع بوق سيارة واحدة، بل ولا رأى أيّ سيارة تتحرك. حسب لوهلة أنهما قد خرجا أبكر من الوقت المفترض. نظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى السادسة والربع صباحاً والضوء يعم المكان. في مثل هذا التوقيت منتصف كل أسبوع تكون الحركة قد بدأت تدب. الناس إلى أعمالهم، الأطفال إلى مدارسهم، وحتى القطط والكلاب تكون قد نفضت عنها تراب المساء وبدأت تجول بين القمائم.

أدار مفتاح سيارته وهو يتلفت يميناً وشمالاً يبحث عن إنسان يراه. بدا الشارع مهجوراً وخالياً من الحياة. أحس كأنه في مقبرة.

«أين اختفى الناس»؟

«لا أعلم يا عزيزي» أجابته وهي تتمتم صلاتها جالسة إلى جواره في سيارتهما العتيقة.

«لماذا الحوانيت مغلقة»؟

«قلت لك ما يزال الوقت باكراً».

«إنها السادسة وعشرون دقيقة... التوقيت ذاته تقريباً الذي أغادر فيه كل صباح إلى عملي».

انطلق بسيارته دون أن يرى بصيص حياة. انتقل من شارعه إلى

الطريق الرئيسي الخالي من الحياة هو الآخر، لكن لم يلبث أن عاد إلى الشارع الذي يقع فيه المنزل.

«لم عدت»؟

«نعم... إنها دارنا. تلك هي. لكن أين اختفى الناس»؟ تساءل وهو يستمع إلى هدير محرك سيارته يصله صافياً وكأنه في صحراء. ليس له ما يفعل، وسط هذا السكون الغريب، سوى المضيّ إلى هدفه.

غادر الحيّ الميت إلى حيّ آخر، فكان كسابقه. ورغم استعجاله، أبطأ السير فجأة.

إن كان من شيء يتحرّك فليس أكثر من ألوان إشارة المرور الضوئية، وهي تنتقل في تكرار لا يكل من الأحمر إلى البرتقالي فالأخضر، عدا ذلك لا شيء.

لم يكن هناك رجال أمن ينظمون السير حيث ما من أحد يسير، ولا حوانيت مفتوحة الأبواب حيث لا بشر أصلاً. اقتربت السيارة من مجمّع للدوائر الحكومية فبدت مهجورة إلا من علم الوطن يرفرف على واجهاتها. غير بعيد من هناك كان المحفل الذي بدا مهجوراً هو الآخر حتى من حراسه الذين ينتصبون كألواح خشبية على الأبواب وكأنهم خلقوا واقفين هكذا.

دبّ شيء من الرعب في نفسه. ليس انعدام الحياة حوله هو السبب، بل خشيته أن يكون المستشفى مقفراً كما هي الشوارع والطرقات والمدينة بكاملها. أراد أن يجوب بعض الأماكن الأخرى ليتأكد من أن هناك أناساً آخرين يعيشون معه، لكنه خشي أن يتأخر على المستشفى، وفي محاولة لتسكين رعبه تذكر أن علاج البشر

لا يحتمل استثناءات ولا بد أن يكون العمل في المستشفى آخر ما تتوقف فيه الحياة.

لقد كان مخطئاً.

فبعدما اجتاز تلك المسافة من داره، مخترقاً مدينة تشبه قفار القمر، لم يجد أحداً على باب المشفى. كانت بعض سيارات الإسعاف المهترئة تقف بلا انتظام داخل السور، ولا أثر للحياة.

بدأ يتصبّب عرقاً من أن يتحقق أسوأ مخاوفه. أن لا يكون أحد في الداخل. حاول التماسك أمام زوجته التي كانت ما تزال تردّد ترانيمها وهي تتلفت بين حين وآخر إلى الصمت يحيط بهما. بعد أن ترجّل من سيارته التي أوقفها أمام باب الطوارئ الذي كان مزدحماً بالمصابين قبل بضعة أيام، دخل الباب الرئيسي وكأنه المصاب بنفسه.

ليس هناك من أحد. لا موظف استقبال، لا أطباء، لا مرضى، لا بشر، لا شيء على الإطلاق.

صوت الحياة الوحيد الذي أتاه وهو متسمّر يتأمل المكان الخالي من حوله كان لتكة ساعة حائطية كبيرة ومتسخة في مدخل المستشفى. اقترب منها فكانت تشير إلى السادسة والنصف وخمس دقائق. رحلته من المنزل إلى هنا استغرقت ربع ساعة. دخل إلى الممر الذي رأى وراء أحد أبوابه المفتوحة دماء وجرحى ورائحة ألم. كان الباب مغلقاً، شأن معظم الأبواب الأخرى. جال على غرف الطابق الأرضي فكان المفتوح منها خاوياً من أي حياة، كحال الوطن في تلك اللحظة.

«... أين المرضى؟ أين الأطباء»؟

فكر أن يصعد إلى الطوابق العليا، لكنه عوضاً عن ذلك هرول إلى سيارته وفتح باب زوجته وقد ملأه الرعب «لا أحد في الداخل... لا أحد».

أمسكت يده في حنان «لنعد إلى البيت... أشعر بخوف كبير».

«كيف نعود واليوم هو موعدك»؟

«لكن لا أحد هنا فما نفع البقاء»؟

«لننتظر قليلاً... لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً. هل ترانا نحلم»

نظر إليها يلتمس من عينيها الصافيتين بعض السكينة «هل حدث شيء نجهله»؟

«لنعد إلى البيت وننتظر هناك... أرجوك».

«وماذا إن عاد الناس ودبت الحياة وتأخرنا في العودة إلى هنا من جديد»؟

«ليعد الناس أولاً، ثم نأت نحن».

وقف يتأمّل الصمت من حوله إلا من صوت محرك سيارته، ثم زفر وأخذ مكانه وراء المقود.

نظر إليها، فرأى وجهها خائفاً، وشاحباً. حاك ابتسامة واهية من خوف، وقاد سيارته خارج المستشفى. تكرّرت مناظر المدينة الميتة كما كانت في رحلة الذهاب، وكما ستبقى حتى ساعات مقبلة.

«هل يكون قد فاتنا شيء بالمساء... نعم، إنه كذلك ولا شك» قال الزوج كما لو أنه وقع على اكتشاف خطير «لقد خلدنا إلى النوم باكراً. لا بد أن شيئاً وقع أثناء نومنا».

«ربما» قالت الزوجة وعادت تدندن ترانيمها من جديد بوجه

يزداد شحوباً.

«إلى أين يمكن للخيال أن يصل لتفسير هذا»؟

«أن يكون الجميع قد غادروا المدينة».

«هكذا... بهذه السرعة؟ وفي ليلة واحدة؟ لنفترض أن هذا ما حدث فعلاً، فما سبب ذلك. أمس كانت الشوارع مليئة بالناس، مليئة حد الضجر، واليوم لا أحد. هل لذلك علاقة بقرارات الزعيم»؟

«لا... أعلم... آهه» أجابته وهي تمسك بخاصرتها من نخزة أصابتها.

«هل تتألمين»؟ سألها في تحبّب «أليس من الأفضل لو انتظرنا في المستشفى»؟

«استمر في القيادة يا عزيزي. أريد أن أرتاح في دارنا» أجابته في إعياء واضح.

«لم يكن أحد في المشفى، جلت الطابق الأرضي كله» قال والذهول يسيطر عليه «ألا تعتقدين أنه كان ينبغي أن أصعد إلى الطوابق العليا»؟

«... إلى البيت... رجاءً».

زاد من سرعته حتى توقف أمام الدار. كانت الساعة قد تخطت السابعة بعشر دقائق. ترجلا من السيارة وأخذ بيدها يسندها حتى دخلا المنزل في الطابق الثاني من عمارة قديمة.

«هل نقرع باب جارنا»؟

«إن الوقت مبكر، وأخشى أن نزعجه» أجابته ثم استدركت «كما أنه قد لا يكون موجوداً».

دخلت إلى حجرتها واستلقت على السرير. ناولها حبة دواء تهدّئ من ألمها. أغمضت عينين هادئتين، وانصرف هو إلى التلفاز يتلمّس خبراً. لم يكن هناك من شيء. القنوات الأخرى منصرفة إلى حالها، والقناة الوطنية لا تبث شيئاً سوى عبارة واحدة «نعود بعد قليل». رغم غرابة العبارة، وكأن التلفاز موظف حكومي غادر مكتبه لقضاء بعض حاجته، شعر ببعض الارتياح وهو يعيد قراءة «بعد قليل».

دخل حجرة النوم يطمئن على زوجته فرآها نائمة. عاد يجلس أمام التلفاز يعيد قراءة العبارة ذاتها. أرخى جسده على الكرسي ووضع يديه على امتداد الذراعين الخشبيتين. كست وجهه ملامح طفل يترقب نتيجة امتحانه. بقي على تلك الحالة نصف ساعة لم يتحرك فيه سوى جفنيه. قام من جديد يطمئن على زوجته. سحب غطاء السرير عليها ووقف يتأملها للحظات قبل أن يشمّر عن ساعديه ويدخل إلى حيث الغسالة المعطوبة. أراد أن يزجي الوقت ويصرف عنه كل تفكير سيّئ حتى يمضي هذا «القليل» الذي وعد به التلفاز. فرد خريطة للدوائر الكهربائية للغسالة على الأرض، وبهدوء أزال برغياً ومعه قطعة. نظر إلى الخريطة من جديد وأزال قطعة أخرى، ثم الخريطة فأخرى. ما كان لشيء أن يشغل تفكيره أكثر من لعبة الفك والربط تلك، منصرفاً بين حين وحين إلى زوجته، ثم التلفزيون، قبل أن يعود إلى الغسالة التي أصبحت تشبه أي شيء إلا الغسالة.

بعد ما يقارب الساعة، وفيما هو يقلب النظر بين الخريطة وإحدى القطع المتناثرة، أتاه صوت من ورائه «عندما أعود من المستشفى سأرمي هذه الخردة في الشارع».

نهض والتقط قطعة قماش متسخة يمسح بها يديه «هل تشعرين بتحسّن الآن»؟

«أنا أفضل. ألم تستبدل ملابسك بعد»؟

«أنتظر لحظة عودتنا إلى المستشفى دون إبطاء».

«هل من جديد»؟

«ليس بعد. حتى التلفاز لا يخبر شيئاً. ما رأيك لو زرت جارتنا. إنها التاسعة صباحاً».

«سأفعل. لكن لننتظر قليلاً». ثم مضت باتجاه النافذة وفتحت جزءاً منها يطل على شجرة فقدت أوراقها، ومن ورائها المدينة التي كانت على حالها من السكون.

«ستعود الأمور إلى طبيعتها قريباً».

«منذ ساعتين والتلفاز يقول الشيء ذاته «سنعود بعد قليل». لا أعرف مقدار هذا القليل».

«لا عليك. ارتح قليلاً وارحم تلك الغسالة من عبثك».

دخل الزوج مخدعه بعد أن غسل يديه. وبكامل ثيابه التي غادر بها المنزل صباحاً، تمدّد على فراشه. أغمض عينيه ونام.

استفاق فجأة وهو يسمع زوجته تتحدّث مع أحد ما. لا يعرف كم مضى عليه من الوقت نائماً. وقبل أن ينظر إلى الساعة توجّه إلى الصالة الصغيرة. لم يكن هناك من أحد سوى زوجته وقد أخذت نفس موضعه السابق وهي تردّد عبارة التلفاز ذاتها «سنعود بعد قليل».

«لماذا استيقظت»؟

«سمعتك تتحدثين... ظننتها جارتنا. هل تحدثت إليها»؟ سألها

وهو ينظر إلى ساعة الحائط تقترب من الحادية عشرة.

«طرقت بابها عدة مرات. لم يجبني أحد. و لم أسمع حتى صوت أطفالها في الداخل».

بقي واقفاً مذهولاً ثم سألها:

«ما رأيك لو ذهبنا إلى المستشفى مرة أخرى»؟

«لن يكون هناك أحد، على الأقل ما لم تنته عبارة «بعد قليل» هذه» وأشارت بيدها إلى التلفاز.

«سأحاول الاتصال بهم من جديد، لا بد أن أفعل شيئاً أو أجن» وقبل أن يلتقط سماعة الهاتف، جمد الزوج مكانه وهو يصيخ السمع إلى عواء كلب ضال يأتيه من بعيد. توجّه إلى النافذة المشرعة على مصراعيها. أخذ صوت العواء يدنو، ويتداخل مع أصوات بشرية تقترب. وبصورة لا يمكن تفسيرها، لا يمكن تفسيرها أبداً، ظهرت بعض القطط والكلاب الضالة أولاً، وكأنه سمح لها بقانون صارم بالخروج في تلك اللحظة لتعلن عودة الحياة إلى طبيعتها.

انضمت إليه زوجته ينظران إلى الشارع وقد أخذت الحياة تدب فيه. حتى الشجرة الجافة بجوار النافذة بدأت تُخلق عليها في توالٍ منتظم وسريع أوراق غضة وأعشاش مليئة بالفراخ. والهواء الذي بدا أنه قد فارق الحياة عادت نسماته تحرّك أوراق الشجرة التي أكملت دورة حياة كاملة في لحظات عدم.

بعد قليل، ظهر من الأزقة الفرعية أناس بملابس متكلفة ورؤوس مطأطئة.

«استعدّي كي نغادر إلى المستشفى. سأسبقك إلى الأسفل وأعرف

ما جرى». مضى على عجل قبل أن يشاهد قناة الوطن وقد غابت عبارة «القليل» وظهر مكانها مذيع يعلن خبراً هاماً.

في الأسفل، كان أول من شاهد الزوج جاره الذي يسكن قبالته، وهو يحمل طفله تتبعه زوجته ووراءها طفلاهما الآخران. ظهر عليه الإعياء وهو يستعجل الدخول إلى داره.

هرول إليه الزوج وسأله «أيها الجار العزيز، ما الذي حدث، أين كنت هذا الصباح، أين كانت المدينة كلها»؟

رفع الجار رأسه وقد فاجأه الزوج، ثم قال في صوت هامس خائف وتعب «أين كنتما... لماذا لم تحضرا»؟

«نحضر ماذا... ما الذي حدث»؟

«ألم يصلكما الخبر؟ ألم تعرفا؟... لقد مات زوج ابن خالة عم الزعيم ليلة أمس، وقد شارك الوطن كله في العزاء من الليل حتى الصباح».

اتسعت حدقتا الزوج وصمت للحظة يستوعب ما يقول جاره، ثم أطلق ضحكة صدحت أعلى من بنايتهما القديمة وقال في سخرية «لكن... ما ذنب الكلاب والقطط»؟

* * *

«لن نسمح، في حالة الحداد، لأحد بأن يستغل حزننا. وإن كانت لدى من يدّعون الحس الوطني رغبة في أن يتحركوا باتجاه ما فسنسجن الحس نفسه» قال عضو الأمن في المحفل، بعد أن استهل الأعضاء أولى جلساتهم ذلك اليوم بالوقوف ستين دقيقة حداداً على

فقيد الوطن. «سنشدّد الأمن في الشوارع، والمباني العامة، ووسائل المواصلات. وسننشر رجالنا في كل مكان. نريد أن نعرف ما يسرّ به اثنان لبعضهما، بل وما يحدّث به الإنسان نفسه».

«مراقبة الناس ستزيد من خوفهم ورفضهم لنا» قالت عضوة المحفل.

«الخوف سيدفعهم إلى التزام الهدوء، فأمن الوطن لا عبث به».

«أمن الوطن لا يجب أن يبنى على الخوف، بل على الانتماء».

«وأين هو الانتماء الذي تقولين عنه أيتها العضوة المبجلة»؟ قال عضو الأمن «لقد أعطى الزعيم، بكرم عظيم، الكثير للناس في قراراته الأخيرة، ومع هذا لم تنفض تظاهرة واحدة».

«حتى هؤلاء يحبون الوطن والزعيم نفسه. لقد شارك الوطن بكامله في العزاء. هؤلاء ليسوا خصوماً لنا، وما زلت أقول بحاجتنا إلى معرفة ما يريد الشارع لا أن نراقبه ونرهبه».

«إن مخاوف الزعيم تتحقق، فهؤلاء الذين تقولين إنهم يحبون الوطن، ليسوا أكثر من متطرفين يريدون إثارة الشغب والرعب خدمة لأعداء الخارج».

«لو سمح لي الأعضاء المبجلون» قال نحيل الجسم «الرأي عندي أن نعجل بتطبيق ما أقره الزعيم. وكلي ثقة بأن ذلك كفيل بامتصاص غضبة أي محتج. ولو يتذكر الأعضاء الأجلاء، كيف تجاوب الشارع مع قرارات الزعيم في المرة الأولى. وأخشى إن تأخرنا في تنفيذ ما وعدنا به أن يشكل دافعاً قوياً لخروج الأمر عن السيطرة».

«الأحداث الكبيرة تبدأ من شيء صغير» قال مسؤول الأمن «وحشود الآلاف تبدأ ببضع عشرات. وبقاء تلك العشرات التي

رأيناها قبل مصابنا بفقدان قريب الزعيم، تغمّده الله بواسع رحمته، يدل على أن ما يدّعون مطالبتهم به يخفي ما هو أكثر خطورة».

«أرى في الأمر تهويلاً قد يصرفنا عمّا هو أكثر أهمية» ردّ عليه نحيل الجسم «فلست أعتقد أن القلة التي أشرت إليها تسير وفق مخطط يدار من الخارج أو الداخل. لكني، تحاشياً لأي عواقب تصيب الوطن، سأوافقك الرأي على مبدأ الشك حتى تثبت البراءة».

«أيها العضو المبجل» قالت أنثى المحفل «لماذا نفترض سوء النية في هؤلاء؟ اتفق على أنهم يأبون الصمت ويصرون على مطالبهم، لكن لننظر للأمر على أنه مجرد عبث لا يحركه سوى انعدام الأمل والبطالة. أنا واثقة من أن تنفيذ قرارات الزعيم وتوظيف هؤلاء وتحسين ظروفهم كفيل بصمتهم».

«لن يصمتوا... أنا واثق من ذلك» قال عضو الأمن.

دوّت خارج القاعة جلبة أصوات سريعة قبل أن يدخل الزعيم. فوجئ الأعضاء بحضوره بافتراض انشغاله بالعزاء.

«هلا أخبرني أحدكم ما الذي يريده هؤلاء أكثر مما قمنا به من أجلهم»؟ قال بهدوء يكتم غيظاً وهو يسير إلى مقعده على رأس الطاولة. «لقد وعدت الجميع بوطن مختلف، لكن هؤلاء لا يريدون وطناً أفضل، لأنهم لا يؤمنون بالوطن».

«لقد كنا نتحدث عن الأمر للتو أيها الزعيم». قال عضو الأمن.

«تتحدثون...؟ إلى متى ستبقون تتحدثون؟ إن القصة جلية أمامي. لقد رأيتهم بعيني. حتى حرمة الموت لم تردعهم من التجمع خارج دار العزاء، بل وفي المقبرة أيضاً. ألم تروهم بأنفسكم»؟

«نعم... »

«بلى... بلى».

«رأيناهم أيها الزعيم... »

ردّد الأعضاء مؤكدين ما رآه الزعيم، وما كانوا ليترددوا على القسم بأنهم رأوا ما لم يروه قط وسط انشغالهم بحزن مصطنع في مراسم التشييع التي لم يحضرها الزعيم بنفسه.

«رأيتموهم...؟ لم يكونوا بضع عشرات إذاً. إن عددهم يزداد رغم قراراتنا الأخيرة. هل تعرفون ما يعني ذلك أيها السادة؟ إنه يؤكد ما قلت لكم من قبل، هناك من يحركهم. إن مسألة الإصلاح والأموال ليست ما يريدون. إنهم متطرفون تحرّكهم أيادٍ خارجية لا مجرد أناس لهم مطالب متواضعة». قال الزعيم عبارته الأخيرة وهو يركز نظره على نحيل الجسم.

«أوافقك الرأي أيها الزعيم» قال عضو الأمن «وأزيد على ذلك بالقول إن إطلاق يدنا سيعيد الأمور إلى نصابها».

«هل يقصد الزعيم أنهم متطرفون دينياً أم سياسياً»؟ سأل نحيل الجسم وهو يمسّد لحيته في هدوء.

كان في سؤاله استفزاز لم يتوقعه الزعيم، ولا أي من أعضاء المحفل.

اقترب منه الزعيم وقال «أنت أقدم الأعضاء في المحفل، وتعلم تماماً ما قصدت». سار إلى جهازه ووضع يده عليه بالطريقة ذاتها كل مرة ثم قال بصوت جهوري «إن التطرف كالموت، ليس مهماً كيف يكون، لأنه موت في النهاية. وسواء أكان دينياً أم سياسياً فهو خيانة للوطن، والخيانة تعني الموت في الحالين».

أدخلت عبارة الزعيم رهبة في نفوس الأعضاء، فما عادت القصة بضع أصوات تزعق، بل مفردات جديدة نطق بها الزعيم «الموت، التطرّف والخيانة».

صمتت القاعة لحظة قبل أن تتحدث عضوة المحفل «المضيّ في تنفيذ قراراتكم الأخيرة يستلزم وقتاً. وكما قالت الأخبار، فإن عدد المؤيّدين أصبح ضعف ما كان عليه».

«الرافضون أيضاً أصبحوا الضعف. إن هؤلاء يحقّرون محفلنا والقرارات التي أصدرناها».

«لقد قلتها أيها الزعيم... لكل مشكلة حلول تحوم حولها. ما علينا سوى اختيار أحدها والانتظار. لننتظر إذاً».

«لن يكون ذلك في مصلحتنا...» قال عضو الأمن يرد على العضوة التي بدت هادئة وأكثر شجاعة «ثم إن في الأمر مخاطرة. هؤلاء، كما قال الزعيم حفظه الله، يتحركون بدافع آخر ولا تعنيهم إصلاحات الوطن في شيء. وسأضيف ما لم أشأ البوح به قبل أن يكون الزعيم معنا...» اشرأبت آذان المحفل في فضول لمعرفة ما سيبوح به عضو الأمن «لقد علمنا، بما لا يقبل مجالاً للشك، بوجود أسلحة لدى بعض هؤلاء. وقالت مصادرنا... « تنحنح عضو الأمن وكأنه يلقي بسر سماوي «قالت مصادرنا إن مجموعات متطرفة ربما حصلت على سلاح أكثر خطورة مما نعتقد».

في فزع سأل الزعيم «ما السلاح الذي حصلوا عليه... ومن أين»؟

«لسنا نملك الكثير من المعلومات حول هذا الأمر بعد. لكن يمكن

أن يكون شيئا خطيراً جداً. وهذا ما أخشاه أيها الزعيم... أن يكون سلاح دمار شامل».

تقطب حاجبا الزعيم وسط همهمة بعض الأعضاء. اقترب من عضو الأمن وقال «وهل يمكن لأفراد أن يحصلوا على سلاح كهذا»؟

«نعم... حقيبة صغيرة يمكن أن تحتوي على سلاح كهذا. ونحن إذا ما افترضنا وجود أيدٍ خارجية، فهذا يجعل الأمر يأخذ منحى أشد خطورة».

«وهل للأمر علاقة بهؤلاء الذين يزعقون...؟ هم متطرفون إذاً. قلت لكم إن الأمر هكذا».

«لسنا نملك ما يؤيّد تطرف هؤلاء أيها الزعيم، ولا نعلم بحقيقة السلاح الخطير شيئاً. إنها المرة الأولى التي يخبرنا فيها العضو المحترم بهذا الأمر» قال نحيل الجسم.

«نعم... لم نسمع بذلك من قبل. هلا أخبرنا العضو الموقر شيئاً عن هذا الأمر الخطير»؟ قال صاحب الصلعة المحترمة.

«معلوماتنا ما تزال في أولها...» قال عضو الأمن «لا يعني ذلك تقصيراً من طرفنا معاذ الله، لكن الأمر ليس سهلاً أن تعلق بأسلحة خطيرة وتدخل خارجي».

«كيف تصفون أنها خطيرة إن لم تعرفوا ما هي طبيعتها»؟ سأل صاحب الكرش الموقرة.

«أعد محفلنا الموقر، بأنني سأقدم خلاصة كاملة لكل ما وصلت إليه تحقيقاتنا في الأيام القليلة القادمة».

«إذاً... لقد توصلتم إلى شيء بالفعل»؟ سأل نحيل الجسم.

«حسن... نحن نعلم شيئاً على وجه التقريب. لكن كما قلت، أحتاج إلى بضعة أيام فقط لتقديم تفاصيل أكثر».

«وهل يمكن لمجموعة أفراد يزعقون أن يمتلكوا سلاحاً خطيراً يهددون به أمن الوطن»؟ سأل الزعيم.

«هذا إن افترضنا أنهم مجرد أفراد لهم مطالب متواضعة» أجاب عضو الأمن «لكنهم غير ذلك تماماً. كما أن القدرة على امتلاك سلاح خطير لم تعد بالأمر الصعب في عالم مضطرب وخصومات دولية كبيرة».

«إن ما تقوله خطير أيها العضو الموقر... خطير جداً» قال صاحب الجسد النحيل «فإن حصل هؤلاء على سلاح كهذا فنحن أمام عصابات دولية أكثر منها تجمّعات أفراد يحركهم حس وطني وشعارات سياسية».

نظر إليه الزعيم بما يشبه الرفض لما يقول «في أي صف تقف أيها العضو المبجل»؟

«وهل تشككون في ولائي سيدي»؟

«في أي صف تقف»؟

«في صف الوطن، في صفكم أنتم ولا شك».

«أنت تعلم أن العالم في حرب مع أي فكر متطرف، هل تعلم لماذا؟ لأنهم لا يتوانون عن استخدام أي شيء من أجل تحقيق أفكارهم ولو كانوا مجرد أفراد يتظاهرون بمطالب متواضعة كما تقول». ثم وجّه حديثه إلى عضو الأمن «تزامن ما يحدث في وطننا مع أخبار الأسلحة الخطيرة تلك لا يدع فسحة للانتظار».

«هذا ما كنت أحاول أن أقوله دائماً للمحفل الموقر» قال عضو الأمن.

«لا أريدك أن تقول، بل أن تفعل».

«إننا نفعل ما بوسعنا أيها الزعيم».

«ما الذي دفعك لإخفاء الأمر حتى هذا الوقت»؟

«لم أخف شيئاً سيدي... أحببت أن أتوثق من المعلومات أولاً».

«ما قلته لا يطمئن أحداً».

«فقط... بضعة أيام أخرى أيها الزعيم، وأعدكم بأن أقدم تفصيلاً كاملاً لما وصلنا إليه».

«اعمل واعمل فقط... هذا ما أريده منك».

«سنزرع أعيننا وآذاننا في كل مكان. إن الوطن في أيدٍ أمينة أيها الزعيم».

«أتمنى أن تكون واثقاً مما تقول. عليك بالرأس المحرك. إن الأمر أخطر مما كان يبدو. إن كانت أمامكم مهمة جسيمة أيها العضو المبجل، فستكون ولا شك معرفة من يكون أولئك الخونة، وأين هم».

* * *

«إنها ثورة إذاً...»

«أدخلوا الثورة إلى السجن...»

«بل هي حس وطني...»

«أدخلوا الحس الوطني إلى السجن...»

«إنها مطالب شعب بأكمله...»

«ليدخل الشعب بأكمله إلى السجن...»

* * *

بثيابه التي تكرمشت من إغفاءة الصباح، قاد الزوج سيارته تصحبه زوجته الشاحبة في طريقهما إلى المستشفى، بعد أن عادت الحياة إلى المدينة. رغم الإنهاك الذي بدا واضحاً على قسمات الناس وهم يسيرون في الشوارع من عزاء الليلة الطويلة، وتقوّس ظهور بعضهم وهم يسيرون في إنهاك كعجائز يحتضرون، إلا أن ذلك لم يحل دون تجمّع حشود في أماكن متفرقة بالطريقة ذاتها التي رآها الزوج أول مرة.

أناس يحملون شعارات تنديد غير بعيد عن الحيّ المتواضع، وآخرون يحملون شعارات تأييد وسط الحيّ الراقي من المدينة الذي يحاذي الطريق إلى المستشفى.

ليس العلم وحده هذه المرة، بل الإنهاك أيضاً كان قاسماً مشتركاً بين الفريقين.

تساءلت الزوجة عمّا يحدث بصوت خفيض وقد ازدادت شحوباً.

«لا عليك يا عزيزتي، إنها جماهير كروية تشجّع فرقها المشاركة في مباريات الوطن».

«ولماذا يحمل بعضها صور الزعيم... هل يشارك هو أيضاً في تلك المباريات»؟

نظر إليها مبتسماً وقال «لولاه ما كانت هناك مباريات إطلاقاً».

«ليحم الله الزعيم» ردّت بصوت واهن.

«ليحمَك الله أنت»، قال في سره وهو يقود مسرعاً إلى المستشفى، مخترقاً آخر حشود التأييد وهي تحمل صور الزعيم ترفرف فوقها راية الوطن، يرفعها صاحب طربوش أحمر.

حالما أدرك بوابة المستشفى، انقبض صدر الزوج. لعله العلم المنتكس حداداً فوق أعلى قمة البناء الكئيب أمامه. ولعله أيضاً ذاك البؤس الذي أحس به وهو يرى كومة جرحى على باب المدخل الرئيسي.

طرد ما به من وساوس وأسند زوجته إليه وسارا باتجاه القاعة الكبيرة التي يتوسطها مكتب الاستقبال. لم يجد الموظف ذاته الذي دبّر له موعد العملية. ومقارنة بالملامح القاسية والصوت القاسي للموظف الغائب، فقد بدا كحمامة سلام مقارنة بالموظف الجالس مكانه.

لم يطل انتظاره أكثر من دقيقتين قبل أن يصل إلى الموظف ويخبره بأمر زوجته. نظر إليه في اشمئزاز وقال «نحن في حداد لثلاثة أيام».

«ماذا تعني حداد ثلاثة أيام»؟

«أعني أن لا أطباء في المستشفى...»

«لكن العزاء قد انتهى».

«العزاء انتهى والحداد قد بدأ».

«اسمعني يا سيدي... اليوم هو موعد عملية زوجتي. وأخشى إن تأخر إجراؤها أن يحدث ما لا تحمد عقباه. أرجوك تفهم الأمر».

«نحن في حداد لثلاثة أيام».

«وما ذنب زوجتي في الحداد»؟ سأل الزوج بصوت ارتفعت معه

في خوف بعض رقاب القلة الحاضرة.

«هدّئ روعك يا عزيزي» قالت زوجته وهي مائلة بجسمها النحيل المنهك عليه.

أخذها الزوج وخطا بها إلى معقد مجاور وضعها عليه، وعاد مهرولاً إلى الموظف وهو يتلمّس في حافظته آخر ورقة نقدية لديه. أخذها واقترب أكثر من مكتب الموظف «أرجوك... إنها لن تقوى على الانتظار» ووضع في يده الورقة الأخيرة.

«يبدو أنك لا تفهمني جيداً... المشكلة أنه لا يوجد أطباء الآن».

«لعلهم سيأتون في ما بعد... قطعاً سيأتون، لن يبقوا محتدين ثلاثة أيام فيما الناس يموتون».

«حسن، عد بزوجتك إلى البيت، وسأتصل بك حال حضور أي طبيب» قال الموظف وهو يدفن الورقة في جيبه.

«لن أعود بها... إنها تشعر بإعياء كبير. لم لا ندخلها إلى السرير المعد لها»؟

«لست أعلم أن سريراً قد أعد اليوم لأي مريض. كما أن الأسرّة لدينا محجوزة تحسّباً لأي طارئ أيام الحداد. عد بزوجتك إلى المنزل، وسأتصل بك حال حضور الطبيب». قال الموظف وانصرف إلى مراجع آخر.

ألقى الزوج بجسمه في يأس على مقعد يجاور زوجته.

«... هل سأجري العملية اليوم»؟

«فقيد الوطن يريد أن يأخذ نصف الوطن معه إلى قبره» أجابها وأمسك بيدها في رفق وهو مسترخٍ على مقعده البلاستيكي وأغمض عينيه.

تهيّأ له أنه يسمع صافرة إسعاف... أحس بنفسه يحلم قبل أن ينتفض من مقعده ويتجه صوب الباب الرئيسي ينظر من خلاله. بلى، إنها سيارة إسعاف، بل أكثر من سيارة. توقفت سيارتان أمام مدخل الطوارئ وانسل من كل سيارة رجلان هرعا إلى مؤخرتها ليسحبا مصاباً غمرته الدماء. مع قساوة المنظر وجد الزوج بارقة أمل في اللون الأحمر المخيف، فعاد مهرولاً إلى موظف الاستقبال نفسه «لا بد أن يحضر طبيب ما الآن...»؟ أضاف وهو يلهث «على الأقل لعلاج هؤلاء المصابين... أليس كذلك»؟ نظر الموظف من وراء كتف الزوج إلى المصابين ينقلون بهدوء، يليق بحداد الوطن، إلى القاعة الرئيسية ومنها إلى ممر جانبي توجد به الغرفة ذاتها التي رأى الزوج ما بداخلها ذاك اليوم.

أشاحت الزوجة برأسها عن منظر الدماء التي تقطر وأمسكت بخاصرتها «لا عليك... لا عليك... إنها حوادث عادية...» قال لها وهو ما يزال واقفاً أمام الموظف «أرجوك... لا بد أن يكون هناك طبيب ما، ليس لزوجتي فقط بل لهؤلاء أيضاً».

«هل شاركت زوجتك في أي تظاهرات شغب»؟ سأل الموظف بما يشبه السخرية.

«زوجتي... انظر إليها، هل تظن أنها قادرة على السير؟ ثم إنها تحب الوطن، والزعيم، والمحفل، اسألها إن شئت».

«حسن... لا تبدو لي كذلك» قال الموظف وهو ينظر إليها من بعد، ثم أضاف في تهكم «هي لا تنزف على الأقل».

«وهل عليها أن تنزف أولاً كي يأتي الطبيب»؟

«أقصد أنها تستطيع الانتظار».

«أيها السيد النبيل، إن مرارتها تورّمت إلى درجة خطرة، وموعد عمليتها اليوم. أرجوك، ابحث لي عن طبيب على الأقل كي يخفف من ألمها».

«انتظر هناك... وسأرى ما يمكن عمله» قال الموظف في برود، وانصرف يقلب في بضع أوراق أمامه ويجري اتصالاً هاتفياً.

تسمّرت أنظار الزوج على الموظف يراقب كل حركة له، دون أن يشغله صفير سيارات إسعاف أخرى بدأت تفد على المستشفى.

أرخت الزوجة رأسها على كتف زوجها. مسح بكفه على وجهها فأحسه بارداً. رفع ذراعه وضمها إليه دون أن يحيد بنظره عن الموظف. بعد فترة انتظار، أشار إليه بأن يقترب.

«سيحضر بعض الأطباء الآن، لكنهم سينشغلون بالمصابين أولاً، يأتي دور زوجتك بعدهم».

«لن أنسى صنيعك هذا... لكن... هل تعرف متى سيأتون»؟

«بعد نصف ساعة على الأكثر... اتصلت بالمسؤول وأخبرته بحاجتنا إلى أطباء من أجل المصابين، وسيأتون قريباً. فقط انتظر. هذا كل ما يمكنني فعله الآن».

كال له عبارات شكر تتصبّب عرقاً، وعاد إلى زوجته. نظر إلى ساعته فكانت تشير إلى الثالثة بعد الظهر. أتته أصوات سيارات ظنها إسعافاً أول الأمر قبل أن يتّضح أنها لرجال شرطة تدفقوا على المكان في لمحة عين. انتشر عدد منهم في القاعة وتمركز أكثرهم داخل الممر الجانبي حيث نقل الغارقون في دمائهم.

كانت الزوجة مغمضة العينين وهي مائلة برأسها على كتف زوجها. كان الزمن يمر بطيئاً كخصم يعانده. لم تعد الدقيقة ستين ثانية، بل ستين سنة وبضع آهات من الممر الجانبي هناك. أمضى وقته يمسّد رأس زوجته دون أن ينطقا. كانت الحياة تدب تدريجياً في المستشفى، لم تكن حياة مرضى أو مراجعين، بل حياة عنصراها دم ورجال أمن. وإن كان من عنصر ثالث يضاف فرائحة كبرياء إنساني يحترق.

بعد ساعة وعشر دقائق من الانتظار السريالي، رأى الزوج طبيباً يمشي وكأنه في نزهة يلج إلى الممر الجانبي. أراد الزوج أن يلحق به، لكنه ريثما قام وأسند رأس زوجته إلى ظهر المقعد كان الطبيب قد اختفى داخل أحد الأبواب. حاول الزوج الدخول إلى الممر، فمنعه رجال الأمن.

«أريد أن أخبره بأمر زوجتي».

أتاه الرد جافاً «ممنوع».

«أرجوك... إنه أمر طارئ».

«ممنوع».

«اعتبروني أحد هؤلاء المصابين».

«هل كنت معهم...»؟

«لا... لا...» قال في خوف وهو يعود خطوتين إلى الوراء «قصدت أني أيضاً مثل هؤلاء من أبناء الوطن».

«هؤلاء أعداء الوطن».

بلع الزوج ريقه بصعوبة وقال «إن انصرفت الأولوية لأعداء

الوطن، ألا تنصرف لمحبي الوطن»؟ ثم أضاف وهو يستجمع بعض جأشه «صور الوطن تزيّن حوائط منزلنا، ورايته تعلو جهاز التلفاز، اسأل زوجتي بالله عليك... إنها هناك... ألا ترى ما أصابها من إعياء».

«إن لم تعد وتجلس هناك بجوار زوجتك التي أصابها الإعياء، أعدك أن يصيبك أنت أيضاً».

تراجع الزوج في هدوء قبل أن ينصرف إلى موظف الاستقبال من جديد ويسأله المساعدة.

«سيأتي أطباء آخرون. أنتظر».

لم يدم الانتظار أكثر من دقائق أخرى قبل أن يدلف من الباب الرئيسي بضعة أطباء. لم يضع الزوج الفرصة، وهرول مسرعاً باتجاه طبيب وأمسك في رجاء ساعده الأيمن «أرجوك، إن زوجتي تموت. مرارتها ستنفجر إن لم تدخل المستشفى. موعد عمليتها اليوم. الأوراق جاهزة وبإمكانك أن تتأكد من ذلك». كان توسّله عميقاً لدرجة أن الطبيب الشاب، رغم عدم إلمامه بقصة الزوج، هدّأ من روعه وسأل «هل هي تلك التي هناك»؟

«نعم... إنها هي. تبدو نائمة لكنها مستيقظة، غير أنه الألم».

لأول مرة منذ سنوات يشعر الزوج بأنه إنسان أمام إنسان «لا عليك» قال الطبيب الشاب «سأرى بعض المصابين أولاً وأعود لك في أسرع وقت».

عاد الزوج مفعماً بالأمل إلى زوجته. دلك وجهها ويديها بحنان تدفق إليه من عبارات الطبيب. في تلك اللحظة تكشف له أن الانسان

مهما علا منصبه، يبقى طفلاً يطلب الحنان. في تلك اللحظة تكشف له أن الحنان... والحنان وحده، هو الطبيب الحقيقي لكل أمراضنا.

تحقق أمل الزوج بعودة الطبيب الشاب إليه. اقترب من زوجته، جس نبضها. وضع السماعة على صدرها، ثم يده على وجنتها. «حرارتها مرتفعة قليلاً ونبضها بطيء. هل حُدِّد لها اليوم موعد لعمليتها»؟

«نعم... وقد أتينا منذ الصباح الباكر، لكن كما تعلم، كان كل شيء قد توقف بسبب العزاء».

«الأطباء مشغولون باستقبال حالات جديدة تفد كل لحظة. وليس من سرير شاغر. لكن دعني أرى ما يمكن فعله. سأحدث مدير المستشفى الذي سيأتي بعد قليل. انتظر هنا وسأعود إليك».

هرول الطبيب إلى الممر نفسه مرة أخرى، لكنه غاب طويلاً، فقد توالت سيارات الإسعاف بمصابين جدد. مع اقتراب الساعة من الخامسة مساءً، عاد الطبيب وقد بات ثوبه مخضباً بالدماء.

«هل حضر مدير المستشفى، هل تحادثت معه»؟

«اسمعني جيداً... الوضع خطير في الداخل، والأمور تزداد صعوبة. خذ هذه الوصفة الطبية، واشترِ دواءً لزوجتك. عد بها إلى المنزل، وسيسكن الدواء ألمها حتى صباح الغد». ثم وضع يده فوق يد الزوج المرتعشة وأضاف «لقد اطلعت سريعاً على أوراقها. سأعمل على تأمين موعد لها في الغد إن أمكن. تعاليا إلى هنا في العاشرة صباحاً وسأكون في انتظاركما. لكن لا تخبرا أحداً بشيء».

«ليس لدينا من يهتم بحالنا...»

«أياً يكن... لا تخبر أحداً بشيء».

* * *

كان بريق ألوان الثريا المتدلية من قبة المحفل يختلط بجلبة الأعضاء وهم يتداولون بشأن الأحداث في الوطن. مع أن يوم الحداد الثاني ما يزال في أوله، أنست حركة العصيان التي بدأها البعض في أماكن مختلفة من المدينة الجميع أحزانهم المصطنعة وشغلتهم عن أعمالهم الخاصة. أما الخبر الأساس الذي طغى على حديث المحفل بكامله ذاك الصباح، فكان كفيلاً بإثارة رعب الجميع. فقد تجرأ بعضهم على المحفل ذاته. رشقوه بالحجارة منذ ساعات الفجر الأولى. أشارت الأدلة إلى أنهم عشرات وليسوا فرداً واحداً فقط. لكن الأعين الخفية التي كانت تحيط بالمحفل رصدت واحداً من بعيد كان يقودهم.

وبطبيعة الحال، فقد كان الزعيم أكثرهم انزعاجاً مما يحدث في المدينة، وفي المحفل، وفي جهازه، ذي الأربعة عشر مفتاحاً، الذي يبدو أن تأثيره الغامض على الجماهير قد بدأ يضعف.

«لقد انشغلنا طوال الأيام الماضية بإعطاء تفسيرات ساذجة لما يحدث في الشارع» قال الزعيم في اجتماعه الطارئ ذاك الصباح «إن الأمر يبدو جلياً الآن، فهم يعتدون على محفلنا بالحجارة، وغداً بالسلاح. هم يريدونها حرباً إذاً... فلتكن كذلك».

«أعيننا في كل مكان أيها الزعيم» قال عضو الأمن في المحفل محاولاً تهدئة ثورة الزعيم «نحن على بعد خطوة واحدة من عدونا، قليل من الوقت فقط، ونكشف كل شيء».

«وماذا عن السلاح؟ هذا ما يهمّني الآن، هل من شيء بخصوصه»؟

«جوابي من شقين أيها الزعيم» قال عضو الأمن «الشق الأول هو تحديد طبيعة السلاح الذي أخبرتنا به مصادرنا، وأفيدكم صراحة بأنه من النوع الخطير والجديد لدينا. الشق الثاني هو إمكانية وصوله إلى هنا. وأقول إن تهريبه قد تم وفق ترتيب معد ومحكم».

سرت همهمة وسط الأعضاء فيما واصل العضو حديثه «فاعلية السلاح تعتمد على طريقة استخدامه. والوصول إلى أشخاص على دراية بهذه النوعية من التقنية يجعلنا أكثر قرباً من هدفنا».

«ما تقوله كلام خطير لكنني مطمئن لعملكم» قال الزعيم «لكن هل تعتقد أن اللجوء إلى سلاح كهذا ممكن لهؤلاء الغوغاء في الشارع»؟

«إن اتفقنا جميعاً على أن هؤلاء الغوغاء هم أصحاب فكر متطرّف، دينياً كان أو سياسياً، وإن اتفقنا على أنهم مخربون، كما نرى ذلك جلياً، فما الذي يحول دون استخدامهم لأي سلاح يقع تحت أيديهم»؟

«أيها العضو الموقر» قالت عضوة المحفل «اسمح لي بالقول إني أراكم تهوّلون قليلاً في الأمر. فنحن غير واثقين بعد من طبيعة ما يملكه هؤلاء من سلاح، وأذكركم بأنكم قلتم هنا، في محفلنا هذا، إنكم تراقبون كل شيء. ولست أعتقد أن سلاحاً كهذا، ولو كان صغير الحجم، يمكنه أن يفلت من أعينكم المنتشرة في كل مكان».

حاول عضو الأمن مقاطعتها إلا أن الزعيم أشار للعضوة بأن تمضي في طرح رأيها بمباركة خفية من نحيل الجسم «ما أراه هو أن الأمر لا يخرج عن فوضى شباب ثائر لا أكثر. وليسمح لي الزعيم بالقول إن التهويل من الأمر، كما قلت مراراً، قد يدفعنا إلى اتجاه خاطئ.

وأما الحديث عن معركة أو حرب يريدها الشارع، فهذا أيها الزعيم، واسمح لي، لا يبدو منطقياً».

«رأي أتفق معه» قال نحيل الجسم وهو ينظر إلى الزعيم.

«أي اتجاه خاطئ أيتها السيدة وأي رأي ذاك الذي تتحدث عنه أيها العضو الموقر»؟ سأل عضو الأمن في حنق «الخطأ هو تبسيط أمر عظيم كهذا وعدم أخذه على محمل الجد. التهويل في رأيي، هذا إن افترضنا أن هناك تهويلاً، هو أكثر ضماناً لأمن الوطن. وكما قال الزعيم، فقد كانت لنا آراء حسن النيّة، لكن الأحداث أثبتت أن حسن النية ضار بالوطن كأعدائه وأن الشك أقوى من اليقين أحياناً».

همهمة الأعضاء وصمت الزعيم وحماسة عضو الأمن تمازجت معاً لتعكس الصورة التي سيكون عليها الوضع في قادم الأيام. وحيث إنه يميل إلى التصعيد، ولو بصورة تدريجية، فإن كفة الأمن كانت هي الأرجح.

«أيها الأعضاء الموقرون» قال الزعيم «لن ننتظر مكتوفي الأيدي نتساءل عن وجود أو عدم وجود سلاح ما مهما كانت خطورته. وذاك الذي يتجرأ على رجم محفلنا بالحجارة، كما حدث اليوم، سيتجرأ على استخدام أي سلاح آخر مهما كانت خطورته وقذارته».

«لو سمح لي الزعيم» قال نحيل الجسم «أرى أن لا يبادر رجالنا باستخدام أي سلاح ضد هؤلاء، إن كانت هناك نية لذلك كما أرى، إذ من شأن ذلك تصعيد الأمر، وعندها لن يجد الطرف الآخر بداً من استخدام أي سلاح يقع تحت يديه. وحتى مع افتراضنا امتلاكهم سلاحاً خطيراً، وبافتراض أن هؤلاء متطرفون، فهم ليسوا بالغباء

الذي يقدمون فيه على خطوة انتحارية كتلك. ما أعرفه أن الفكر المتطرف يهدف إلى نتيجة ما، لكن ليس الإبادة».

«هل تتعاطف مع هؤلاء أيها العضو المبجل»؟ سأل الزعيم مستنكراً

«إن كنتم تشكون في ولائي، للمرة الثانية أيها الزعيم، فلن أكون ذا نفع لكم، واسمحوا لي معها بأن...» قاطعه الزعيم «لا نشك في ولائك أيها العضو المبجل، لكن سأقول شيئاً واحداً، إن اتخاذ مسلك لا قوة فيه سيفقدنا السيطرة على الأمر. وإن خيّرت بين افتراض حسن النية وسوئها، فجوابي هو أن سوء الظن من شيم الزعماء».

نهض الزعيم من مقعده ومعه المحفل بأكمله. نظر إلى عضو الأمن وقال «أمامك ثلاثة أيام، وسلطة مطلقة، في الوصول إلى الرأس المدبّر لكل هذا».

* * *

اشتد الزحام مع خروج موكب الزعيم من المحفل سالكاً المسار ذاته الذي يؤدي إلى المستشفى. ومع تجمهر حشد من المؤيّدين يحملون صور الزعيم، بينهم صاحب طربوش أحمر، توقف السير. بدا وضع الزوجة أكثر غموضاً هذا الصباح مما كانت عليه البارحة. وبقي الزوج، كل دقيقتين، يترجّل من سيارته لاستطلاع وضع السير المتأزم.

«إنها العاشرة والنصف صباحاً. لقد تأخرنا عن موعدنا نصف ساعة. كان علينا التحوط والخروج في وقت أبكر».

«خرجنا منذ التاسعة يا عزيزي، فهل أردتنا أن نخرج مع السابعة صباحاً لنصل في العاشرة»؟ أجابته وهي تشد دثارها فوق كتفيها.

لم يقد الزوج سيارته من قبل بسرعة تفوق أربعين ميلاً في الساعة، إلا أنه وجد نفسه يقود بسرعة تخطت المئة لحظة انكشف الطريق أمامه.

في العاشرة وخمسين دقيقة كان الزوج يقف في قاعة المستشفى منتظراً الإذن بالدخول على المدير. فقد بحث عن طبيب البارحة الشاب، ولم يجده. قدر أن تأخره في الوصول هو السبب، إلا أن عبارة «لم يأت اليوم» التي نطق بها موظف الاستقبال صدمته.

«ألم يكن موعدك البارحة»؟ سأل الموظف.

«لقد كان كذلك، لكنني لم أجد أحداً هنا».

«آه... نعم فقد كنا جميعاً نقدّم العزاء في فقيد الوطن... رحمه الله» قال في صوت تصنّع انكساره.

«من أجل ذلك أنا هنا الآن. هل بالإمكان إتمام إجراءات الدخول»؟

«آآآه... ربما كان الأمر صعباً بعض الشيء. فموعدك كان البارحة، ولو اخذنا كل من فات دوره لأحدثنا إرباكاً لمواعيد اليوم».

«لست أنا من فوّت الموعد، بل هو العزاء... أقصد... وفاة الفقيد التي لا حيلة لنا بها».

«أعلم ذلك، لكن هذا هو الوضع. آسف، لا أستطيع أن أساعدك بأكثر من تأمين موعد آخر بعد... بعد عشرة أيام ربما».

كاد يغمى على الزوج «الإعياء ينهك زوجتي، وأخشى أن الوقت في غير صالحنا، لا يمكن الانتظار ليوم واحد... أرجوك حاول أن تتفهم الوضع».

دون أن يلقي بالاً إلى ما يقول الزوج المرعوب قلب الموظف في أوراق أمامه ببلادة ثم قال بصوت لا رحمة فيه «أقرب موعد بعد عشرة أيام من الآن. وهذا استثناء لك وحدك فقط».

«يستحيل...» صرخ الزوج «أين الطبيب الشاب الذي...» صمت فجأة وهو يتذكر كلام الطبيب بأن لا يخبر أحداً أنه سيكون في انتظاره لتأمين موعد آخر. فتراجع خطوة إلى الوراء والموظف ينظر إلى صمته المفاجئ في دهشة.

«هل بالإمكان رؤية مدير المستشفى؟ لا بد أن أراه». قال الزوج. وقبل أن يأتيه الجواب هرول إلى الباب الذي فتح أمامه فجأة وخرج منه رجل طويل القامة.

«هذا هو... بإمكانك أن تحادثه». قال الموظف الذي حاول اللحاق به.

وقف الزوج أمام طويل القامة وبرجاء قال «سيدي... هل أطمع بدقيقة من وقتك»، وشرع يشرح قصة زوجته في ارتباك وعجل.

نظر إليه المدير وسأله «هل كنت هنا البارحة صباحاً»؟

«ومساءً أيضاً» أجاب الزوج في خضوع.

«اتبعني».

عاد المدير إلى مكتبه يتبعه الزوج. جلس إلى مكتبه الكبير وطرح على الزوج سؤالاً ما توقعه «ماذا أخبرت الطبيب الشاب»؟

«أي طبيب»؟

«لا تتذاكَ عليّ... أعرف بالقصة كلها. هل وعدك بأن يؤمن لك موعداً آخر»؟

«في الواقع... نعم. حدث ذلك، لكني سألت عنه وأخبروني بأنه لم يأت اليوم»؟

لم يجبه المدير، بل نظر في ورقة أمامه ثم وضع يده عليها كمن يخفيها وقال «لا يمكن أن تأخذ مكان مريض آخر» وقبل أن يعلق الزوج مضى المدير يقول «إلا أنه بالنظر إلى وضع زوجتك الصحي، فسيكون أول موعد نحدّده لها بعد أسبوع من الآن».

«أرجوك، أن أسبوع هو وقت طويل جداً... أتوسل إليك. ستموت قبل الموعد».

«أنا آسف...»

«أتوسل إليك...»

«بعد أسبوع... وتذكر أنك لم تحضر العزاء».

فقد الزوج أعصابه وهو يسمع العبارة الأخيرة فانفجرت منه ثورة كلمات رغماً عنه «هذا ظلم، لم أعرف بأمر الخراء الذي مات، هذا ظلم، أن زوجتي...» وفي محاولة بدت متأخرة للتحكم في كلماته قال «إنها تموت... ما ذنبها هي... إنها...»؟

«إن كنت تراه خراءً، فليكن الموعد بعد شهر إذاً» ثم ضغط المدير على زر دخل بعده حارس عملاق «أخرجه من هنا».

قاد الحارس الزوج المصدوم إلى خارج الغرفة. نظر إلى القاعة التي امتلأت بأصوات مرضى وصافرات إسعاف وأنين زوجته التي انكفأت على وجهها. أطبق على صدغيه وأطلق صرخة اهتزت لها ثريا المحفل العملاقة...

«لاااااااااااااااااااااااااااااااااا...».

* * *

«واو... هل قالها فعلاً»؟

«نعم... ألم تسمعها أنت»؟

«كلنا سمعها...».

«يا إلهي... كيف تجرأ على نطقها، وبهذه الدرجة من الوقاحة في مستشفى حكومي»؟

«أرجو من الأعضاء الموقرين التزام الهدوء» قال نحيل الجسم

«كلنا سمعها. لكن من يكون الرجل»؟

«أيها العضو المبجل» قال صاحب كرش الله وحده يعلم كيف أصحبت رباعية الأطراف «كائناً من كان، فإن فعلته لا تغتفر».

«هل في الأمر جريمة»؟ سألت عضوة المحفل.

«في عرف الوطن... جريمة» قال عضو الأمن وأضاف «تعلمين ولا شك، أنه يحظر على أي مواطن أن يقول «لا» بأمر الزعيم».

كان عضو الأمن يتحدث بانشراح من وضع يده على بداية الخيط الذي يبحث عنه.

* * *

كانت يدا الزوج ترتعشان وهو يدثر زوجته الشاحبة على السرير في بيتهما المتواضع. أنين ألمها الخافت أصبح أنفاساً هادئة بعد أن تناولت الدواء الذي وصفه الطبيب الشاب الذي لم يظهر.

«نامي يا طفلتي... نامي» قال بهمس مع دمعة خضّبها إحساس

ذنب انسكب من مقلتيه. كان يسأل نفسه إن أتى الخطأ منه. لكن ما ذنبه هو؟ أحس بها تفتح عينيها بتثاقل وتنظر إليه، فابتسم لها كطفل يطالع أمه.

«سيكون كل شيء على ما يرام... أعدك بذلك» وطبع قبلة على جبينها فأحسه بارداً.

«عندما تفيقين، سأكون قد أصلحتها...» أضاف مداعباً وهو يمسح جبينها بيده في حنان تقطّر من طرفي السرير. أراد أن يسلي عنها بشيء آخر غير المرض والمستشفى وهمّه هو. أراد أن يفعل أي شيء يطرد كآبة لزجة تملأ البيت، ولو كان العبث بتلك الغسالة المعطوبة في هذا الوقت الحرج.

حمل مفتاح براغيّ في يده ووقف يتأمل الغسالة المتناثرة قطعاً. لم يلبث أن رمى بالمفتاح وأجهش بالبكاء. توكأ على بقايا الغسالة، ثم تراجع إلى الحائط وأسند ظهره إليه وانزلق حتى تكوّم على الأرض.

الساعة تشير إلى السابعة مساءً. الزوجة في سباتها، والزوج يجلس القرفصاء أمام غسالته يبكي ويقول في نحيب خافت «هو خطئي... هو خطئي».

تهيّأ له بعد لحظة أن شيئاً يتحرك في ردهة المنزل. قام يستطلع الأمر وهو يمسح دمعه فما وجد شيئاً. ثم خطا باتجاه زوجته النائمة. وجدها تتمتم في هذيان وعيناها مغمضتان. أيّ صوت ذاك الذي سمعه إذاً؟

بقي ينظر إليها نائمة يملأه ألم عجز وقلة حيلة لا يعرف ما يفعل إزاءهما. المستشفى الذي هرم وهو ينتظر شفاعته بقبول زوجته،

والورقة الأولى التي دفعها من أجل العملية، والورقة الثانية التي دفعها لتقديم موعد العملية، «نعم... هي تلك الورقة التي ما كان ينبغي دفعها أبداً»، قال يحدّث نفسه ويلومها كما لو كان هو المخطئ بحق زوجته بتقديم موعد العملية. لكن كيف له أن يعلم أن أحد أقرباء الزعيم، أقربائه البعيدين مسافة القمر، سيموت ويكون عزاؤه في يوم العملية تحديداً؟

سيطرت عليه هواجس متمتماً لعنات لا تحصى. ارتفعت إلى همس يدعو بالجحيم لفقيد الوطن الذي يصر على أن يصطحب معه في موتته موتى آخرون لا ذنب لهم سوى أن موعد عمليتهم صادف يوم موته.

ثم أخذ يكيل السباب للمشفى، ومدير المشفى، وللمحفل وكل من خطر له على بال في ثورة غضب أخرى أخرجته من نفسه.

«للحوائط آذان تسمع...» أتاه صوتها شاحباً كلون جسدها. صمت همسه واقترب منها. جلس إلى جوارها واحتضنت كلتا يداه يدها.

«للحوائط آذان تسمع...» كرّرت عبارتها في جهد واضح.

«لتذهب الحوائط للجحيم...».

«هل... تحبني...»؟

«آآآآآآآه...» جاوبها وأرخى رأسه وأجهش بالبكاء. وضعت يدها الأخرى على رأسه فأرخاه على صدرها.

«سامحيني يا حبيبتي... سامحيني... إنه خطئي...» قال في صوت متهدّج «... ليتني تركت الموعد الأول كما هو... ليتني... ليتني» وأجهش ببكاء أكثر مرارة.

أغمضت عينيها بهدوء وقالت بصوت بالكاد يسمع «إن الحب... ظالم كبير».

* * *

وكأن الماء في المرجل قد اهتاج فجأة ذاك اليوم في تاريخ الوطن. فقد مات أحد رجالاته العظام الذي لم يسمع به أحد من قبل، وتصاعدت أصوات الحس الوطني المحتجة، وقذف المحفل بالحجارة، وانتشرت أعين الأمن حتى في المخادع، و لم يعد جهاز الزعيم ذو الأربعة عشر مفتاحاً يملك تأثيره المعتاد في التحكم بإرادة الشارع. وفوق ذلك، أتت تلك الـ«لا» التي أثارت المحفل برمّته.

«لقد تكشفت الأمور أيها السادة» قال عضو الأمن «فهناك بالفعل مؤامرة. لكني كما وعدتكم، سينتهي كل شيء قريباً وتعلمون الأخبار».

اختتمت تلك الكلمات اجتماع المحفل المسائي الاستثنائي ذاك اليوم. وقد نقلت الكلمة كل وسائل الإعلام بالاستعانة، بطبيعة الحال، بالجهاز العجائبي الخاص بالزعيم.

كلمات الطمأنة تلك تسللت على أرجاء الوطن إلى كل بيت، كل غرفة، وكل دورة مياه، حتى إن الغسالة المعطوبة نفسها قد أومض مصباحها الأحمر. والتلفاز المغلق في ردهة المنزل المسكون بالكآبة اشتغل من تلقاء نفسه يُسمع من يراه ولا يراه آخر الأخبار. انعكست أضواء الشاشة على رجل بدا أكبر من عمره، يجلس على مقعده وحيداً يفكر في زوجته المريضة... واللا شيء.

كانت القنوات تختار نفسها وكأنها مبرمجة لخدمة المحفل وحده. هتافات، وصيحات تأييد، وجماهير تحمل صور الزعيم، ورجل يلبس طربوشاً أحمر.

«... ما هذا الجنون»؟ قال الزوج وهو يحاول أن يخمد ناراً تشتعل في صدره «أيّ وطن هذا... أيّ وطن»؟ كانت النار أقوى من إرادته. أغمض عينيه وأرخى بجسمه إلى الوراء، يسمع تلك الأصوات التي أتته من المستشفى خلف الباب المفتوح، وصافرات الإسعاف التي تنطلق الآن من أذنيه، والدم الأحمر الذي يسمع صوت تقطره الثقيل على أرض المستشفى القذرة. نهض فجأة من تلك الصور الكئيبة وكأن تياراً كهربائياً صعقه، فوجد التلفاز مطفأً، والفراغ يملأ المكان، وصدره يصعد ويهبط. مسح وجهه براحة يديه وهو يتمتم بعض صلواته، ثم نظر إلى التلفاز المطفأ أمامه، وتساءل «هل كان يحلم»؟

مضى إلى حجرة زوجته النائمة برعاية ألمها. لم يقوَ على النظر إليها، فعاد إلى الردهة حيث آلام الباب المفتوح في المستشفى ما تزال تسبح فوق مقعده كفقاعة، وقف يتأملها ويفكر كيف أن من يسمّونهم أعداء الوطن يعالجون، ويموت من يحب الوطن... وحدّث نفسه «ليتنا كنا معهم».

فجأة تحرّك الجدار بجواره، وأخذ، في لحظة واحدة، شكل أذن بشرية. لقد سمعوه حتى وهو يحدث نفسه. وقبل أن يدرك ما يجري حوله، سمع صوتاً قوياً تلاه شيء طار فوق رأسه. كان ذلك باب المنزل الذي اقتحمه رجال أمن مدججون بالسلاح، يلبسون أقنعة تخفي معالم وجوههم.

* * *

«ما بال الوطن فارغاً هذا المساء من ناسه...»؟

«هل سطلت من النفس الأول...؟ كل تلك الحشود أمامنا وحولنا ولا ترى شيئاً»؟

تأمل في دخان سيجارة لوّثتها اصابع متسخة وأجاب بلسان ثقيل «وهل حشيشك الرخيص هذا يلعب بعقل معاقر محترف مثلي...»؟ سحب نفساً آخر وأضاف «انظر... انظر جيداً...» ورفع قوقعة أذنه يصيخ السمع «هه... هل ترى أحداً؟... لا أحد على الإطلاق. وطن فارغ تماماً».

فتح الآخر حدقتيْ عينيه على اتساعهما ينظر حوله وقد ثقل لسانه هو الآخر «بلى... أرى حشوداً كثيرة...»؟

«هذا لأنك ترى بعينيك... ألم يخبرك أحد بالقرار الأخير... أن النظر يجب أن يكون...» وأخذ نفساً آخر «بالأذنين فقط»؟

* * *

«لسان طويل غسلت به أعضاء المحفل...

وعزاء لم تحضره... بحق الجحيم، كيف لم تحضره؟

... ثم من أين أيها الجبان... من أين هبطت عليك الجرأة لتقول «لا»؟

«والأهم من ذلك»...» قال المحقق أمام الزوج المتهالك على كرسيه الخشبي «الأهم من كل ذلك، السلاح الذي أرعبت به

الوطن. لقد جمعنا قطعه المتناثرة واحدة تلو أخرى».

إن كان الزوج قد أدرك فداحة خطئه بشتم أعضاء المحفل، وجرمه بعدم حضور العزاء، وقول «لا»، فإنه لم يستوعب مسألة السلاح الذي أرعب به الوطن.

في صوت متعب سأل «... أين أنا...؟... أين زوجتي»؟

اقترب المحقق من وجهه حتى اشتمّ رائحة انفاسه «لقد أوقعنا بك أخيراً».

«نعم... لقد وقع الجرذ في أيدينا»؟ قال عضو الأمن يخاطب الزعيم وأعضاء المحفل مزهواً بانتصاره «والأهم أيها السادة، أننا حققنا ذلك في أقل من الأيام التي حددها الزعيم».

كان الزعيم يصغي بانتشاء وهو يعبث بجهازه ذي الأربعة عشر مفتاحاً. فور أن أكمل عضو الأمن عبارته، التفت إليه الزعيم وقال في صوت ملأه الفرح «بوركت أيها العضو الموقر»، ولم يلبث أن بدأ الجهاز ذو الأربعة عشر مفتاحاً مهمته، فانطلقت موجة انتشاء وطني وكأنها قنبلة صوت. صفق الزعيم، وكالعادة صفق معه أعضاء المحفل وهم ينهضون من مقاعدهم. ومع تيّار الحماسة المتدفق من الجهاز الذي ملأ القاعة وتسرّب خارجها غامراً طرقات المدينة وأزقتها، كما هي الحال كل مرة، اهتز الوطن كله بتصفيق دام طويلاً. كان من القوة أن استمر صداه يتردد حتى اللحظة في جنبات الوطن، وقد أقسم بعضهم أنهم ما يزالون يعثرون على بقاياه في خزائن ملابسهم.

«هل تسمع هذا أيها الخائن المجرم»؟ قال المحقق للزوج نصف الواعي لما يدور حوله «إنه الوطن يحتفل بانكشاف أمرك».

بعد التصفيق الحماسي، الذي يعلم الله وحده كم استمر، تحدث الزعيم.

«إن حيلة عدوّنا كانت أضعف من حرصنا على سلامة الوطن. لقد حاول التستر على أهدافه بحياة بسيطة في ظاهرها، ومليئة بالحقد على الوطن في حقيقتها. هل ترون كم كنت على صواب عندما قلت إن هناك عقلاً مدبراً لكل ما يحدث، وفكراً منظماً ومتطرفاً... متطرفاً جداً، يحرك هؤلاء الذين يزعقون في الشارع ويخربون»؟

«عاش الزعيم...»

«عاش الزعيم...»

هتف الأعضاء في تراتبية جوقة موسيقية تهيأت منذ زمن لموقف كهذا.

«أشكركم... لكن اليوم ليس للتهنئة فنحن أمام مهمة جسيمة والطريق ما يزال في أوله. إن كنا قد أمسكنا بقائدهم، فليست تلك سوى البداية. يجب أن نعرف من يموّله، ماذا يريد، ومن بقية الأعضاء معه» ثم وجّه كلامه لعضو الأمن «لا تبحثوا عنهم في الغرف المظلمة، ولا الأزقة الضيقة، ولا في الليالي الصامتة، فهؤلاء يتحركون في النهار، ويعيشون في البيوت الكبيرة والقصور. لقد كشفنا مخططاتهم، وعلينا أن نقرأ فكر هؤلاء جيداً كي نعرف الوسيلة المثلى لمحاربتهم».

«سنعمل على ذلك...» قال عضو الأمن.

«ها أنتم ترون أيها السادة كيف يفكر عدونا. إنه ذكي ولا شك... بل ذكي جداً، لكنني لن أفترض أنه أكثر ذكاءً منكم أنتم، ومنك أنت

تحديداً أيها العضو المبجل الذي نثق بقدراته الأمنية ووطنيته العالية».

«نحن ولا شك نثق بعضو الأمن الموقر، ونشكره على جهده العظيم في إنقاذ الوطن من الشر الذي حيك ضده» قال نحيل الجسم «لكنني أحببت معرفة إن كانت تحقيقاتكم قد كشفت عن تنظيم متطرف بالفعل...؟ طبعاً... أنا لا أشكك في جرمه ودهائه، لكن من الذكاء أيضاً أن نعرف ما يكون هذا التنظيم، وما السلاح الذي وجدتموه معه».

«حسن، أستطيع القول مبدئياً إنه صاحب فكر متطرف...» قال عضو الأمن وقبل أن يسترسل قاطعه نحيل الجسم «كيف عرفتم أنه متطرّف»؟

«في الحقيقة... وأتمنى أن لا يساء فهمي... هناك أسرار من الصعب البوح بها في هذا الوقت تحديداً. لكنني أعدكم، وتعلمون جيداً أنني أفي بوعدي، أنه سيتم كشف كل شيء بعد اكتمال التحقيقات».

«هنا... في هذا المحفل الذي يمثل الوطن لا ينبغي أن تخفى أية أسرار» قالت عضوة المحفل.

«أتفهم الأمر أيها السادة» قال الزعيم «فهناك أسرار وراء ما يحدث في الوطن. ومن حق الجميع أن يعرفها لا أنتم وحدكم فقط، بل وحتى الشارع كله. حتى أنا لم أطلع بعد على كامل التفاصيل، لكنني أثق بوعد عضو الأمن الموقر». قال وهو ينظر إليه.

«بالتأكيد إن من حقكم معرفة ما يصيب الوطن. ورغبة في طمأنتكم، وطمأنة العضو الموقر والعضوة الموقرة» قال ذلك وهو يومئ بمكر لهما «سأكشف عن شيء واحد، وهو أن السلاح الذي

وجد لدى المتهم خطير جداً، وشديد التعقيد. ولولا خريطة وجدناها معه لما عرفنا ما هو ولا كيف يعمل. وكما يعلم المحفل الموقر، فإن من يمتلك سلاحاً خطيراً كهذا يملك مالاً كثيراً، أي إن هناك من يموّله خارجياً أو داخلياً، وفي الحالتين فإنه يملك هدفاً. ولما كنا مجتمعاً متصالحاً وعادلاً، فإن من يعادينا إن هو إلا طامع في عدالتنا ومناصبنا أيضاً».

«رؤية ثاقبة ولا شك» قال الزعيم «لكن هل سيكفل ذلك تهدئة الأصوات التي ما تزال تزعق حتى اللحظة؟ يجب أن نحذر من الانتقام، فمثل هؤلاء يعشقونه».

«أعتقد أيها الزعيم، وأشدد على أنه مجرد اعتقاد، أن ما يحرك هؤلاء لا علاقة له، بالضرورة، بأي فكر متطرف» قال نحيل الجسم.

«بعد كل ما سمعنا»؟ سألت الصلعة البراقة في استنكار.

«نحن سمعنا عن متهم وأفراد ربما هم متورطون في شراء السلاح وتهديد الوطن» قال نحيل الجسم «لكن ذلك لو صح فما علاقة الأمر بمطالب هؤلاء الذين يحتجون في الشارع»؟ ثم التفت إلى الزعيم وأضاف «لقد كان لقراراتكم الأخيرة أثرها في امتصاص غضبة المحتجين، ولو كانوا أصحاب فكر متطرف لما سكت صوت فيهم».

«أيها العضو المبجل» قال عضو الأمن وهو يقلب رأسه بين نحيل الجسم والزعيم « لم نقل، منذ اليوم الأول، إن الفكر المتطرف هو ما يحرّك الشارع كله، لكن الجلي أن له دوراً فيه. أن التطرف ينشط دوماً في الفوضى، وهؤلاء الذين يزعقون إن هم إلا يحرثون الأرض أمام المتطرفين. وما أراه، والرأي للزعيم طبعاً، أن لا نتهاون مع

هؤلاء. فإن كانوا أصحاب فكر متطرف اجتثثناهم، وإن كانوا، كما يعتقد العضو المبجل، مجرد أصحاب مطالب، فستكون قوتنا كفيلة بعدم تماديهم في مطالبهم فلا تصل عتبات محفلنا الموقر».

«أمران يجب أن لا يغيبا عن بالنا أيها الأعضاء الموقرون» قال عضو الأمن متابعاً حديثه في ثقة مطلقة «لو كان الناس يطالبون بإصلاح ومشاركة في الحكم كما يردّد بعضهم، فإنكم أيها السادة من أبناء الوطن كما هم، وتشاركون في إدارته لما هو في مصلحتهم، أي كما لو كانوا هم أنتم وأنتم هم، مع الأخذ في الاعتبار أنكم النخبة منهم. الأمر الثاني، أنه لا يمكن قبول أي تطرّف بيننا، وهؤلاء غوغاء إن لم يحركهم التطرف فإن الجهل الذي يتخبط فيه بعضهم لهو أخطر علينا من التطرف».

«أيها العضو الموقر، لست أفهم تماماً ما تقول» قالت عضوة المحفل «فإن كان الشارع جاهلاً فنحن سبب جهله، وإن كان مستنيراً، فحق علينا أن نستوعب إرادته».

«هل نحن ظالمون»؟ سأل الزعيم في استنكار.

«عفواً أيها الزعيم... ما قصدت ظلمنا لأحد، بل قصدت أن إعطاء الإحساس، ولو مجرد إحساس، بأن العدالة مطلبنا جميعاً وبأن للناس الحق في المشاركة، فسيلبّي ذلك جزءاً مما يطالبون به، سواء أكانت الغرائز من يحركهم أم التطرف إن كان هناك من تطرف بالفعل».

«وماذا عن الذي قبضنا عليه، والسلاح الخطير الذي وجدناه معه، والخريطة السرية»؟ سأل عضو الأمن بتهكم «هذا خيط يقود إلى المغارة الملعونة التي تحاك فيها المؤامرات ضدنا. وسنثبت لكم

قريباً، قريباً جداً أيها السادة، أننا على صواب».

«دعونا لا نفسد بهجة انتصارنا... وما آمركم به الآن» قال الزعيم وهو يوجّه كلامه إلى عضو الأمن «أن تكشفوا في اجتماعنا المقبل، ما توصلتم إليه من حقائق، أريد أن يعرف الوطن، بلا مواربة، من هم أعداؤه والسلاح الذي كانوا سيوجهونه إلى صدره».

* * *

«الناس يخطئون ويعلمون أنهم يفعلون ذلك ولا يتوقفون، حتى إذا ما أتى المنعطف بحثوا عن معجزة تنقذهم».

«لكن الزعيم لا يفعل...»

«هو ليس إلها...»

«هؤلاء الثائرون... يضربون بقرارات الزعيم عرض الحائط».

«في الثورات، تصبح قرارات الجميع غبية».

* * *

أصبح الليل قبراً من قسوة عتمته، والنهار عتمة من شدة الخوف فيه، وسكن الزمن فما عاد يسير أو يتكلم، وبات الفرق الوحيد بين الحياة والموت أسئلة السجان.

«من يموّلك؟... ما هدفك؟ ما علاقتك بهذا؟... ما علاقتك بذاك؟... كيف تعلمت القتال، ومن أين لك بالسلاح الخبيث»؟ سلسلة أسئلة تفوق استيعاب الزوج. أجوبته كانت سؤالاً واحداً يكرّر ذاته «أين زوجتي»؟

ويستشيط السجان غضباً، فيغلق الباب ويمضى تاركاً وراءه شبه إنسان تحلق فوق رأسه خيالات زوجته النائمة على سريرها.

لم يكن السجن عطناً أو رطباً. كان أشبه بغرفة متواضعة الأثاث والأبعاد. لقد كان سجناً يليق برجل يهدّد أمن الوطن. وحيث إن التهمة خطيرة، والمتهم إنسان يرتبط، ربما، بقوى خارجية، والوطن عقل يجاهد لامتصاص غضبة الشارع والإيحاء بعالمية إنسانيته، فقد كان على السجن أن يكون «إنسانياً» بقدر ما تتحمّله رحابة صدر الوطن في هذا الوقت الحساس.

إلا أن المكان، سجناً أو قصراً، لم يكن هو ما يغمّ صدر الزوج، بل حال زوجته وما قد يكون حل بها.

ليس وجود الزوجة، ربما، في غرفة مجاورة له الآن، سبب ما فيه من كدر، بل أن تكون ما تزال تئن وسط ألمها فوق سرير لا أحد بقربه. حتى لو كان هناك من أحد، فمن يجروؤ على الاقتراب من عائلة يخاصم أحد أفرادها الوطن؟

حاول جمع كل ابتسامة صدرت منه في حياته ليصنع منها أملاً، وتذكر كل حيلة مارسها، قرأها، أو سمع عنها ليرسم صورة عن حالها، مستجدياً أيّ خيال محتمل وغير محتمل، يخبره أنها بخير. كان آخر ما يفكر به هو حاله، والمكان الذي هو فيه، والكرسي الخشبي القاسي الذي يجلس عليه والسجان الجاف الذي يسأله عن أشياء غريبة. بدت تلك اللحظة، داخل السجن، حدثاً نادراً في تاريخ الوطن، حيث ينتصر حب الآخر على حرية الذات.

تصوّرها في تلك اللحظة، وهو جالس على كرسيه الخشبي، في

مكانه الذي لا قيمة للحياة معه، أنها تنهض من سريرها لا يزعجها سوى غيابه، وباب الدار المخلوع من إطاره. «من سيعيد الباب إلى مكانه»؟ سأل في سره وكأنه يستجدي الباب أن يحميها في غيبته. «من سيأخذها إلى المستشفى»؟ سأل وكأن كل من في المستشفى ينتظرون وصولها. «من سيكون برفقتها عندما تستفيق»؟ تمتم وكأن العملية الجراحية قد تمت دون حضوره هو ليكون أول من تراه بعد أن تفيق.

أسئلة طافت برأسه مع خيال جاهد أن يصبغه باللون الأبيض، قبل أن يتحوّل إلى صور عبثية يعيش وحده داخلها. حاول أن يراها تعود إلى البيت الذي تخيّل أنه الآن في وسطه. وتحمل بيدها تلك الباقة من الأزهار التي أعدّها لاستقبالها. تحيطهما أضواء ساطعة مشبعة بثمالة الموسيقى. كان يتبسم وهو ينظر إليها تدنو منه بشعرها الكستنائي الطويل، وفستانها الذي كانت تلبسه في أول لقاء بينهما. مد يده إليها يستقبل حضورها، لكنها ابتعدت، وخفتت الأضواء الساطعة بتدرج سريع، وذبلت الأزهار في لحظة، وحلت العتمة والسكون في أقل من غمضة عين، وأغمض عينيه. فتحهما بتردّد خائفاً أن يرى الأزهار قد ماتت في منزله.

تاه عقله قبل أن يعي وحدته وأوهامه وهو يتأمّل السكون من حوله. تلك الغرفة المتواضعة التي ما كان ليعرف أنها سجن إلا من قضبان حديدية أحاطت بنافذة عالية، بدت له قبراً وهو يستسلم لأفكار سوداء تصيبه كسهام من نار. وبدلاً من الخيال الذي كان فيه، أصابته قشعريرة من يقف عارياً أمام قرنيْ شيطان «هل أخذوها هي

الأخرى... كيف لهم أن يبعدوها؟... هل هي في غرفة مجاورة»؟ أصاخ السمع فجأة وكأن الخيّال يتجسّد حقيقية «لا أسمع شيئاً». نهض باتجاه الحائط، وألصق أذنه «لا شيء...» قال في نفسه. «لعلها في قسم النساء»؟. أغمض عينيه وأطبق على وجهه «يا الله...»، ومع مرارة الألم عاودته بقايا صور أولى، ثم غابت، ثم عادت، ثم تداخلت في ما بينها. يراها تنام هادئة على السرير تارة، أو تتأوه ألماً، أو تجلس على كرسيّ مماثل لكرسيّه، في حجرة مماثلة لحجرته الصغيرة، يطرحون عليها الأسئلة ذاتها.

تمنى في تلك اللحظة، في ومضة سريعة، لو كانت بالفعل في غرفة مجاورة له، بل إنه تمتم في صلاة مستعجلة أن تكون كذلك بالفعل، لأنه يعني على الأقل أنها لم تعد وحدها، وأن السجن مهما كان قاسياً، فليس أقسى من الوحدة على فراش المرض، وأن السجن مهما كان ظالماً، فليس أكثر ظلماً من أصدقاء ينسوننا، وأن السجن وإن كان مقبرة الحياة، فإن الحياة بلا حرية هي سجن ومقبرة معاً.

أخذ يصيخ السمع أكثر لعله يسمع صوتها. كان واثقاً بأن صلاته لن تذهب سدى، وأن كل ما عمله من خير في حياته لن يضيع هباءً في هذه اللحظات التي يحتاج فيها إلى كل شفيع لينقذ زوجته ثم ينقذه هو.

تهيّأ له أنه يسمع شيئاً، لكنه كان تهيّؤاً. يصيخ السمع حيناً، ويتمتم بعض صلاته حيناً آخر «يا إلهي... سأجن» قال في سره وتساءل «أين أنت...؟» ورفع رأسه ينظر إلى القضبان المرتفعة.

اقترب منها وشرع يتحسّس الحائط البارد أسفلها. ألصق أذنه عليه،

ثم على الذي يلي حتى جاب كل حوائط سجنه كطبيب يضع أذنه على صدر مريض. كان يبحث عن صوتها ويستجديه بين تصدعات الحوائط. كان يتوسل صوتها أن يأتيه من دارهما، أو من حجرتها في المستشفى لو كانت بشكل إعجازي هناك، أو من حجرتها المجاورة لحجرته لو قدر لها، وشاء الله أن يكرمها، بأن تكون بالفعل رهن استجواب مماثل.

بعد أن انهكته الأسئلة، والخيال، والصور الوحشية التي أدمت عقله ورأسه، عاد ينظر حوله يكتشف المكان. نظر إلى الكرسي الخشبي والطاولة الصغيرة أمامه، والى السرير الصغير المرتب في الزاوية، ومخدة نظيفة بيضاء، ولحاف أزرق اللون، وإضاءة جانبية. كل ما حوله غريب. إن كان هو في مبنى عسكري أو في مستشفى، فلم القضبان في الأعلى، وان كان هو في سجن، فلم السرير النظيف والمخدة البيضاء؟

لم يعد تفكيره يقوى على أيّ تفسير. كان يعي إلى حد ما أنه في سجن ما، وأنهم يجرون معه تحقيقاً، لكن في أي سجن هو، ولماذا يحققون معه؟

تذكر كلام المحقق له عن «العزاء...» وكلمة «لا...» وعن سلاح متطوّر... وتساءل «أيّ سلاح هو»؟ فكر أنه ربما كان يهذي، وأن المحقق من صنع خياله. فإن كان المرء يستحق أن يسجن، فلا بد من سبب ودليل. وهو لم يسبق له أن نظم تظاهرة أو شارك في مسيرة احتجاج، ولا شتم أحداً، ولا غاب عن عمله سوى مرة واحدة بسبب مرض زوجته، ولا ارتكب مخالفة سير، ولا تهرّب من ضريبة،

وسدّد كامل قرض سيارته، وإن بقي قرض الخيّاط الذي فصّل له بدلة الشتاء ما قبل الماضي، وهو ليس بسبب كافٍ لاعتقاله.

لم يكن شيء محدّد يدفع الزوج ليظن أنه في سجن حقيقي وأن سجاناً يستجوبه. بدا كل شيء كحلم في منام... أو منام في حلم. تهالك على كرسيه مواجهاً باب حجرته. رآه أسود أو... بلا لون.

إن كان عليه أن يرى الأمر سجناً ولا شك، فالمهم أن يطمئن على زوجته، بعدها فليأت من وراء الباب ما يأتي.

* * *

«كما استطعنا القبض عليه في أقل من ثلاثة أيام حدّدتموها لنا، كما أعاهدكم بشرفي، وبكل الأوسمة التي حصلت عليها، بأنني سأعرف كل شيء في أقل من ذلك». قال عضو الأمن وهو يخاطب الزعيم في حديث جانبي قبيل اجتماع المحفل المعتاد صباحاً.

«آن للمهزلة أن تنتهي» أجاب الزعيم ثم سأل «ما حال الشارع»؟

«ما زال هناك من يؤجّج الناس، ولن ننتظر كثيراً حتى تنتهي هذه المهزلة كما أشرتم، خاصة بعد أن قبضنا على الرأس المدبّر».

«أيها العضو المحترم» قال الزعيم في صوت هو أشبه بالهمس «هو متطرّف... هل تسمعني. وسيبقى كذلك».

«هذا ما كنت أقوله دائماً أيها الزعيم... عصابات متطرّفة لا أكثر. لا غاية لها سوى تقويض أمن الوطن. لكن...» صمت العضو قليلاً والزعيم ينظر إليه بعينين جافتين «لكن ماذا...»؟

«لكن يجب أن أقر أمامك أيها الزعيم، أن هؤلاء يعرفون كيف

يتحركون... يعرفون جيداً كيف يتحركون ويملكون القوة لتحريك الشارع أيضاً».

«ومن أين لهم هذه القوة»؟

«يملكونها من صمتنا الطويل على احتجاجاتهم».

لم يجبه الزعيم، وانصرف ليبدأ اجتماعاً طارئاً جديداً ذاك الصباح.

« لم يصمت الشارع أيها الزعيم. وأخال أن من ألقينا عليه القبض لا علاقة له بالأمر» قالت عضوة المحفل.

«سيصمتون... قريباً سيفعلون» أجابها عضو الأمن وهو يشد على قبضة يده المعتادة.

«إن كان هناك من يحرك الشارع، فهم أكثر من شخص واحد. إنهم يعرفون ماذا يريد الناس أكثر مما نعرف نحن».

«هذا هراء. نحن نعرف ما يفكر به كل رجل، كل امرأة، وكل رضيع في حجر أمه».

«إن كنتم كذلك أيها العضو الموقر» قال نحيل الجسم «فكيف تمكنوا من توجيه الشارع كيفما أرادوا فيما عجزت تلك القبضة التي تلوّحون بها عن تهدئته»؟

«سيعم الهدوء شارعنا قريباً جداً... أقرب مما تتصوّرون. لن تسمعوا إنساناً واحداً يصرخ فيه».

«... هل تعتقد أيها الزعيم» قالت العضوة وهي توجّه حديثها إلى الزعيم «أن رجلاً واحداً هو من يحرك الشارع، وأن إلقاء القبض عليه سيعيد الهدوء إلى الوطن»؟

«لا أفهم سر هذا التشكيك في ما يقوم به عضو الأمن الموقر».

«بل نكنّ لمجهوده كل احترام وتقدير. لكن بافتراض وجود متطرّف يقود هؤلاء، فما كان للتطرف أن ينجح لولا قدرته على قراءة ما يريد الناس. وهذا هو سر نجاحه ومكمن قوته الذي لا يريد عضو الأمن الموقر الاعتراف به. ونحن إن قبضنا على من يقود هذا الفكر، فإن الفكر ذاته سيبقى ببقاء أسبابه وهو عجزنا عن فهم غايته لبعدنا عنه».

«أتفق مع العضوة الموقرة» قال نحيل الجسم في مداخلة خاطفة ونبرة عميقة.

«الفقر قد يخلق متطرفاً، والظلم يخلق إرهاباً، لكن انعدام الحرية واندثار الكرامة سيجعلان من الجميع متطرفاً وإرهابياً» قالت العضوة وأضافت «لا يولد القاتل مجرماً، كما هو رجل الدين لا يولد شيخاً، كلاهما، يصبح ما هو عليه من البيئة التي نصنعها حوله... ونحن أيها السادة، كما قد نجعل من الجاهل عالم دين، قد نجعل من الجاهل ذاته متطرفاً».

ساد القاعة صمت لم يكن الوقت ملائماً له. فمعظم من كان تحت تلك القبة، في تلك اللحظة، لزم لسانه عالماً بأن كلام العضوة يحمل قدراً من المنطق. هكذا استسلموا لصمت حائر، مستنكرين في صمتهم هذا اعتراف العضوة الضمني بالفقر والظلم وانعدام الحرية.

كانوا تحت تلك القبة العظيمة، وثريا الكريستال النادر، يرغبون في الخلاص السريع مما يعيشه الوطن، خوفا مما قد تصبح عليه حالهم بعد ذلك. كانوا يريدون أن ينتهوا من الأمر كما لو هي زائدة دودية يجب إزالتها بأدنى شق للبطن. بل إن بعضهم طالب بأن يكون

العلاج عشبة تقليدية أو حتى... حجاباً قد تخضب بالصلوات. هذا على الأقل ما قاله العضو صاحب الكرش الوقورة «أعطوا الثائرين ماءً قرأ عليه بعض شيوخنا... بعدها سيطير الشيطان من رؤوسهم، ويعودون إلى رشدهم».

* * *

«لا تحسب أيها المواطن أن أعيننا غافلة عما يدور حولنا. فذلك هو عملنا... أن نعلم ما تحدث به نفسك».

«... أين زوجتي»؟

«ولأننا نعلم ذلك... ونبرهن عليه، فقد استطعنا الوصول إلى الحقائق كاملة. لم ننتظر أن تخبرنا أنت. ربما كنت تجهل أيها المواطن، أن قدرتنا أكبر من تصوّرك» صمت المحقق قليلاً ثم أضاف في مكر «ولهذا أنت هنا».

«... أين زوجتي»؟

جلس المحقق بهدوء قبالة الزوج، قبالته تماماً، حتى شعر به يطحن رأسه بعينين جامدتين كحجر... بعد صمت مؤلم تابع المحقق «أنت لم تخطئ بحق المحفل الموقر يوماً، وإن صدرت منك بعض الكلمات القاسية... القاسية قليلاً» وأشار بسبّابة يده وإبهامه «بسبب ظرف عارض ربما. لقد علمنا ذلك... والأهم... هو أننا علمنا سبب عدم مشاركتك في العزاء».

لم يحرك الزوج رأسه وبقي في صمته وذهوله يحدّق إلى باب الحجرة أمامه... «نعم... علمنا أن السبب هو مرض زوجتك،

والمستشفى الذي حرصت على أن تكون فيه لإجراء عمليتها، وما دفعته لموظف الاستقبال أيضاً والطبيب الشاب الذي اختفى. هل تعلم لماذا اختفى»؟ صمت المحقق تعلوه ابتسامة ساخرة، ودون أن يعطي جواباً لسؤاله مضى يقول «ليس تقليلاً من شأن فقيد الوطن تغمّده الله بواسع رحمته... فنحن نعلم تماماً، بل ويقيناً، أنك ما كنت لتتأخر عن مراسم العزاء. ومع أنك لم تؤدّ خدمة واحدة لأمننا الوطني، و لم تعط معلومة في أيّ وقت عن شيء قاله أحدهم ضد الوطن، إلا أننا لن نشكك في ولائك للوطن، رغم... ما صدر عنك في ثورة غضب بعض الأحيان».

كان الزوج يسمع لمحققه كثمل لا يدرك كلمة مما تقال أمامه. إلا أن المحقق بدا واثقاً من أن كل كلمة ينطقها تصل إلى سجينه الذي لا بد أن يكون مصدوماً باكتشاف أمره، فواصل حربه النفسية «صحيح أننا لم نجد في سجلك العائلي أي انتماء لحزب ما، وأنك لا تعرف اسم أي واحد من أعضاء محفلنا الموقر، إلا أننا نعلم بأنك ولا شك توقر المحفل. كما أن اسم عائلتك الذي لم أسمع به من قبل في تجارة أو صناعة لا ينفي أنك تحمل في ظهرك بذرة مواطن سيبني، مثلك بالطبع، هذا الوطن ويفتديه بكل ما يملك».

كانت نبرة المحقق تختلف الآن عن تلك التي سمعها الزوج في التحقيق الأول رغم ما فيها من خبث وسخرية. بل بدا للزوج في صمته وذهوله أن من يحادثه الآن شخص آخر.

«لقد شاركت أنت شخصياً في مراسم وطنية كثيرة... ربما» قال المحقق وهو يعد على أصابعه «عيد الاستقلال، عيد ميلاد الزعيم،

وحتى عيد ميلاد زوجتك، هل تذكر؟ لدينا صورة ذلك اليوم البهيج الذي أقمت أنت فيه حفل عيد ميلاد متواضعاً لزوجتك، رغم أنه لم يكن هو بالفعل يوم ميلادها، لكنك أحببت أن يوافق فرحة الوطن». نهض المحقق وخطا بهدوء تجاه الحائط مولياً ظهره للزوج «ها أنت ترى كيف نعلم عنك كل شي... باستثناء الطريقة التي غُرّرت بها، والطريقة التي حصلت بها على سلاحك الخطير. ولست أعتقد أنك تشكك في رغبتنا الصادقة في أن تعود المواطن الصالح الذي كنت دوماً، بعد أن تخبرنا بطبيعة الحال عن دورك في ما يحدث في الشارع».

وكأن لسانه قد خيط في جوف فمه بقي الزوج أسير صمته وذهوله السرمدي.

«أريد من ضميرك الوطني أن يجيب عن اسئلتي لا لسانك فقط...»

ضاقت حدقتا الزوج في تلك اللحظة، وتداخلت إضاءة النافذة العلوية مع إيقاع خطوات المحقق ونبراته، فأحس بكل شيء يدور حوله وكأنه قطعة قماش تتقلب في جوف غسالته المعطوبة.

«هل ستبقى صامتاً هكذا...»؟ سأل المحقق.

سأله ثانية وهو يعود قبالته «ماذا تريد»؟

لم يجبه شيء.

«لنعقد صفقة بيننا. ما رأيك»؟ قال المحقق وانتصب بقامة ممشوقة ولهجة أقل حدة «أنت بريء من تهمة تحقير الوطن رغم غيابك عن مراسم العزاء... أو لنقل يمكن أن نجعلك بريئاً. وكما ترى، فها نحن

نقدم لك شيئاً، فما الذي يمكن أن تقدمه أنت لنا.. إن كل ما نريد هو أن تخبرنا بحقيقة السلاح الذي وجدناه معك، والآخرين الذين هم معك.

«ها أنت ترى كم نحن متسامحون... وكما نحن نتفهم سبب عدم حضورك العزاء، عليك أن تتفهم سبب خوفنا من أعداء الوطن الذين غرروا بمواطن صالح مثلك».

«أين... زوجتي» سأل الزوج خارقاً صمته الحجري.

وضع المحقق يده على كتف الزوج «لا تخشَ عليها... هل هذا يريحك؟ ولا تخشَ لو بحت بسرك أيضاً. فأنت هنا في أمان الوطن وحمايته».

تصاعدت أنفاس الزوج وكأن شيطاناً يجثم على صدره. نظر إليه المحقق متوقعاً أن يبدأ إفراغ ما في جعبته لكنه سرعان ما سكن إلى صمته. برز غضب من عيني المحقق، كلهيب نار، وقال قبل أن ينصرف «عندما أعود في المرة المقبلة، أدعو الله، أدعوه صادقاً، أن أجدك وقد أصبحت مواطناً صالحاً».

قبل أن يغادر، رفع الزوج رأسه إليه وكرر السؤال ذاته «أين... هي»؟

«عندما تخبرنا ما نريد... سنخبرك بما تريد» قال وصفع الباب.

* * *

وكأن القدر أصبح رسولاً بينه وزوجته، فقد وصلته في سجنه رسالتها الأولى. أخبرته أنها بخير. وأنها بعد أن غادر هو بصحبة أصدقائه

الذين من فرط حماستهم نزعوا الباب من إطاره، وبعد أن اطمأنت على سعادته في رحلته إلى مكان جميل كما قالوا لها، فقد اتصل بها أحدهم ليخبرها بأن جناحاً في المستشفى قد أعد لاستقبالها، وأنها قد أجرت العملية بنجاح على يد أشهر طبيب هناك «... وسأبقى يا زوجي الحبيب تحت عنايتهم ليوم واحد فقط، أعود بعدها إلى بيتنا الجميل وأنتظرك هناك مع العشاء الذي تحب».

كانت تلك أعظم رسالة تلقاها الزوج في حياته، فقد أعادت الألوان إلى عينيه، والمذاق إلى لسانه وغزت رائحة عطرها أنفه. أمسك بالرسالة يقلبها كأم تتسلم أول رسالة من ابن غاب عنها طويلاً. غطى وجهه بها على إيقاع ضربات قلب يحاول أن يفرح. استحالت تلك الإيقاعات موسيقى تعانق أحرف كلمات الرسالة.

فجأة، بدأ النغم يخفت حتى صمت تماماً، وتطايرت كلمات متناثرة في فضاء الغرفة. نظر إلى الرسالة التي بين يديه فلم يجد شيئاً... مجرد خواء ملأه خيال جامح. أحس بنفسه أقرب إلى الجنون، وأخذ يبكي منكسر الكبرياء على كرسيّه الخشبي. في انكسارته تلك أحس بيد حانية تربت على كتفه. أدرك أنه يحلم فتجاهلها. لكنه مع ضغط خفيف منها على كتفه، حاول أن يتلمسها في خوف وحذر دون أن يدير رأسه. أحس باليد دافئة مليئة بالحياة. رفع رأسه بهدوء وقد علته ابتسامة من يعرف تلك اليد جيداً. إنها لزوجته. خياله الجامح لم ينكسر كما هو كبرياؤه. بل صنع وجوداً حسياً لها لا يراه سواه. لقد تيقن تلك اللحظة أن الإحساس أقوى من اليقين.

بدأ روعه يسكن، وأخذ يسترجع صور ما حدث له من الباب الذي

طار، والغرفة التي هو فيها، والمحقق الذي تطحن عيناه الصخريتان وجهه. كان روعه يتحوّل إلى سكينة تدخل نفسه كما الماء يتدفق بين الشجيرات الصغيرة. بات في تلك اللحظة شديد الإدراك أن ما يدفعه إلى زوجته ليس الخيال وحده بل الحقيقة التي تبحث من تلقاء نفسها عمّن يبحث عنها. لم يشغله طوال الساعات التي تلت، والأيام، والزمن الذي توقف، سوى التفكير فيها. كان عمق تفكيره يتجسّد إنساناً يهتف في أذنه بصوتها، بنبرتها هي، مخترقاً حوائط الغرفة وحواجز المعتصمين ورجال الأمن وقاعات المحفل وكأنه يتحدّى الانهيار.

الهاتف الذي سمعه الزوج في فضاء غرفته لم يكن وهماً بل إعلان وصول الحقيقة إليه. والحقيقة التي وصلته لم تكن مزيّفة، لكنها في الوقت ذاته لم تكن كاملة أيضاً. وحتى تكتمل فكر أن عليه مغادرة المكان الذي هو فيه. فأخذ يستذكر أسئلة المحقق، محاولاً البحث عن أجوبة تقوده إلى خارج هذه الغرفة، إلى خارج هذا المكان، إلى زوجته التي تنتظره.

عاد به خياله إلى الرسالة الوهمية التي أخبرته فيها أنها ستسبقه إلى منزلهما المتواضع لتعد له عشاءه الذي يحب. وكما لو كان رساماً سريالياً أكمل لوحة في عقله موحياً لنفسه بثقة مطلقة أن الرسالة التي لم يتسلّمها، الخواء، اللاشيء، هي رسالة حقيقية، وأن زوجته تنتظره بالفعل، وأنها سعيدة، وباسمة، وتلبس ثياباً جميلة. لكنه لم يذكر أنه اشترى لها تلك الثياب من قبل، كما أنها تلبس قطعة عقد جميل، لم يذكر أنه رآه عليها من قبل، وها هي تجلس في صالون منزلهما

المتواضع فوق أثاث وثير... لم يذكر مطلقاً أنه كان في منزلهما من قبل.

أخذت أنفاس الزوج تهبط وتعلو بسرعة غريبة، تفارقه سكينته، وهو يرى أشياء يعرفها ولا يعرفها في زوجته. أخذ يجوب الحجرة بشكل دائري وخليط من الألوان والصور تتداخل أمامه كضباب شتوي قاتم. حاول أن يقبض عليه براحتيه وهو يتمتم كلمات غير مفهومة. ثم لم يلبث أن تهالك على زاوية رطبة من حجرته يرتجف خائفاً من تفسير ما رأى.

* * *

«إنك محظوظ جداً... هل تعلم ذلك»؟

رفع الزوج رأسه بتثاقل تجاه المحقق دون أن يجرؤ على النظر إلى عينيه.

«... أنت محظوظ لأنك تتعامل مع أمن يؤمن بقيمة الإنسان. ولو كنت في بلاد أخرى، لكان الله وحده العالم ما حل بك...»

ندت ابتسامة عن المحقق وهو ينظر إلى الزوج الغارق في مخاوفه، ثملاً من خيالاته.

«لقد استطعنا معرفة السبب الذي دفعك إلى قول «لا» رغم أنها محظورة بأمر الزعيم كما تعلم... وأنا أيها المواطن، حتى أنا، ربما أستخدم تلك الكلمة دون أن أدري... فما الضير في ذلك؟ هه... أخبرني ما الضير في ذلك»؟

سأل المحقق وهو ينخفض بجسمه إلى مستوى الزوج يحاول النظر إلى عينيه وقد أخذ مكانه على كرسي التحقيق الخشبي «أنا

أخبرك ما الضير في ذلك... أن تقول «لا» لزوجتك أو لأبنائك، فذاك أمر عادي. أولاً، لأنك تقوله داخل منزلك فلا يسمعك غريب، ثانياً، لأنك تقولها لمن هم أدنى منك سلطة. ابن أو ابنة أو زوجة. لكن إن عكست الأمر... هل تسمعني أيها المواطن... إن عكست الأمر، وصدرت تلك اللا من أحد أبنائك تجاهك أنت، فما يكون رد فعلك؟... خروج على الطاعة. هذا ما حدث معك بالضبط، أنك قلت كلمة «لا» في وضح النهار، وفي مكان عام، والأخطر أنك قلتها لمن هو أعلى منك سلطة. هل ترى الآن أين الضرر هنا»؟

صمت المحقق قليلاً وهو يغرس عينيه الحجريتين في كبرياء سجينه «لقد أتيت الآن لأهبك فرصتك الأخيرة فاغتنمها. لكن قبل أن أبدأ، وتشجيعاً على حسن استغلالك لتلك الفرصة، فقد أحببت أن أخبرك أولاً بإسقاطنا لتهمة قولك «لا». في الواقع»... تلكأ المحقق قليلاً قبل أن يضيف وهو ينظر إلى النافذة الحديدية «حتى وإن أخطأت أنت، فليس هو خطأك وحدك، بل خطأ مدير المستشفى الذي لم يتفهّم الأمر، والذي لم يكن يدرك أن غيابك عن مراسم العزاء كان قهرياً، وأن زوجتك لا تستطيع الانتظار. ولهذا فأنت بريء من تهمة «لا». من أجل ذلك أقول أيها المواطن العزيز، إن أردت اغتنام الفرصة للعودة إلى حياتك الجميلة الهادئة، فعليك أن تساعدنا لتخطي التهمة الأخيرة...»

بقي الزوج صامتاً ينظر إلى باب سجنه وكأن ما سيأتي من وراءه أهم مما يقول المحقق. الشيء الوحيد الذي كان يفكر فيه تلك اللحظة، ربما، هو أن ينصرف المحقق عنه. ففي انصرافه فرجة أمل وهاتف يوصله بزوجته.

«أعرف أنك تسمعني جيداً، وأكرر ما سبق أن قلته لك، أن تعاونك هو الضمانة الوحيدة لتعود إلى حياتك من جديد. ألا ترغب في ذلك».

لأول مرة يرفع الزوج رأسه وينظر بعينين براقتين إلى محققه مكرّراً السؤال نفسه لكن بنبرة مختلفة «وأين... هي... زوجتي»؟

«ها قد بدأت خطوتك الأولى... حسن، ستعرف كل شيء بعد أن تجيب عن سؤالي الأهم» دنا المحقق حتى كادت شفتاه تلامسان أذني الزوج «من أين حصلت على هذا السلاح الخطير»؟

* * *

انتفض الزوج ذاك المساء وكأن صاعقاً قد أصابه. كان نائماً على سريره من إعياء ساعات طويلة على كرسي ناشف وأسئلة محقق لا يفهم منها شيئاً. عندما اجتهد، ثانية، في استرجاع بعض تهمه لم تسعفه الذاكرة، ولم يكرّر المحاولة بعدها. كان الهم قد أنهكه وهو يفكر في زوجته التي ما عاد يأتيه طيفها، ولا دفء يدها بعد رؤياه الأخيرة لها بثياب لم يرها عليها من قبل، وعقد جديد، وأثاث لا يعرفه. دخل ألف ضوء معتم إلى صدره. وتخيل صوت أنين هو كل ما سمعه قادماً من حجرة نومها في منزلهما المتواضع إلى سجنه الذي هو فيه، وكأنهما حجرتان متلاصقتان. إن كان من شيء يتذكره في هذه اللحظة، فملامح الموظف الخشن الذي ساعده على التعجيل بموعد العملية... وفي سره تمتم «ليتني لم أفعل...» وعاد يتخبّط في ندمه.

ضوء صغير يتدلى من سقف الغرفة ملأ الفضاء الصامت حوله وكأنه كسرة قمر في ليل اشتدت عتمته. وسط هذا الصمت القاسي قرّرت حوائط سجنه أن تعيد صدى عبارة ذكرها المحقق «إن أردت أن تعرف أين هي فقل لنا ما نريد». لم يكن الزوج في صمته ناكراً المساعدة، أو عاجزاً عنها، أو رافضاً لها، لكنه لم يكن يعرف ما هي المساعدة المطلوبة منه. والكلمات التي ينطق بها المحقق عن السلاح الخطير وجريمة «لا» وغيرها من تهم لم تكن بالنسبة له أكثر من أحاجٍ تحتاج إلى ساحر أو عرّاف لفك طلاسمها.

تراكم الصدمات أثّر بعمق في قدرته على التفكير المتزن. فبدءاً من مرض زوجته، مروراً بعزاء الوطن وعطب الغسالة، وحتى الاقتحام المفاجئ لقوى الأمن داره، واعتقاله، والتحقيق معه، كل هذا كفيلاً بشرخ صخرة إلى نصفين.

كانت حاجته إلى زوجته في محنته تلك وفي مكانه هذا، بنفس قدر أهمية وجوده هو معها في لحظاتها العصيبة حيث هي.

صلواته التي يتمتمها في وحدته، كانت وحدها ما ينقذه من بطشتين: تفكير أسود في مصيرها، وخيال خصب أن لا يراها مطلقاً. آخر ما يشغله كان أمر المحقق.

لكن في خلوته ذاك المساء، مسترجعاً من جديد ما مرّ به، وجد طريقاً شبه يائس يربط بين عودته لزوجته وأسئلة المحقق. عند هذه النقطة، أتته العبارات ذاتها من شق الحائط تذكره بأن تعاونه مع المحقق هو الطريق الوحيد للخروج من هنا. ومع أن الحياة التي كان يعيشها مع زوجته لم تكن بالمثيرة كلها، إلا أنها أفضل من غلبة إحساسه بأنه

يتحمّل جزءاً مما حل بها. وهو إن أخطأ في حقها باستعجال موعد العملية، فلن يخطئ ثانية بالبقاء سجين غرفة يشاركه فيها العتمة واليأس.

من أجل ذلك قرر أن يتعاون مع المحقق، والى أقصى حد ممكن. لكنه سأل نفسه: ما الذي يمكن أن يقدمه؟

كان لحدسه تجاه المحقق دور في طمأنته لما قد يحدث له، فقد لمس نغمة إنسانية متزايدة في كل مرة يأتيه فيها، وكأن المحقق نفسه لا يعلم لم سجينه موجود هنا. كما أنه، وهذا الأهم، لا يملك سراً يخفيه. وكما هي أوراق صحيفة اتهامه تتساقط واحدة تلو الأخرى، كما قال المحقق في بعض ما يتذكر، كما هي أي تهمة أخرى ستسقط من تلقاء ذاتها إن هو اظهر قدراً مقنعاً من التعاون مع سجانه.

لم ينم تلك الليلة مستعجلاً ضوء الصباح. وفي الصباح لم يهدأ على كرسيّه منتظراً المساء. وقبل أن يضطر لإشعال الضوء الشحيح المتدلي من السقف، أتاه المحقق.

نصف جسمه امتلأ شجاعة وهو يسمع المحقق يبادره «ألم أقل إنك إنسان محظوظ...؟ إن التهم تسقط عنك من تلقاء ذاتها كأوراق الخريف».

واستباقاً لإظهار الرغبة في التعاون قال لمحققه في صوت جاهد كي يكون واضحاً «لقد وعدتني... أن أعود إلى داري إن تعاونت معك».

أومأ له المحقق أن يمضي في كلامه وهو مذهول من رغبة سجينه المفاجئة في عرض التعاون.

وفيما كلماته تصبح أكثر ترابطاً مضى الزوج يقول «لم أفعل يوماً ما يخالف القانون. لم أتأخر عن عملي في أي يوم، و لم أحصل على أي إجازة طوال ثلاث سنوات حرصاً على خدمة الآخرين، واليوم الوحيد الذي غبت فيه كان بسبب المستشفى من أجل زوجتي...»

أخذت أنفاسه تتسارع وهو يتابع في عجل «لم أرتكب حادثة سيارة واحدة، ولا حتى مجرد مخالفة... و... و».

«لا عليّ من كل ذلك...» قاطعه المحقق تعلوه ابتسامة محيّرة «هدّئ من روعك، ولا تحاول التذاكي، فأنت تعرف لم أنت هنا».

«إن كان بسبب عدم مشاركتي في مراسم العزاء فقد أخبرتني...».

«لا تتذاكَ ثانية... إنني أحذرك... فأنت تعرف أن ليس هذا هو السبب».

«إذاً من أجل ماذا...؟ لم أعمل ما يسيء للوطن يوماً، حتى تلك التظاهرات...»

«نعم... أخبرني عن تلك التظاهرات» قال المحقق وهو يدنو برأسه منه.

«لا علاقة لي بها... فأنا لم أشارك في أي منها، ولا احتججت على شيء، حتى في عملي، لم أرفض يوماً ما كلفت به ولو كان كثيراً».

«إذاً... أنت تخبرني بأن لا علاقة لك بما يدور في الشارع».

«نعم، نعم، فلا شأن لي بما يتعدّى بيتي وزوجتي المريضة، إنها كل ما يشغلني في هذه الدنيا، إنها... إنها...» وخارت قواه وبدأ يبكي.

«هدّئ من روعك» قال المحقق وهو يربّت على كتفه «ها نحن نسير في الطريق الصحيح. والآن، أخبرني عن قصة السلاح».

بذهول سأل الزوج «أي سلاح»؟

«ها أنت تحاول التذاكي من جديد...»

«لست أحاول شيئاً... أنت تصدقني، أليس كذلك... أي سلاح هو الذي تسأل عنه سيدي»؟

«الذي كنت تخبّئه في حمام منزلك. لقد وجدناه متناثر القطع مع... مع خريطة غامضة».

بقي الزوج صامتاً يفكر في ما يقول المحقق، تشاركه يداه في التفكير، ثم قال كأنه طفل يتحدث «أتقصد تلك القطع التي... في الحمام، بجوار الخريطة... في الحمام، أليس كذلك؟ هل هذا ما تقصده سيدي...»؟ صمت المحقق يراقب انفعالات الزوج بدهاء «... إنها قطع غسالة معطوبة. أنت تعرف أن إصلاحها يكلف مالاً، وأنا أملك وقتاً لأقوم بذلك، وأوفر بعض المال أيضاً... إنها مجرد غس...».

قاطعه المحقق «يا لك من ماكر خبيث» ونظر إليه بعينين ثقبتا جمجمته «تريد أن تغادر هذا المكان... أليس كذلك»؟

«بالتأكيد سيدي... فأنا لم أفعل شيئاً».

«حسن أيها المتذاكي، سأخبرك ماذا لدينا هنا» قال المحقق «إن تلك القطع، حسبما قال خبراؤنا، هي مكوّنات قنبلة... قنبلة قذرة مثلك».

* * *

«أيها السادة... أخبركم اليوم، بكل ثقة، أن الشارع قد بات تحت سيطرتنا المطلقة». كانت تلك كلمات عضو الأمن في المحفل وهو

يلقي بيانه عن سير الوضع «واعلموا أيضاً أن الأسلحة التي وجدناها هي أخطر مما كنا نعتقد، كما سبق أن أخبرتكم».

«إن مثل هذا الحديث أيها العضو الموقر يطمئن ويخيف في آن واحد...» قال الزعيم «كان التطرف يكبر تحت أعيننا دون أن نراه».

نهض الزعيم من مقعده باتجاه جهازه ذي الأربعة عشر مفتاحاً وتابع قائلاً «أعتقد أننا محظوظون بما حدث لنكشف ما اكتشفناه».

«أيها الزعيم الموقر...» قالت عضوة المحفل «إن حكمتكم تدفعني للقول إن هذه القاعة الضخمة قد أغوتنا قليلاً. فقد اعتقدنا أن القبة المزدانة بالرسوم الزاهية هي وطن الجميع، والثريا الكريستالية هي الضوء الذي نزيل به ظلمات الجهل في نفوسنا، والأعمدة الرخامية التي ترتفع إلى السماء هي سقف فاخر لحريتنا. لقد قلت سابقاً أيها الزعيم، نحن في حاجة إلى أن نخرج إلى الشارع. لكنني اليوم أرى الشارع قادماً إلينا... إلى محفله... إلى وطنه الرخامي هذا».

سرت همهمة استنكار في المحفل... وابتسم نحيل الجسم.

«هل تريدين للغوغاء أن يكونوا معنا هنا»؟ سألها عضو الأمن مستنكراً

«ليسوا هم... بل أولئك الذين نعرف أنهم ضحايا لهم»؟ أجابته.

«اعلمي أيتها الموقرة، وليعلم محفلنا كله، أن هؤلاء يتلوّنون في كل ثوب، فقد يبدون صالحين بقدر ما هم أشرار. كما هي أسلحتهم تتلوّن مثلهم، حتى لتظنها جهازاً تلفزيونياً، أو غسالة ثياب».

* * *

تحت وطأة ما يعيش، تضاءل حجم الزوج حتى اضطر المحقق إلى نقله لحجرة أخرى لا تلتهم أبعاده الجسدية. لعله كان في حاجة إلى غرفة تناسب أبعاده الإنسانية التي ضمرت أكثر من جسده.

أما رأسه، فباستثناء عمل الحواس الغريزي، فقد توقف عن العمل كساعة قديمة. أحياناً كان يضطر إلى دفع نفسه إلى التفكير في شيء ما... أي شيء ليتيقن أنه ما زال حياً. حتى عندما كان ينظر إلى يديه ويلامس بشرة عنقه التي ترهّلت في بضعة أيام فقط، ويلف ذراعيه حول جسده، لم يكن يفعل ذلك بإحساس الكائن الحيّ، بل كشجرة ميتة، تحركها عوامل الطبيعة لا الإرادة الذاتية.

وجب عليه أن يمضي عدة أيام وحيداً، حتى يستوعب ما يدور حوله. «قنبلة... قنبلة... قنبلة» الكلمة الوحيدة التي كان ينطق بها في صمت نفسه وعلنها. يردّدها كلما طالعته صورة المحقق الذي اكتشف أنه يملك سلاحاً خطيراً يهدّد به الوطن.

التعاون الذي أبداه بوعد من المحقق أن يعود إلى داره خلق فسحة أمل هي أقرب للعدم من الوجود. مصير غامض ينتظره. جاهد بعزم أن لا يفكر فيه مستعيناً بصورة باهتة لزوجته. في البدء كانت مجرد صورة تكاد تغيب ملامحها. أحياناً كانت الصورة تتحرّك، ثم تئن، ويأتي الأنين متداخلاً بأصوات المستشفى الصاخبة، والطبيب الذي اختفى، وباب المنزل الذي طار فوق رأسه. شاركته تلك الصور حجرته وقد زالت ألوانها فأصبحت لوناً واحداً في كل ما يراه من حوله.

تلك الأمسية، وجد نفسه نائماً على بطنه فوق سرير لا تغطيه سوى ملاءة صوفية. شعر كما لو أنه نام دهراً كاملاً دون أن ينام، وتمنى للحظة لو لم يفق وهو فائق. انقلب على ظهره. كان بعض الضوء ينساب إلى الحجرة الضيقة من نافذة تلامس السقف بنفس ارتفاع الحجرة الأولى. لكن بلا قضبان حديدية.

بصورة هستيرية... هستيرية مطلقة، انتابته موجة ضحك. كان يضحك فلا يتردّد صدى ضحكه على الحوائط، وكأنها غير موجودة، أو كأنها تتجاهل وجوده بينها. أصبح لا شيء. بقي يضحك والدمع يملأ مقلتيه وينساب حتى روى لحية تجاوزت السنتمتر. كان طولها هو المقياس الوحيد لعدد أيامه هنا.

في تلك الأمسية، أخذ يبحث عن ضحكه إلى أين يمضي في أبعاد غرفته، فرآها تختفي في تصدعات حائط بائس امتلأت شقوقه بآلام من سبقوا.

هل من سبب لضحكه؟ حتى هو ما كان يعرف سبباً. ولأنه كذلك، فقد ضحك بعمق على أساس أن ما يستحق أن نضحك عليه هو اللاشيء الذي نعيشه. ثم، كأنه هدير سيارة تبتعد، تباطأت ضحكاته حتى سكنت تماماً، فما عاد يملأ فراغه القاتم سوى أنفاس تعلو وتهبط.

نهض منهكاً يتصبب عرقاً. نظر إلى الأعلى باتجاه النافذة، وكأن صوتاً يناديه منها. تراءى له شيء يعبرها فأخذ يتابعه حتى استقر قبالته. وقف يركز النظر باتجاه ما تهيّأ أنه قد دخل إليه. اختفى إنهاكه وشحوبه في لحظة وارتسمت ملامح طفل على وجهه.

أظهرته صورته الطفولية تلك سعيداً وهو يتأمل خيالاً في خواء معتم. لم يكن قد فقد عقله، على الأقل ليس بعد. وإن كان هناك من يقف أمامه، فقد كان هناك شيء بالفعل. إنها زوجته التي استحضرها عنوة من مكانها الذي هي فيه، الذي لا يعرف أين يكون. لعلها رأفت بحال ما هو فيه، فاتفقا على اللقاء رغماً عن السجن والسجان.

بقي يتأمل الشيء الذي يراه لا تفارقه ابتسامة الطفل تلك. دقيقة، اثنتان، خمس دقائق، عشر... وهو ما يزال على حاله يقلب رأسه يميناً وشمالاً مبتسماً مأخوذاً بجمال من أمامه.

«كيف أنت»؟ كانت جملته الأولى التي نطقها ذاك المساء. صدرت عنه ندية كقطرة ماء.

جاوبه الصمت... الذي استحال منذ وقت إلى كائن قابل للتحاور.

«سعيد أن أراك بخير...»

هز رأسه وكأنه يتلقى جواباً لا يسمعه غيره.

«نعم... أنا بخير... كما ترينني... وإن كان من شيء يقلقني فهو أنت»... وعاد يهز رأسه من جديد «وأنا أيضاً... أشتاق إليك... أشتاق إلى دارنا، وحجرتنا، وإلى تلك الغسالة المعطوبة... هل تصدقين ما يقولون عنها»؟ وأطلق ضحكة خفيفة «لا عليك من منظري، فأنا بخير... غير أني قلق عليك. أخبريني بشأن العملية، كيف كانت، وهل آلمك غيابي»؟ لم يهز رأسه هذه المرة وكأنه لا يسمع شيئاً. أصاخ السمع أكثر وهو يميل برأسه ويدفع بقوقعة أذنه تجاه الشيء الذي يحادثه... «أتراك غاضبة مني...؟ أعرف أن غيابي

آلمك، لكن، ما باليد حيلة وقد أصروا على استضافتي هنا، في هذه الغرفة الجميلة... ألا ترينها جميلة»؟ لست أسمعك...» وعاد يصيخ السمع «... مهلاً... أين تذهبين...»؟ وبدا كمعتوه يمسك في الفراغ طيفاً يغادره «لا ترحلي... ابقي معي... لا ترحلي... أرجوك لا تفعلي...» وقبل أن يتم استجداءاته الطفولية، وجد نفسه وقد التصق بحائط السجن أسفل النافذة المرتفعة، وشرع ينتحب. تمازج جسده مع لون الحائط القاتم وقسوته. ثم انهار متكوّماً على الأرض كقطعة قماش.

لا يعرف كم بقي على تلك الحال، لكنه عندما فتح عينيه وجد شعاع ضوء يأتي من النافذة العلوية. لم تكن آثار دمع على وجنتيه، وما كان بصدره من ألم قد حل اليأس المطلق مكانه. نهض واقفا بقامة أقصر مما كانت عليه البارحة، بسيماء هادئة كمن فرغ من صلاة استجدى الله كثيراً كي يخلصه من آلامه فيها. وكأن صلاته قد استجيبت، فأزاحت الستار عن أشياء عميت عليه.

في تلك اللحظة، أدرك مغزى رؤيته السابقة لزوجته في ثياب لم يرها عليها من قبل، وعقد لم يشتره، وأثاث ليس لهما.

في تلك اللحظة... أدرك انه لن يراها ثانية.

«هل فكرت في ما قلت لك...»؟ فتح عينيه على صوت المحقق الذي اقتحم زنزانته في هذا الوقت من اليوم الذي ما عاد يعرف ما هو «ما زال الباب مفتوحاً أمامك... هل تراه»؟ وأشار بيده إلى باب الزنزانة المشرع «بإمكانك أن تغادر هذا المكان القذر... إنه قذر أليس كذلك... حسن، بإمكانك أن تغادره وأنت تلبس ثياباً نظيفة وتصبح

مواطناً صالحاً إن قدمت لنا أسماء الذين طلبوا منك ما طلبوا».

«من هم... أولئك الذين طلبوا...»؟ سأل الزوج في صوت يفيض باليأس.

«لا تستطيع وحدك أن تهدداً وطناً... وسلاحك الخطير لا يمكن أن يكون دون شركاء... اسمعني جيداً أيها الرجل... قد تكون مواطناً صالحاً، أنا واثق من ذلك. وحتى تكون عند موضع ثقتي، وأستطيع مساعدتك، كل ما عليك فعله أن تخبرني من هم»؟

صمت الزوج مطرقاً رأسه و لم يجب، واكتفى بتمتمات هامسة.

«ماذا تقول...؟ لا أسمعك».

مضى الزوج في تمتماته دون أن يرفع رأسه.

«هكذا إذاً...» قال المحقق وأدار ظهره منصرفاً.

« لم تخبروني أين هي» قال الزوج بصوت واهن.

التفت إليه المحقق واقترب منه «نحن نخبرك أم أنت من يخبرنا»؟

«أخبرتكم... بما أعلم... لكنكم لم تخبروني أين هي».

وقف المحقق ينظر صامتا إلى النصف إنسان أمامه. «إن المرأة معركة كبيرة» قالها وانصرف.

تردّد صوت إغلاق الباب الحديدي في رأس الزوج وهو ينهض بهدوء وقد تحرّك شيء في رأسه. هل يهدّدونه بها؟ حدّث نفسه وهو يغوص إلى متاهة سحيقة. هل قصد أن المرأة، اي امرأة، هي معركة، أم أن عودة زوجته إليه تتطلب معركة، أم هي قضت في معركة؟

فكر أن يصرخ طالباً من المحقق أن يعود، لكنه كان أضعف من أن يفعل حتى الصراخ وحده. أحس برأسه يدور وساقاه الضعيفتان لا

تقويان على حمل جسد امتص السجن قوته.

«إنهم يعرفون أسرار الكلاب الهائمة في الوطن... لكن... ما هي المعركة»؟ تمتم وهو يتهالك فوق سريره.

أطلقت عبارة المحقق كلباً ينهش في داخله الممزق. وقرر، بما بقي له من طاقة ضئيلة، أن يخوض المعركة الأخيرة، التي قد تكون بالنسبة له انتحاراً كاملاً.

* * *

«أصغ لي جيداً أيها المحقق...» قال عضو الأمن في حوار لا يسمعه غيرهما «تحت يديك مجرم خطير. وإن كانت مصادرك قد قادتك إلى تبرئة ساحته من تهمة عدم المشاركة في العزاء، والمجاهرة بكلمة «لا»، فإني أتساءل إن كنت ستستطيع تبرئته من تهمة السلاح الخطير الذي وجدناه لديه».

«أيها العضو الموقر...» قال المحقق وهو يقف منتصباً كلوح خشبي «نحن نبحث في أمر السلاح، وسنوافيك...»

«توافيني بماذا أيها المحقق»؟ قاطعه عضو الأمن في صوت غاضب «إن عدم مشاركته في العزاء وحدها جريمة بالنسبة لي مهما كان عذره... ومجاهرته ب«لا» جريمة أخرى تدفعه إلى السجن عشر سنين على الأقل... ثم تلك العبارات التي كان يقولها ضد محفلنا التي سمعها الحائط أكثر من مرة والتي تكفل له هي الأخرى عشر سنين إضافية حيث هو الآن. يأتي فوق كل ذلك، وهو الأهم الذي لا تستطيع أن تراه عيناك بجلاء كما أراه أيها المحقق، تلك القطع

الخطيرة التي وجدتموها مع الخريطة السرية في منزله...» صمت عضو الأمن قليلاً ثم قال بصوت أكثر هدوءاً «إن الذي تحت يديك هو ببساطة من كنا نبحث عنه. إنه هو وراء ما يحدث في الشارع. هذا ما أريدك أن تخبرني به في المرة القادمة»؟

نهض العضو من مكتبه «لن أنتظر ما يقوله خبراؤك عن تلك القطع السرية التي وجدتموها في دار المتهم، فأنا أعلم يقيناً أنها السلاح الذي نبحث عنه ولو قالوا إنها لعب أطفال بلاستيكية. الشيء الوحيد الذي يستحق أن أنتظره منك الآن... هو اعتراف كامل للمتهم بكل ما يحوكه ضد الوطن».

وقبل أن ينصرف المحقق قال عضو الأمن في جفاف «من ناحيتي أنا، فهو مجرم قد صدر الحكم بإدانته».

* * *

لم تهدأ أحداث الشارع متحدية بشكل صارخ إرادة المحفل. حتى جهاز الزعيم ذو الاربعة عشر مفتاحاً، لم يحدث أثره رغم اجتهاده المضني في السيطرة على الحس الوطني الآخذ في التصاعد. وبقدر ما كان أنصار المحفل يكثرون، معهم صاحب الطربوش الأحمر، كان الحس الوطني يتمدّد ضاماً تحت جناحيه أعداداً متزايدة لا يقود حراكها أحد. إلا أن المحفل كان شديد الايمان، بأن اللا أحد إن هو إلا الرجل الذي يضع يديه عليه الآن.

«نعم... هو أنا من يقود الشارع».

«أنت تعمل مع قوى خارجية إذاً»؟

«نعم... أعمل مع قوى خارجية».

«وتريدون أن تنشروا الفوضى»؟

«نعم... نريد أن ننشر الفوضى».

«وتريدون من وراء تلك الفوضى أن تفرضوا سيطرتكم على الشارع»؟

«نعم... نريد أن نفرض سيطرتنا على الشارع».

توقف المحقق عن الأسئلة لحظة، وهو ينظر إلى سجينه مستغرباً اعترافاته الصريحة التي يردّدها كرجل آلي. قدم له المحقق كأس ماء وهو يرمقه بقسمات غابت حدتها.

«أيها المواطن... هل تعي ما تقول»؟

«نعم... أعي ما أقول».

«أنت تدين نفسك...»؟

«نعم... أعي ما أقول».

تداخل الشك باليقين في نفس المحقق. ورغم أن واجبه ينحصر في الحصول على اعتراف، أي اعتراف، إلا أنه كما يبدو، أصابه شيء من الحس الوطني الذي يكبر في الشارع مع شيء من حس إنساني أمام رجل يائس. لكنه لم يجد بداً من إكمال ما بدأه ولو بنبرة أمنية متصنعة.

«مع من تتواصل في الخارج»؟

«مع الجميع».

لم يسأل المحقق من يكون هذا الجميع، أو حتى اسم أحدهم، لثقته بأن لا أحد هناك.

«وكيف تتواصل معهم»؟

«عبر الراديو... التلفزيون... الانترنت... وأحياناً بالهاتف».

أمسك المحقق بذقن الزوج المستسلم في معركته، ورفع رأسه إليه «هل تعرف أين أنت الآن»؟

«أنا في سجن».

«سأسألك ثانية... هل تدرك ما تقول»؟

«نعم... أدرك ما أقول» أجاب الزوج في نبرة واثقة وأضاف «... إنها معركة».

«معركة مع من»؟

«معركتي الأخيرة...».

«معركتك الأخيرة مع من... ومن أجل من»؟

«من أجلي أنا... ومن أجلها هي».

أطبق المحقق راحتي يده على وجهه وقد داخله شك في قوى سجينه العقلية «... أعلم أنك تمر بظرف استثنائي، ولن أسجل كلمة مما قلت. لكني أقولها لمرة أخيرة، أن كل ما ستقوله بعد الآن سآخذه على محمل الجد، وسيكون دليلاً لإدانتك».

«اسمعني أنت أيها المحقق» قال الزوج وهو ينظر في عيني محدثه وقد أحس أنه هو من يخترق جمجمته هذه المرة «لست معنياً بشيء مما يدور في هذا العالم بعد الآن. ولا يهمّني من تكون أنت، ولا المحفل، ولا الوطن كله. لقد قلت لي إن المرأة معركة. وأنا اقول لك إن الوطن كله معركة. لأستعيد زوجتي يجب أن أحارب. لكن أحارب من وقد رحلت»؟

«وما أدراك انها قد رحلت»؟

«إنها حربها... وحربي أنا. لقد أدخلتموني حرباً لا علاقة لي بها. وخسرت دون إرادة مني. فمن ستحارب أنت»؟

«سأحارب من يتظاهرون ضد الوطن، من يدّعون الحس الوطني الذي يكبر في الشارع»؟

«كنت أعتقد أن غياب الحس الوطني هو ما يقلق الوطن، لا حضوره».

«هل الحس الوطني هو معركتك إذاً»؟

«سجّل أيها المحقق اعترافي بخيانتي لوطني لأني بدأت أكره هذا الوطن».

«ألهذا تريد أن تدمّره إذاً»؟ عاد المحقق يسأل في جدية.

«كثيرون يستحقون أن يدمّروا... لأنهم خلقوا كي يدمّروا حياة غيرهم» صمت الزوج قليلاً قبل أن يضيف في ابتسامة مستسلمة «أنت، ومدير المستشفى، وكل أولئك الذين حضروا عزاء الزعيم».

«أنت تهذي ولا شك...».

«إنها معركتي الأخيرة».

«تعترف إذاً بالتهم الموجهة إليك؟ وتذكر قبل أن تجيبني أني سأسجل ما تقول ولو كان هذياناً».

«لعل الوطن في حاجة إلى معركة»؟

اضطربت الافكار في رأس المحقق ومن جديد تبدّلت لهجته القاسية. شيء كان يعمل في رأسه، لكن وجب عليه أن ينتهي من الأمر وإلا أصبح السجان سجيناً.

«ما تلك القطع التي وجدناها في منزلك...»؟

نظر إليه الزوج مبتسماً بهدوء «... إنها مكوّنات قنبلة».
«أليست هي قطع غسالة معطوبة»؟
«ألم تخبرني أنت أيها المحقق بأن خبرائكم قالوا إنها قنبلة؟ يا لغبائي العظيم... كان عليّ إخفاء تلك الخارطة... وإخفاء تلك القطع التي تشبه باب الغسالة الزجاجي».
«ألم تقل لي إنها غسالة معطوبة»؟ كرّر المحقق سؤاله وكأنه يستجدي جواباً آخر يريح ضميره الذي بدا أكثر إنسانية من ذي قبل.
«بل سلاح خطير».
تبادل المحقق نظرات مشككة مع الزوج، ثم سأل «كيف تتعامل مع تقنية كهذه بلا معرفة أو علم»؟
«بالممارسة».
«وهل مارست تركيب الأسلحة من قبل»؟
أخذ الزوج يعدّد على أصابع يده «مرة في عيد استقلال الوطن، وأخرى في ذكرى ميلاد الزعيم، ومناسبة ثالثة لا أذكرها».
«حسن، وفيم استخدمت تلك الأسلحة»؟
«ألعاب نارية... تزيّن سماء الوطن».
لزم المحقق الصمت. ليس ما يعمله سوى توثيق ما قال السجين حرفياً، وإن كان قد تم توثيق كل شيء حتى قبل أن يحقق معه. كان لا بد من كبش فداء يجز على مذبح المحفل.
«أعرف مصيري أيها المحقق... فهلا أخبرتني... ما كان مصيرها»؟ سأل الزوج.
نهض المحقق بهدوء وسار إلى الباب، شاعراً بهزيمته أكثر من

انتصاره. نظر إلى الزوج قبل أن يغلق الباب من وراءه وقال «إن رأسك الفارغ قد أصبح بغبائه غالي الثمن».

* * *

من الشجرة الهزيلة التي تتوسّط ميدان المدينة، سار موكب غاضب تجاه منزل المواطن، بعدما نشرت اعترافاته على أنه المحرّض لكل دعوات التظاهر والتحضير لاستخدام سلاح خطير.

كانت وسائل الإعلام، وصندوق الزعيم الذي يشبه راديو قديماً بأربعة عشر مفتاحاً، وأحاديث النسوان، والأطفال، والسكارى، قد انطلقت دفعة واحدة، وكأنها جوقة تسير على نوتة عسكرية شديدة الانضباط، تبث البشرى للمواطنين، بأن الوطن بات آمناً، وأن المجرم في قبضة العدالة. وبتفصيل شديد جداً، وممل جداً، نشرت كل الاعترافات التي خرج بها التحقيق وكأنها دستور يعرض لاستفتاء وطني.

سار الحشد الغاضب مدفوعاً بحماسة ما سمع وما قرأ وما أشيع، باتجاه الحيّ المتواضع الذي كان الزوج يسكنه، يقوده رجل يلبس طربوشاً أحمر، يحمل صورة للزعيم، ويهتف بأعضاء المحفل، ومن ورائه أربعة آلاف صوت يردّدون الشيء ذاته. فور أن اجتاز الحشد الحدود الأولى للحيّ، ازداد العدد بألف صوت آخر. توقفوا جميعاً أمام دار لطخت واجهتها بما يشبه دموع رجل يبكي. تبادل الحشد هتافات تنادي بإعدام الخائن، قبل أن يقتحموا المنزل الذي لا باب له، ويحطموا كل ما فيه دون أن يفكر أحدهم ولو للحظة واحدة من الذي سكن المنزل.

بعض الجيران أدّوا دورهم بإتقان وهم يلقون بالحجارة على نوافذ المنزل من الأسفل، ويشعلون النار في بعض الأثاث الذي قذف إلى الخارج، لاعنين بصوت صادح الرجل الذي عاش بينهم طوال حياته وكأنه جرثومة معدية.

«كل حركاته مثيرة للريبة، وقد قلت ذلك لزوجتي مراراً دون أن تصدقني...» قال أحد الجيران في حديث تلفزيوني.

«لا أعرف كيف لم أنتبه إلى عبقريته الإجرامية، فكثيراً ما أصلح لي جهاز التلفزيون دون أن يلمسه...» قال آخر.

«لا تنسوا زوجته، فقد رأيتها ذات مرة، بأم عيني، وهي تخفي تحت ثيابها أسلاكاً شائكة وتحمل كيساً تحسب ما فيه خياراً وهو أصابع ديناميت».

تفاعلت هتافات المحتجين مع شهادات الجيران والنيران المشتعلة في الأثاث كمتلازمات أبدية، فتحوّل كل ما في الحيّ إلى هستيريا متوحشة إن كانت تشبه شيئاً فرقصة آكلي لحوم البشر.

«إنه رجل نقي، وزوجته المريضة نقية مثله، وما يقال عنهما غير صحيح...». قال أحد الجيران بصوت مرتفع دون أن يسمعه أحد. عندما كرّر عبارته ثانية أسقطت قبضة غاضبة ثلاث أسنان صفراء إلى الأرض.

وكما هي ثورة الكبار، فقد كان للأطفال نصيبهم، إذ تسابقوا على جمع بعض الأثاث الذي لم تطله النار. كان من نصيب أحدهم جهاز التحكم عن بعد لتلفزيون قديم، فيما عبث طفل آخر بأوراق متراصّة بجوار بعضها قبل أن يلقيها في الهواء. كان من بينها صورة

الزوجة وتحاليل طبية وبطاقة تحديد موعد عملية.

وكما دخل الموكب الغاضب كجيش تزفه هتافات تندّد بالخونة، وتتغنى بالوطن والمحفل، غادر تزفه أهازيج الانتصار على عدو الوطن الخطير الذي لم يكن يدور بخلد أحد أنه يسكن في هذا المنزل المتواضع.

تواصلت المسيرة تجوب شوارع أخرى قريبة، ثم بعيدة، متجاوزة المحفل، ومركز الأمن، وحتى المستشفى الكبير في أطراف المدينة بالقرب من الحيّ الراقي. كان الموكب يأخذ نفس المسار الذي سلكه الزوج يوم اتجه بزوجته إلى المستشفى ذاك الصباح. وكأنما رحلته تلك كانت الخط الفاصل بين تاريخين للوطن.

غنّى الشارع والمحفل والزعيم بانتصاراتهم، مدعومين بكل وسائط إعلامية محلية ودولية، وابتهالات التجار، والنخبة، والجهاز ذي الأربعة عشر مفتاحاً.

تفاعل أغلب الشارع مع الطربوش الأحمر، والهتافات التي تتردد، باستثناء تجمعات معارضة كانت أقل عدداً، تندّد بالمحفل، وتحمل شعارات ضد الزعيم، دون أن تأتي على ذكر الزوج الذي ألقي به في زنزانة تليق باعترافاته الخطيرة.

في مكانه الضيق والبعيد ذاك، لم تكن أذنا الزوج تسمعان سوى ترانيم صلاته. باتت هي كل ما بقي له منذ أن ألقي به في هذا المكان منذ أيام لا يعرف عددها. لكنّه قدّر من ذقنه التي كستها لحية معتبرة، أن له هنا عشرة أيام أو أكثر.

لم يعد يفكر بشيء أكثر من نهاية لا تكون مؤلمة. لقد استسلم لقدره ومصيره. وفي أسمى صور التناقض، كان يريح فكره بتخيّل

زوجته ترفل في ثياب بيضاء وهو يقف بجوارها، دون أن يفكر للحظة، أو حتى يتمنّى، أنها ما تزال على قيد الحياة. لقد أدرك أن سعادته وسعادتها هي أيضاً لن تكون في هذه الزنزانة، ولا خارجها، بل ولن تكون في هذا الوطن ولا هذه الحياة. وقد قطع شكه باليقين عندما اعترف بما لم يرتكبه رغبة في الخلاص من آلامه ملتحقاً بزوجته إن كانت في الأعلى هناك، أو أن يسبقها إن لم تصل بعد.

في لحظات يأسه الحالكة، تمنى لو كان يملك الجرأة لينتحر. ولو توفرت له الأداة المناسبة، لربما أعاد النظر في مسألة الجرأة تلك. يقين لازمه، في قبضة صدره تلك، أن الوطن الذي أحبه يوماً، ودافعت زوجته عن رجالاته كل يوم، قد بات موتاه يرثون أحياءه.

ذاك المساء، فتحت نافذة صغيرة في باب الزنزانة مرتين أو ثلاثاً. أطل منها سجان له ملامح تخفي وراء قسوتها شيئاً من براءة. لم يشغله ذلك عن ثمالة يأسه وكأنه سيساق إلى حتفه بعد لحظات. لقد استطاع السجّان، حسبما روى البعض لاحقاً، أن يرى من تلك النافذة أشياء تشبه العصافير تحوم حول رأس سجينه. ومع أن تلك الشهادة كانت هذراً، إلا أنها كانت تنسجم مع حال الزوج الذي بلا وعي وجد نفسه يلبس قميص الحلاج منتظراً لحظته.

«اقتلوني يا ثقاتي... إن في قتلي حياتي، ومماتي في حياتي... وحياتي في مماتي».

* * *

«ليكن موعده في الغد إذاً»...

«نعم ليكن الغد موعده»...

«الغد لا بعده»...

هتف أعضاء المحفل يباركون قرار الإعدام وكأنهم يؤدّون قسم الولاء للمرة الألف.

«أرى أن نرجئ الأمر قليلاً... ليكن أسبوعاً أو اثنين» قالت عضوة المحفل وقد أخذت مكانها وقوفاً إلى يمين الزعيم الذي انتصب في شموخ القائد المنتصر أبداً تحت قبة المحفل المهيبة.

«وهل سيغيّر الأسبوع شيئاً»؟ سألها عضو الأمن الذي أخذ مكانه إلى يسار الزعيم.

«ربما... ولعل هناك من يشاركني الرأي هنا...» نظرت حولها فكانت إيماءة من العضو نحيل الجسم هي كل ما رأته من تأييد.

«هل هناك أيضاً من يتفق مع العضوة المحترمة»؟ سأل الزعيم.

وقف نحيل الجسم قرب عضوة المحفل يساند موقفها.

«لن يكون ذلك في مصلحتنا» قال عضو الأمن مخاطباً الزعيم.

«أو افقك الرأي، فما يقول الأعضاء الموقرون»؟

«نحن مع ما تراه أيها الزعيم»؟ أجابه أحدهم، ثم ثانٍ فثالث.

«هو رأي الجميع إذاً»؟ سأل الزعيم في خيلاء حاثاً من بقي صامتاً على المشاركة.

«نعم...»

«بالتأكيد نعم».

«نعم ولا شك أيها الزعيم».

وقبل أن يكتمل نعم الأعضاء رفع الزعيم يده كمن يؤدي قسماً

«ليكن التنفيذ غداً».

«عاش الزعيم... الموت للخائن»

«عاش الزعيم... »

«عاش الزعيم...»

«أيها الزعيم...» قال العضو النحيل الجسم بصوت وقور « لم أكن لأخالفكم الرأي يوماً، ولست أخالفكم الرأي الآن، لكنكم أغفلتم نقطة هامة... هامة جداً تفرض علينا التأجيل».

صمت المحفل منصتاً لما يكون قد أغفله بشأن خائن الوطن، واتسعت حدقتا الزعيم وهو يسأل نحيل الجسم مستنكراً «وما الذي أغفلناه»؟

«قد اعترف المتهم بذنبه...»

«نعم... قد اعترف».

«لكننا علمنا أن ذاك السلاح ما هو سوى قطع غسالة معطوبة».

«لقد اعترف المتهم بذنبه، وكشف عن نيّته مهما كان السلاح الذي معه، قنبلة أو غسالة معطوبة» قال عضو الأمن راغباً بشدة في صمت نحيل الجسم، إلا أن الأخير وجد في مداخلة عضو الأمن ورقة لمصلحته عندما قال موجهاً حديثه إلى الزعيم «إن كان المتهم قد اعترف بذنبه كما يقول العضو المبجّل، وإن كان ما وجدناه ليس سوى غسالة معطوبة كما قال خبراؤكم، فأين هو السلاح الحقيقي الذي اعترف بأنه صنعه»؟

صمت الجميع وقد تسمّرت عيونهم على نحيل الجسم.

«ما الذي تريد قوله أيها العضو الموقر»؟ سأل الزعيم.

«إما أن المتهم بريء، وهذا يخالف اعترافه بذنبه الذي قد يكون

أتى قسراً، أو هو مذنب لم يكشف كل ما لديه».

«هل تقول إن الرجل... قد يكون...» وقبل أن يكمل الزعيم قال نحيل الجسم «إن لم يكن هناك سلاح، فإن إعدام الرجل سيكون خطأ عظيماً، وإن كان هناك سلاح بالفعل، فإن إعدام صاحبه سيفقدنا الطريق إلى معرفة مكان هذا السلاح، فلا نعلم أين اختفى، ولا متى تصيبنا ناره».

* * *

«لقد كنت جباناً...»

«من الذي يتحدث»؟

«لقد كنت جباناً...»

«من أنت...»؟

«أنا هو أنت...»

«أنا لست جباناً...»

«لقد استسلمت».

«أقاتل من أجل من»؟

«من أجلك مستقبلك».

«بعد كل ما فعلوا بي...»؟

«في حياتنا أشياء ما كان لنا أن نحيا بدونها، ولا أن نستمر دون نسيانها».

* * *

باستثناء بضعة أسماء، ما كان أحد في الوطن يملك تفسيراً لهذا

الصمت الذي أطبق فجأة على كل شيء.

المحفل صامت وكأن الأعضاء قد تيبست شفاههم. جهاز الزعيم ذو الأربعة عشر مفتاحاً ينتظر. الوطن ينتظر. المؤيدون والمعارضون ينظر بعضهم لبعض لا يعرفون أي شعار يرفعون، وباسم من يهتفون أو يشتمون، وكلهم ينتظر. مذيعو الأخبار وضعوا رؤوسهم على راحة أيديهم ينتظرون.

وسط هذا الصمت، شق صليل باب الزنزانة فضاءها الموحش. دخل ثلاثة رجال لم يكن المحقق من بينهم. كان الزوج مستلقياً على ظهره شارداً في سقفها.

اقترب من سريره أحدهم، وفي هدوء، أرخى إحدى ركبتيه على الأرض، وأسند يديه على ركبته الأخرى وقال «مساء الخير أيها المواطن المحترم».

نظر إليه الزوج دون أن يقوم من سريره. ثم عاد ينظر إلى السقف متجاهلاً من حضر، وقد هيّئ له أن من يخاطبه خيال لا وجود له.

«هلاّ تكرّمت بمرافقتي»؟

حاول الزوج في تأمله السقفي أن يحلل ما إذا كان الصوت الذي يسمعه هو لرجل حقيقي يخاطبه باحترام لا يليق بالمكان، أم هي خيالات سجن انفرادي.

أدار ظهره للحائط وأغمض عينيه.

«سيدي...» قال الرجل الجالس على ركبته في هدوء ثم كرر ثانية وهو يضع يده عليه برفق «هلا تكرّمت بمرافقتي»؟

عضو جديد

وكأنه في حلم، يلف جسده رداء قطني فاخر، وصالون يمتد في كبرياء أمامه، أخذ الزوج الذي أصبح نحيلاً كعود قصب معصور يتأمّل المكان الكريستالي الفخم الذي يشع ثراءً من كل قطعة فيه.

«هكذا هو الموت إذاً»؟ سأل نفسه. إن لم يكن يحلم، فهو ميت ولا شك. ومع حياته المسالمة، وما لاقاه من ظلم، فلا بد أن السماء قد أسكنته جنّتها بعد أن مات في زنزانته، فأي شيء بعد زنزانة الوطن سوى الموت؟

لو كان الموت قد زاره، وهذه هي الجنة، فهل تكون زوجته هنا، معه؟

كانت الأفكار تحاور ذاتها في رأسه وهو ينظر إلى الصالون الفاخر المطعّم أثاثه بذهب وفضة.

أحس برهبة المكان، وتمتم في خوف اسم زوجته. بقي واجماً مكانه خائفاً أن يدير ظهره فيرى صورة أخرى غير تلك التي أمام عينيه.

لم يجبره على الالتفات سوى صوت الباب يفتح. أطبق بردائه القطني خائفاً على صدره وهو يعود إلى الوراء حتى كاد يتعثر بمقعد كلاسيكي الطراز. نظر إلى الباب وهو يرتعد. إن لم تكن زوجته من

ستدخل عليه الآن، فهو ما يزال على الأرض. وإن كان على الأرض، فهل فيها ما يشبه المكان الذي هو فيه؟ ثم من قال إنه يريد أن يكون على الأرض ولو كانت الجنة كلها قد بنيت عليها؟

«صباح الخير» قال رجل له طلة وقورة يقف أمامه باحترام لا تكلف فيه. كان يلبس ما يحاكي النبلاء في ثرائه. لم يدرك الزوج أن الذي أمامه هو عضو المحفل نحيل الجسم.

«أتمنى أن تكون قد ارتحت قليلاً» أضاف الرجل وهو يخطو باتجاه الزوج المذهول.

«من أنت... وما هذا المكان»؟

«لقد مررت بأوقات عصيبة ولا شك... وما عليك الآن سوى أن ترتاح وتعلم أن كل ما مضى قد مات».

«من الذي مات... ومن أنت»؟

«لماذا أنت مرتبك وخائف»؟ قال الرجل وهو يمسك بذراعه بلطف ويأخذه إلى أريكة قريبة ويجلس بجواره «كل ما مر بك من أوقات عصيبة قد انتهى فلا تفكر به».

«... هل زوجتي هنا»؟ سأل الزوج وقد سكنت أطرافه رعشة كأنما هو محرّك سيارته القديمة.

«هدّئ من روعك».

«هل هي هنا»؟

«هدّئ من روعك، ودعني أخبرك أنه بعد كل ما مر بك...» تحدّث نحيل الجسم متجاهلاً سؤال الزوج «فقد قرر الوطن أن يعوضك عن تلك الأيام التي قضيتها في السجن بسبب تقدير خاطئ... يا لهم

من قساة» قال وهو ينظر برثاء إلى الزوج المبعثر أمامه «بل يا لهم من أغبياء كيف يخلطون بين مواطن صالح كما هو أنت وبين أولئك الذين يسيئون للوطن».

«أنا... لم أفعل شيئاً... يسيء للو...»

«أعلم ذلك... أعلم ذلك» قال العضو مقاطعاً «كل الوطن اليوم يعلم ذلك. ومن أجل هذا أنت هنا. في هذا الجناح الفاخر من الفندق الخاص بأبطال الوطن».

«أبطاله...»؟

«نعم... أبطاله وأنت أحدهم».

«هل... تهزأ بي أيها السيد المحترم»؟

«وكيف أهزأ برجل له من التقدير ما لديك»؟

«هل أنا أحلم»؟

«لنقل إن كابوساً قد مر بك».

«السجن، الزنزانة، والمحقق...»؟

«فكر في هذا المكان الذي تعيش فيه الآن، وهذا الثراء الذي يحيط بك».

«و... وزوجتي...» قال الزوج خائفاً متردداً «كابوس هي الأخرى»؟

بعد لحظة صمت وتنهيدة عميقة قال الرجل الوقور «لنقل إنها كانت بطلة».

«كانت... ماذا تقصد بكانت؟ وأين هي الآن»؟

«للأبطال أقدارهم...»

«هل ماتت...»؟ تمتم الزوج في انكسار «قتلوها إذاً...» وتحوّلت التمتمة إلى صراخ فيما نحيل الجسم ينظر صامتاً إليه قبل أن يجيب « لم يقتلها أحد».

«أين هي إذاً»؟

«قلت لك أن تنظر إلى ما هو قادم لا ما قد مضى».

«وكيف أنسى من كانت جزءاً مني... ذاكرتي وتاريخي»؟

«كثيراً ما كانت الذكريات أجمل من واقعها».

«وهل سيكون القادم أجمل من واقع أنها لم تعد معي»؟

«إنه قادم جمي...»

قاطع الزوج نحيل الجسم «هل تعتقد أن مكاناً كهذا يعوّضني عن زوجتي...».

«تريّث... وسترى...» أجاب نحيل الجسم في ثقة.

«أنت لا تعرف ما يكون الحب. لا تعرف معنى أن تكون لك زوجة تجهل ما حل بها سوى أنها أصبحت بطلة».

بقي نحيل الجسم صامتاً تاركاً الفضاء الوثير من حولهما يمتص غضب الزوج.

«أنت لا تعلم شيئاً أيها السيد الأنيق... لا تعلم شيئاً» قال الزوج ونهض في غضب وقد زال عنه ارتباكه. سار إلى حيث وقف قبالة مرآة فخمة فوق مدفأة رخامية وأجهش ببكاء مرير.

تبعه نحيل الجسم، وضع يد عزاء على كتفه دون أن ينطق بكلمة. كانت تصرفات الرجل صادقة لا خبث فيها.

«إن كان في الانتقام عزاء لك، فدعني أخبرك بأننا اتخذنا

الإجراءات اللازمة لمعاقبة المتسبّبين بما وصلت إليه عائلتك الصغيرة».

بعد أن أفرغ الزوج جزءاً من دموع قديمة بالتزامن مع كلمة «عقاب» التي أحس بها برداً على صدره، التفت إلى ذي اللحية البيضاء الخفيفة وقال «وماذا تريدون مني الآن»؟

«أن تبقى مواطناً صالحاً... كما كنت».

نظر الزوج إلى عيني محدثه «ما الذي تريدون مني»؟ قال في صوت متحدٍّ دون اكتراث لأي شيء قد يأتي.

«قلت لك... أن تكون صالحاً كما كنت».

«... ومن أنتم... من أنت؟ دعني أنظر إليك عن قرب أكثر. إن وجهك يبدو مألوفاً لديّ... نعم، نعم، تذكرت. أنت في المحفل... أنت عضو في المحفل أليس كذلك؟ بلى. أتذكر هذا الوجه جيداً».

«نعم... أنا هو من تظنّه أكون. وها قد أتيت إليك كمواطن لا يريد منك سوى أن تكون عوناً للوطن بما عُرف عن صلاحك وغيرتك عليه».

«عوناً... للوطن...؟ وما الذي لديّ لأقدّمه للوطن»؟

«أن تحارب أعداءه».

«ومن يكون أعداؤه»؟

«إنهم...»

«قل لي إنهم أولئك الذين يتظاهرون ويحملون الشعارات...»

قال الزوج مقاطعاً ثم أضاف في ثقة «لقد سلبتم إنسانيتي. لم يبق لي شيء أنتظره سوى الموت».

«ليس الأمر كما تعتقد» أجاب نحيل الجسم وأضاف «إن رؤيتك

البريئة للأمور تؤكد لي وطنيتك الصادقة. لا تفكر بالموت، بل بالحياة الجميلة التي تنتظرك. أما أعداء الوطن، فذاك حديث يأتي لاحقاً».

«أعداء الوطن مرة أخرى... لقد مللت هذه العبارة أيها السيد... لقد كانت هي سجني وسجاني. أنا لست عدواً للوطن. عندما يحب الوطن أبناءه لا يظلمهم، ولا هم أيضاً يظلمونه».

«ليس مثلك من يخون... والآن اسمعني قليلاً. سيكون لك منزل جميل، ووظيفة محترمة تليق بوطنيتك، وزوجة جميلة أيضاً. وفوق كل ذلك، ستكون لك السلطة التي تريد لتوظفها في خدمة هذا الوطن الذي تحب».

«من أجل ماذا»؟

«ما الذي تقصده»؟

«من أجل ماذا كل ذلك»؟

«لقد أخبرتك... والآن، أريد منك أن تستريح في جناحك الفاخر هذا، وأن تفكر كيف ستكون المواطن الصالح الذي يفيد وطنه».

وقبل أن يغادر الرجل النحيل استوقفه الزوج «لا أريد هذا المكان، ولست أبحث عن سلطة أو زوجة، أريد فقط أن أعود لحياتي الأولى كما كنت. لا أريد أن أكون هنا. هناك الأمان أكثر. أرجوك... هذا كل ما أريد».

«لكن الوطن يريد منك ما هو أكثر».

وضع الرجل يده في رفق على كتفه، وانصرف.

عاد الزوج ينظر إلى المرآة حيث ما تزال آثار احمرار على عينيه. أطرق رأسه يفكر في الأمر، وفي هذا التسارع العجيب للأحداث من

حوله. بالأمس مذنب، اليوم مواطن صالح. بالأمس في زنزانة عطنة، واليوم في جناح ملكي في فندق ما كان ليجرؤ على تناول قدح من الشاي في بهوه. في غمره تفكيره جاءه سؤال عن تلك الأصوات التي كانت في الشارع قبل أن يختفي في زنزانته: هل ما تزال هناك؟ هرول إلى النافذة الكبيرة المندسّة وراء ستائر فاخرة وشرعها. وجدها تطل على حديقة تعلو أشجارها قمة الفندق فلا ترى القريب الذي وراءها. في الأفق، الذي اكتسى بشفق مغيب ملتهب، وبين الأغصان المتراقصة، تراءت له مدينته هادئة مع أصوات سيارات بعيدة وبضعة عصافير. تأمل الأفق متراثياً له أن مدينته، رغم هدوئها، هي مصدر الشفق الناري، واجتاحته صورة نبوءة غامضة أن مدينته تحترق.

أدار التلفاز على القناة الوطنية. كانت الأمور تسير بشكل طبيعي. صور ولقاءات مع الشارع حيث كل شيء يسير كساعة سويسرية. تنقل على القنوات كلها، واستوقفته بعضها وهي تتحدث عن وطنه بأخبار تتمازج في لحن ثائر مع الأفق البعيد. فكر في ما أخبره به نحيل المحفل عن أعداء الوطن.

عبثاً حاول أن يربط بين الأحداث فعجز. لم يكن إخفاقه مستبعداً مع أمور تسير باتجاه لا يعرف هو من ولا كيف وجد نفسه فيها. لم يعد متهماً يخضع للتحقيق، والسلاح الخطير ما عاد له وجود، وعضو في المحفل يزوره في جناح ملكي يصفه بـ«البطل». للحظة تمنى لو كان ما يزال في زنزانته فوق سرير القرادات ذاك. للحظة أخرى تمنى لو كان يحلم. تمنّى أيّ مكان، إلا هذا الجناح الفاخر الذي لا ينتمي إليه.

أعياه التفكير وأحس بصداع يشق جمجمته. أطبق على صدغيه

وأخذ يجوب الصالون الضخم جيئة وذهاباً. اكتسحه الصداع محمّلاً بصور ما مر به من أحداث. لم تطالعه في سحابة تفكيره تلك صورة زوجته كما كان يراها في سجنه، بل صورة المحقق. تبسم ساخراً كيف تطالعه صورة زوجته في السجن، وفي جناح ملكي تطالعه صورة سجّانه «أي عبث هذا»؟ تمتم هازئاً ساخراً ناقماً وهو ينظر إلى السقف الذهبي بعينين زائغتين، ويطلق تنهيدة عميقة اهتزت لها كريستالات قبّة المحفل.

* * *

«أيها الأعضاء الأجلاء، إن الشارع الثائر لن يصمت من تلقاء نفسه» قال نحيل الجسم.

«إنهم لا يريدوننا. هذا ما يريدون. وقد تأكد ذلك باستمرار ثورتهم رغم قرارات الوطن الأخيرة. إنهم باختصار... لا يريدوننا»؟ قال صاحب الصلعة الوقورة.

«... ليس الأمر كما نتصوّر» أجاب نحيل الجسم.

«بل هو كذلك. ولو كان الأمر بيدهم، لما أبقوا على أحد منا».

«... لنقل أيها العضو الموقر إن الوصول إلى تسوية معهم فكرة قابلة للنقاش».

«تسوية؟ تسوية؟ مع هؤلاء الرعاع؟ أي تسوية تلك القادرة على امتصاص ثورة لا يعرف أصحابها ما يريدون من ورائها»؟

«من يحرّكهم يعرف على الأقل... وللحق أقول إنني قد أتفهم رأي بعضهم».

سرت الهمهمة المعتادة في قاعة المحفل، لكن نحيل الجسم مضى في حديثه «لقد وجدت أيها السادة، أننا لم نكن نبتعد كثيراً عن حل بسيط وسهل لكل هذه المعضلة».

هدأت همهمات الأعضاء وصمتوا كأطفال أمام معلمهم إلا من سؤال أحدهم «لا تقل لنا مرة أخرى أن نسمح لهم بأن يكونوا معنا».

«ربما... ولدينا الطريق الذي يحقق لهم ما يريدون وما نريد نحن في الوقت ذاته».

«لا تقل إنه المواطن الذي تحوّل في ليلة واحدة من مجرم إلى بطل».

«بلى هو» أجاب نحيل الجسم وهو ينظر إلى زعيمه يقف قرب صندوقه العجائبي مستمعاً باهتمام.

«بالنسبة لي، فهو ما يزال مجرماً، قوته في سلاحه الذي لا نعرف مكانه بعد» قال عضو الأمن.

«سأسأل عضو الأمن الموقر عن عيونه وآذانه أين هي من هذا السلاح إن كان يوجد بالفعل»؟

تنحنح عضو الأمن في حرج وهو يبحث عن جواب لسؤال نحيل الجسم الذي أصاب الصميم مباشرة «حسن... نحن في الواقع ما نزال نبحث... المسألة ليست بالبساطة التي كنا نظن أيها السادة».

«تبحثون إلى متى وعن ماذا تحديداً»؟

«عن السلاح الذي لم نجده بعد».

«لو سمح لي الأعضاء الموقرون بالقول، فلست أرى الرجل بهيئة مجرم يملك سلاحاً يهدّد به أحد. نعم، أؤيد العضو الموقر في أن المسألة ليست بالبساطة التي كنا نظنّها، لأنها أبسط من ذلك. هذا الرجل

لا يملك شيئاً يخيفنا به حتى الآن كما يبدو لي. لكني سأقول إنه ما يزال موضع شك إن كان ذلك يريحكم. لكن ما يريحني شخصياً هو قدرتنا على استقطابه في محفلنا هذا».

«مع احترامي لرأيك أيها العضو الموقر» قال عضو الأمن «فإن طيبة قلبك هي ما يدفعك لقول ذلك. إنه مجرم اعترف بذنبه. ولولا خوفنا من سلاحه المخفي، لكان في هذه اللحظة ميتاً، لا نزيل فندق فخم».

«حتى لو افترضنا صحة ما تقوله أيها الموقر، رغم أني لا أراه كذلك كما قلت للأعضاء المبجلين، الرأي عندي أن هذا المجرم، كما تصفه، قد يكون ورقتنا الرابحة من أجل تسوية مع الشارع تضمن عودة الهدوء إليه».

عادت الهمهمة تملأ فضاء المحفل قبل أن تسكتها ذراع الزعيم التي ارتفعت مفسحة المجال لنحيل الجسم يكمل قوله «أيها السادة، إن المواطن الذي يسكن جناح الفندق، وبافتراض أنه مجرم حقيقي، لن يكشف عن مكان سلاحه بالبساطة التي نتخيّلها ولو بقي في فندقه الفاخر مئة عام، إذ من سيضمن له النجاة إن كشف سره؟ فوق هذا هو إنسان له من النوازع ما لغيره. من أجل ذلك، وضماناً لسيطرتنا عليه وعلى أي سلاح مفترض لديه، علينا أن...» صمت قليلاً وهو يتأمل بريقاً يشع من عيون محدّثيهم «علينا أن نجعله معنا».

تطلب الأمر بضع لحظات ليدرك الأعضاء، ومعهم الزعيم، ما يقوله زميلهم المحفلي الأكثر تقديراً. «نعم أيها السادة... يجب أن يكون عضواً استثنائياً وجديداً في محفلنا هذا».

«أنت تهذي ولا شك» قال الزعيم.

«بل متعاطف معه» قال أحدهم صارخاً.

«نعم... إن طيبة قلبك أيها الموقر لا تريك حقيقة هؤلاء الرعاع في الشارع» قال ثالث.

«لعله لا يقصد ما قال... لعله لا يقصد...» قال رابع.

لم يحرّك العضو النحيل ساكناً، واكتفى بالنظر إلى الزعيم الذي كان يرمقه بنظرة استنكار.

دامت صيحات الرفض وقتاً استهلكت فيه جزءاً من زخرفة قاعة المحفل وزينتها، حتى إن بعض الطلاء الذهبي غادر القبة وخفت بريق الثريا العملاقة.

انتظر حتى عاد للقاعة هدوؤها، ثم واصل حديثه بنبرة الواثق «إن انضمام الرجل إلى محفلنا، لن يضمن سيطرتنا على ما لديه من سلاح فقط، هذا إن وجد حقاً، بل سيمتصّ غضبة الشارع المطالب بأن يكون شريكاً معنا في قرارات الوطن».

عادت الصيحات من جديد قبل أن يسأل عضو الأمن في حنق «كيف تتوقع أيها العضو المبجل أن يقبل الشارع برجل كان حتى البارحة خائناً ليمثل الوطن في هذا المحفل العظيم الذي يملك كل عضو فيه رصيداً من الولاء والإخلاص والوطنية، ليس منذ يوم ولا بضعة أيام أو سنين، بل من قرون طويلة»؟

«... سؤال جيد... هيا أخبرنا كيف»؟ قال صلعة المحفل المهيبة.

«ستجعلنا أضحوكة الشارع» قال كرش المحفل المحترمة.

«هنا يأتي دور الزعيم وجهازه العجائبي» قال نحيل الجسم «ومع الزعيم يجب أن نعمل كلنا كي نقنع الشارع، بأن الرجل الذي

حسبناه خائناً، والذي طالب الشعب بإعدامه، إن هو إلا وطني شريف. وأنه هو من أوقع بالإرهابيين الذين كانوا يريدون تدمير وطننا، وأن السلاح الذي وجد لديه، هو ما استطاع أن يحصل عليه من أيدي الخونة بعد أن ادّعى أنه منهم حتى يكسب ثقتهم ثم يطيحهم بالتعاون مع أجهزتنا الأمنية التي لا تنام».

«وهل تعتقد أن الشارع سيقتنع بقصة كتلك»؟ سأل عضو الأمن ساخراً.

«إن استطاع الشارع أن يقتنع بكل ما نقول طوال عقود من الزمن ألا يستطيع أن يقتنع الآن بأننا نريد لأحدهم أن يكون عضواً مثلنا يمثلهم في المحفل؟ إن الشارع يا عضو الأمن الموقر»... قال نحيل الجسم وهو يوجه كلامه إلى الزعيم «إن الشارع يبحث عن انتصار، وها نحن نحقق له انتصاره بالسيطرة على السلاح الخطير، والإيقاع بالإرهابيين، والأهم بقبولنا لرجل منهم ليكون عضواً مثلنا في سابقة لم تتحقق من قبل. إن شعبنا يريد سابقة يرى فيها المحفل أكثر حداثة وتواصلاً معه، ونحن إن قبلنا بعضوية هذا المواطن في محفلنا الموقر هذا، نكون قد حققنا أهم ما يطلبه هؤلاء منا، وقدّمنا دليلاً على التزامنا بمكافآة الوطني بما يليق بوطنيته».

لم يوثق أحد أن أصوات استنكار قد انطلقت بعدما ختم نحيل الجسم حديثه. مجرد همهمات متقطعة انتهت إلى صمت كامل. بدت القاعة خاوية. لا يستطيع أحد أن يخمّن ما إذا كان الأعضاء يفكرون في حديث زميلهم عن المتهم البطل، أم يفكرون ماذا سيتناولون على الغداء. إلا أنه كان جلياً تقبّل بعضهم، بعضهم على

الاقل، لشيء ممّا قاله صاحب القدر الجليل.

سأله أحدهم قاطعاً صمت المحفل «لا شك أن في حديثك شيئاً من الحكمة، لكن ما الذي يضمن أن يسير المخطط كما قلت دون أن نضل الطريق إلى نتائج كارثية»؟

«... سؤال في مكانه» قال الزعيم.

«أولاً، لا شيء يضمن ذلك سوى حسن تصرفنا. ثانياً، هل لدى أي منكم بديل من هذا الرأي»؟

لم يجبه أحد.

«أترون؟ لا بديل إذاً. لقد تعرّض الرجل لكل أنواع الضغوط دون أن نخرج منه بشيء يقيني. لقد فشلت القوة معه كما...» صمت العضو قليلاً ثم أضاف «كما فشلت مع الشارع. وهكذا فإن تحويل العصا إلى قطعة حلوى، قد يعطي نتيجة أفضل».

«كيف لنا أن نثق برجل هو في أكثر اعترافاته صدقاً أظهر تعاطفاً وقحاً مع المتظاهرين»؟ سأل عضو الأمن.

«نعم... هذا صحيح، كيف نثق بالرجل»؟ قال الأعضاء في تراتبيتهم المكرّرة.

«أقول لكم أيها السادة إن من يشغل مقعداً في هذا المحفل الكريم، والكريم جداً»... وأشار إلى بقية الأعضاء «لا أظن أنه بقادر على التنازل عنه مهما كانت مغرياته الأخرى. ولا تنسوا أن الرجل بسيط في نشأته ومعاشه، ولو حصل على ربع ما يحصل عليه كل عضو هنا، لما تردّد في بيع نفسه لنا أو للشيطان إن أراد صحبته».

كان يمكن أن تسمّى تلك الأمسية «بجلسة الهمهمات». ومع

ما طرحه نحيل الجسم من رأي، بدت الهمهمات متصادمة، حتى تكسر بعضها شظايا على أرض المحفل.

«لكنك تعلم أيها العضو المبجل أن عضوية محفلنا طويلة بعض الشيء...» قال صاحب لحية عظيمة.

«أعرف ذلك» أجاب نحيل الجسم «وما علينا الآن سيكون عليه الوقت الراهن. هدفنا اللحظة أن نسيطر على الرجل ونسكت الشارع. بعد ذلك يمكن تدبّر زمن العضوية وصلاحيتها».

«تلك سابقة... تلك سابقة... إن قبولنا بذلك سيغيّر قوانين مئات الأعوام»؟

«لن يتغير شيء... أعدكم بذلك» قال الزعيم في صوت جهوري «إن هذا المحفل هو رمز الوطن وبقائه، ولن نسمح لأحد أن يغيّر فيه شيئاً. وإن كان هناك من استثناء، فهو مجرد استثناء وقتي. أتفق مع العضو المبجل في أن الحيلة وسيلتنا الآن للخروج من المحنة التي نمر بها. إن التحدّي الذي يواجهنا أيها السادة ليس قبول هذا المواطن عضواً في محفلنا أو رفضنا له، بل كيفية إقناع الشارع بأن مذنب الأمس أصبح بطل اليوم. وما أراه، هو التركيز على أن مسألة اختيار هذا المواطن لعضوية محفلنا، ستكون بمثابة هديتنا إلى الشارع تنسيه أيّ ماض لهذا الرجل، بل وأيّ تضارب في قرارات صدرت عن محفلنا الموقر من قبل».

التفت الزعيم إلى جهازه، ثم نظر إلى الأعضاء «سنعمل من أجل تحقيق هذه الغاية، واثقاً بحكمة عضونا التي لم تخذلنا يوماً. ليس أمامنا كثير وقت. سنبدأ منذ اللحظة بالحديث عن بطلنا الذي أنقذنا من فتك الأعداء، ووضع يدنا على أخطر سلاح واجهته أمتنا».

شيء ما أسكن أجواء المحفل وفق رؤية الزعيم وقراره. وقد وثق حفيد أحد أعضاء المحفل ويبلغ من العمر ستين عاماً، أنه كان أكثر القرارات جرأة في تاريخ الوطن.

ابتدأ العمل على تنفيذ أوامر من لا يرفض أمره. إلا أن أياً من الأعضاء ما كان ليقدر، مع كل ما له من نفوذ وسطوة، أن يجاري قدرة الزعيم وجهازه العجائبي في إقناع الناس بما يريد، بما فيها النقائض كلها.

فانضمام فرد من بسطاء الشارع إلى عضوية المحفل قد يكون استثناءً حقيقياً، بل وأكثر استثنائية من إعادة تشكيل رأي الناس في اتجاهين متناقضين في يوم واحد.

أدار الزعيم المفتاح السابع من جهازه، والمفتاح الثامن والحادي عشر والرابع عشر، لتنطلق شحنة أفكار أعادت الطلاء الذهبي الهارب من القبة إلى مكانه، مخترقة البيوت متغلغلة حتى عمق متر في تراب الوطن. كانت شحنة أفكار تبشر المواطنين بأن وطنهم بخير، وبأن المجرم الذي كان سيعدم قبل يوم أو ساعات، إن هو إلا بطل أطاح الخونة، ومكافأة له، ونزولاً عند رغبة الشارع في أن يمثله أحدهم، وتقديراً من الوطن لكل مواطن وفيّ، فقد اختير البطل، ابن البسطاء، ابن عامة الناس، الموظف البسيط، ليكون لأول مرة في تاريخ الوطن، عضواً مبجلاً لمدة سبعين عاماً تجدّد ثلاث مرات فقط.

* * *

في طبعات الصحف المسائية، ونشرات الأخبار، وأحاديث الشوارع والمقاهي، وفوق الأرصفة المتكسرة وتحت الأقبية المليئة بالسكارى

والشحاذين، لم يكن من حديث سوى قصة «البطل»، الذي أنجبته أرض الوطن المباركة فجأة. أخذت الحماسة بعض المبتهجين في جولات هستيرية تجوب الشوارع وتحاصر ما كان في يوم منزل الزوج وزوجته، بحثاً عن صورة له يرفعونها فوق رؤوسهم، أو تذكاراً يمجّد التاريخ من يجده. نساء يزغردن، ورجال يرقصون، وأطفال يلعقون الحلوى وهم يصفقون على ما لا يعلمون سببه. حتى الثائرون، وحملة الشعارات ضد المحفل والزعيم، تآكل عددهم واحداً تلو آخر. ومن بقي ثائراً، قبض عليه رجال الأمن وهم يردّدون اسم «البطل» الذي لا يعرفون اسمه. أخيراً أصبح للبسطاء مكان تحت قبة المحفل. إنه أكثر مما كانوا يطلبون. ابتهاج الشارع، حال دون إظهار قادة المعتصمين، الذين تآكل عددهم، عطشهم لمزيد من الحريات، ومزيد من التنازلات. هكذا، وجدوا أنفسهم معزولين.

الوحيد الذي لم تصله شحنات الوطن الخارقة تلك كان الزوج نفسه في جناحه الفخم. ولأنه كان المعنيّ بكل ما يحدث، فكل ما وصلته أصوات تهليل بعيدة خلف أشجار الحدائق المرتفعة، التي كانت هي بدورها تتمايل طرباً بعكس اتجاه الريح. لم يعلم الزوج أن الشارع يتحرك من أجله. ويحمل صوراً له رسمها بيده يرفعها فوق الأعناق. لم يعلم أيضاً أن هناك من استنكر وطنيته المفاجئة، بل ورفضها.

هو الساكن في تأمله الصامت يجتر ما حدث معه في الأيام الماضية، لن يصدّق أن وسائل الإعلام الوطنية تصطف في طابور طويل أمام جاره الذي تبرّأ منه قبل أيام، وهو يتحدث عن بطولات

الزوج الصالح الخارقة من أجل الوطن. وكيف أنه رآه بأم عينه ذات يوم، بأم عينه، ينقذ قطة مسكينة علقت في بالوعة صرف صحي.

استمر احتفال الوطن حتى الليل، وإلى حيث انتهت إلى مسامع الزوج في جناحه الفاخر أصوات طلقات نارية. أيقظت تلك الطلقات مخاوفه من أن يعود إلى الزنزانة من جديد. لم يكن من سبب يدفعه إلى الخوف من أدنى صوت يأتيه من وراء بابه العالي سوى تجربته القاسية مع كل مناسبة وطنية. كان يُهيّأ له كل لحظة أن أحدهم سيدخل عليه ليعيده من رقبته إلى زنزانته. لم يكن يخشى الزنزانة، ولا الموت فيها قهراً أو معلقاً على حبل مشنقة، بل كان يخشى أن تموت أحلامه التي بناها خارج السجن ولا يموت هو.

بقلب وجل، عاد يقلب صفحات أيامه الماضية، ويفكر في كلمات عضو المحفل، نحيل الجسم، الذي زاره أمس. لم يكن ليصدقه كثيراً. لم يكن ليقتنع بأنه انتقل في ساعات من خائن ينتظر موته إلى مواطن صالح. متهيباً وخائفاً مما قال زائره الغريب، لن يقتنع من حوار واحد بأن ما يحدث له ومن حوله هو حقيقة لا حلم. لم يعده إلى بعض السكينة سوى سكون الليل. أعاده إلى بيته الذي ما عاد له وجود، وزوجته التي لا يعلم إن ماتت حقيقة أو تنتظره في مكان ما.

انزوى إلى ركن في حجرة النوم خلف سرير يتسع لعشرة أشخاص. تكوّم كقطعة لحم ممضوغة على الأرض المصنوعة من خشب فاخر.

سدّ أذنيه على أصوات الطلقات النارية التي بدا له أنها تقترب من الفندق. ما كان ليعرف، ولو أقسم له ألف رجل دين، أن كل هذه الطلقات إن هي إلا ابتهاج به. لو فتح جهاز التلفزيون لاكتشف

الحقيقة. لو أدار جهاز الراديو لاكتشف الحقيقة. لكن كيف له أن يكتشف بطولاته التي لم يصنعها وهو الذي كان أقرب ما يكون إلى نهايته؟ اخترقت أفكاره صور المحقق يعيد طرح الأسئلة عليه. صور المحقق تتوالى عليه كما رآه كل مرة، بثوب مختلف، ومزاج مختلف. عبثاً حاول العثور على صورة لزوجته بين صور المحقق فلم يجد. لجأ إلى بكائه المعتاد يستجدي حضورها ويسأل عنها الأرض الخشبية التي يتكوم فوقها، والسرير الوثير بقربه، والظلمة التي حلت على غرفته.

لم يسمعه بكاؤه الصامت العميق، أصوات أناس تجمهروا حول الفندق وهم يردّدون اسمه. لم يسمع أصوات هتافات من تسلقوا الأشجار العالية قبالة نافذته وهم يرفعون صوره. كان كل ما يأتيه بقايا أصوات بعيدة ونشيج حزين وعتمة يعيش فيها على وقع طلقات نارية.

فجأة، أشعّت أضواء ثريا عملاقة حجرة نومه. انكمش على جسده الضئيل فيما اقتربت منه خطوات واثقة. أمسكته برفق يد ترفعه من كومته تلك. عندما رفع رأسه وجد نفسه ينظر إلى نحيل الجسم ومن ورائه بضعة رجال يصطفون في ثياب فاخرة.

لقد تأكد له الآن أنه يحلم، أو مجنون أصابه المس، أو في مكان ما بعد الموت، وأن هؤلاء الذين يراهم إن هم إلا كائنات من عالم بعيد أتت تأخذه معها.

عندما رفعه العضو النحيل الجسم، كان قد بدا كخرقة بالية. دون أن يتوقف نشيجه، وجد نفسه ينهض معه كمن سلم أمره لخالقه.

«لا عليك يا بني» قال عضو المحفل بوقاره المعتاد «لا عليك» وطلب من الرجال الذين وقفوا على الباب أن يساعدوه. لم يحس

الزوج بقدميه على الأرض، بل كان شبه محمول على الأذرع، فتراءى له أنه يطير، ما عزز قناعته بنية الكائنات أن تأخذه معها. عندما وضعوه على مقعد أعلى من قامته في الصالون الفخم وجلس قبالته العضو النحيل الجسم، كان جسده يرتعش، ويخفي وجهه بساعده ويقبض باليد الأخرى على ثيابه فوق صدره.

طلب له نحيل الجسم كأس ماء، وبعد أن أعانه على رشفة واحدة، حاول أن يرخي يده بهدوء «الكل هنا يحتفلون بك».

عجز عقله عن استيعاب ما يقول الرجل الجالس قبالته. وبعينين زائغتين لزم الصمت دون أن تتوقف ارتعاشاته.

«دعونا قليلاً» قال العضو لمن معه. بعد أن انصرفوا وضع يده على صدر الزوج يطمئنه «اهدأ... اعرف أن ما يحدث غريب بالنسبة لك، لكن كما أخبرتك، إن الوطن ينتظر منك الكثير».

احتاج العضو إلى أكثر من نصف ساعة كي يهدئ من روع الزوج المذعور قبل أن يبدأ حديثه معه. لكنه في غمرة انتظاره تلك تساءل في سره إن كان رجل ينتفض كفرخ صغير يشكل تهديداً حقيقياً للوطن. فكر للحظة أن يعيد النظر في مسألة عضوية الرجل في المحفل، لكن الوقت قد فات لأي تعديل في الخطة.

أعتى المجرمين يبكون أيضاً. فكر نحيل الجسم خالصاً إلى قرار يملأه اليقين بأن خطورة الرجل، إن كانت له خطورة بالفعل، لا تحتمل المجازفة، وأن الخطة التي اقترحها على المحفل هي الضمانة الحقيقية إن لم يكن للخلاص من أي تهديد محتمل، فامتصاص لغضبة الشارع الثائر على الأقل.

«إن كان من شيء أنت مطالب به منذ هذه اللحظة، فهو أن تكون بطلاً يتصرّف كالأبطال». أعاد العضو النحيل نصف الكلام السابق على مسامع الزوج الذي بدأت أطرافه تهدأ إلى حد يمكن له استيعاب ما يحدث معه ولو بجزء منه. أخذه نحيل الجسم بهدوء حتى وقفا أمام شاشة التلفاز التي أدارها على أفراح الشارع وصوره هو مرفوعة فوق أعناق المبتهجين. تطلب الأمر وقتاً آخر حتى يستوعب الزوج أن تلك الصور له بالفعل، وأن الاسم الذي ينادون به ويهتفون له هو له بالفعل.

لكنه حتى تلك اللحظة لم يكن يدرك سبب ما يحدث معه وإن استوعب الحدث ذاته. فأن يصبح بين يوم وليلة رجلاً وطنياً أمر يمكن القبول به كغباء بشري، لكن أن يصبح بطلاً قومياً وهو على بعد نصف كأس ماء من المقصلة فذاك يتطلب معجزة في زمن شحّت فيه المعجزات.

شيء واحد كان في يقينه، أن هؤلاء مخطئون أو مجانين مثله، وأن عضو المحفل بوقاره وخبرته مخطئ هو الآخر. عليه، فإن كان هناك من سبب يدفع بكل هؤلاء إلى ارتكاب الخطأ ذاته فهو انتظارهم لشيء هو لا يملكه بالفعل. وبالنتيجة، فإن العودة إلى الزنزانة قد تكون أفضل. أن يموت على يد رجل واحد، أفضل من أن يموت على أيدي هؤلاء إن اكتشفوا أنه بكل بساطة لا شيء.

لم يكن الزوج غبياً وإن كان مذعوراً، ولم يكن ساذجاً وإن بدا طيباً، ومع انتفاء بدائل التفكير أمامه لتفسير ما يحدث معه، أدرك أن الشارع الذي يهتف لأن واحداً من أبنائه أصبح عضواً في المحفل، كما أخبره نحيل الجسم، لا يشترك في سبب الفرح مع إرادة المحفل

ولا عضو المحفل النحيل الجالس أمامه.

في منتصف ليل ذلك اليوم، وبعد أن غادر الجميع إلا من بعض أصوات معلقة على شجر حور وراء نافذة جناحه، حاول الزوج أن يعيد تركيب الأحداث في رأسه.

فكر أن الاعترافات التي قدّمها للمحقق ترتبط ولا ريب بما يحدث معه. لكنه لم يكن يوماً ثائراً ضد أحد أو مؤيداً لأحد. هي إذاً تلك الاعترافات «... إنها هي ولا شك...» قال يحدّث نفسه «وتلك الغسالة اللعينة... نعم تلك التي ظنوها سلاحاً خطيراً». وتساءل في حديثه الداخلي إن كان خبراء الأمن من الغباء بحيث عجزوا عن التمييز بين غسالة معطوبة وسلاح ما. هم إذاً لا يكرمونه. كيف يكرمون من اعترف بذنبه؟ هم خائفون. ليست هي مسألة انضمام واحد من العامة إلى المحفل، كما قال نحيل الجسم. هم فقط... خائفون. إن كان خوفهم أن يثور الشارع ثانية فسهل أن يتخلصوا منه هو تحديداً ويحضروا بديلاً منه. لكن مع هذا التكريم، ليست المسألة كرماً وطنياً، بل خوف محض. استطاع الزوج أن يفسّر بعض ما يحدث بفطرة الخائف حتى النخاع من كل شيء. لكنه بقي متسائلاً في حيرة عميقة عن عجز خبراء الوطن عن اكتشافهم حقيقية الغسالة. حتى إن فكر بإيمانهم بأنه ما يزال يخفي سلاحاً، أو شيئاً هم في حاجة إليه، فهل من يجعل الحائط الصامت أذناً تسمع عاجز عن معرفة حقيقة أي سلاح يمكن أن يخفيه إنسان في مثل بساطته وضعفه؟

كلما تعمق الزوج في التفكير، عاد إلى النقطة الأولى. فاتخذ قرارا لعله الأكثر حكمة في حياته، وهو أن لا يحلل ما حدث ويحدث

معه، بل يكتفي بانتظار ما سيحدث. فإن كان من سوء ينتظره، فقد خبر كل أشكاله.

قبل أن يغمض عينيه تلك الليلة، وهو نائم على سريره، أتته خاطرة وكأن أحدهم صبّها في أذنه: إن كانت الغسالة سبب هذا العبث الذي يعيشه، فلتبق الغسالة إذاً سلاحه الخطير الذي لا يعرف سره حتى هو نفسه.

لم يدر بخلده تلك اللحظة أبداً، أن قدراً جديداً، وغريباً، يُصنع له.

* * *

ما بال الرجل يهذي...؟

إنه يتألم.

وكيف لمحظوظ أن يتألم؟

عندما تفقد من تحب، يتخلى الحظ عن جسده.

هل ماتت إذاً؟

إنه يتألم.

هل ماتت إذاً؟

إني أفكر...

في ماذا...؟

هل حياتنا هي تأمّل في الحياة نفسها، أم تأمّل في الموت؟

* * *

لم تنفك الهتافات تتسلل إليه من كل ثقب في جناحه الفاخر.

«البطل... البطل... البطل». في اللحظات الأولى تساءل إن كان هو المقصود بالبطل أم هو الزعيم أم هو القرار الذي نقله من زنزانة ضيقة إلى جناح يتسع لجيش؟

لكن إن كان هو «البطل» الذي تأتي الأصوات من الخارج مشبعة به، فهل مجرد دخوله السجن جعله بطلاً، أم أن تحدّيه للمحفل بما ظنّوه سلاحاً خطيراً جعله كذلك؟

أرهقته الهواجس، غير عابئ بهتافات البطولة التي ترشقه وراء حصنه الفاخر صبحاً ومساءً.

الأيام التي تلت لم تأت بجديد أكثر من زيارات لفريقين: أعضاء من المحفل يباركون في خيلاء فاضح العضو الجديد، دون أن يدور بخلد أحدهم كم سيندمون لاحقاً، وفريق آخر يمثل عامة الناس. وهؤلاء كانوا يباركون في عفوية مفرطة وصول رجل منهم إلى عضوية المحفل، دون أن يدور بخلدهم هم أيضاً كم سيندمون في ما بعد.

إن كانت زيارة بعض أعضاء المحفل سريعة وخاطفة، فإن زيارة وفود من الشارع بدت طويلة ومملة. ومع امتداد وقتها حتى منتصف الليل، فقد كانت فوق إرهاقها الجسدي مؤلمة نفسياً إلى حدها الأقصى. ذلك أنه تسنى للزوج، لأول مرة في حياته، أن يرى الناس على حقيقتهم، وأن يدخل إلى عمق أسرارهم التي تفيض بالحزن والألم أكثر مما رأى وسمع يوم كان بينهم.

أم تبحث عن ولدها الذي اختفى من تظاهرة احتجاج ثم سلموها جثة فتاة مؤكدين بالأوراق أنه ولدها. ورجل تخطى الثمانين يبحث عن عمل، لم يحظ به، مذ تخرج من جامعته قبل ستين عاماً. وطفل

هو سليل عائلة توفي كل أفرادها على باب محكمة ينتظرون إنصافها في قضية أرض انتزعها أحدهم.

حتى قبل أن يشغل وظيفته الجديدة، رسمياً، كان قد أصبح قبلة كل فرد في الوطن. بات الجميع يعتقدون، بل يؤمنون، بأنه وحده دون سواه، يملك حلاً لكل مشاكلهم. ذات مساء حاول أن يجد مكاناً ينام فيه داخل جناحه الفاخر فما استطاع أن يعثر بين كومة الخطابات التي تسلّمها على مدار أسبوع سوى على فسحة صغيرة تمدّد فوقها. سخر من نفسه، ومن الصورة التي ينظر بها الناس إليه، وهم يحسبون أنه القادر على كل شيء، وهو الذي لا يعرف حتى مصير زوجته. في كل مرة يتسلّم مطلباً من أحدهم كان يفكر في زوجته. بلغ به الأمر إلى ما يشبه الإيمان بأن هناك من خطط جيداً كي يمحو حياته السابقة من ذاكرته، بما في ذلك زوجته وكأنها لم تكن.

بعض أعضاء المحفل باتوا أكثر اقتناعاً، بدورهم، بقيمة القرار الاستثنائي لانضمام المواطن إليهم، خاصة أن الشارع قد انصرف بشبه كليته للاحتفال بالحدث. كما هدأت أصوات المتظاهرين، وفقدت الاحتجاجات زخمها. لكن، بالنسبة لبعض الأعضاء الآخرين، فلولا الخوف من أن تعود تلك الأصوات المحتجة ثانية، لألقوا بالزوج في أحقر سجن في الوطن، ولخوزقوه بما يليق بمحتال مثله. وهذه الفئة من الأعضاء تحديداً، بقيت حتى اليوم الأول لدخول الزوج إلى المحفل، لا تعرف كيف شكله، ولا تريد حتى أن تلتقيه تحت القبة العظيمة. بل إن أحدهم طالب في همس، بأن يكون حضور العضو الجديد شكلياً، وأن لا يشارك في أي قرار وطني، وحبذا لو لزم داره. كان

يمكن لرأي كهذا أن يصبح واقعاً، لولا حكمة نحيل الجسم، الذي رفض استبعاد الزوج من أي مشاركة سياسية في المحفل مصراً على أن يكون حضوره علنياً وفي جميع الجلسات، وإلا فقد القرار قيمته.

في الحقيقة، فإن عنصراً آخر كان يميل لكفة الرفض له كعضو جديد في المحفل. إنه العنصر الشخصي. فقد أثارت ابتهاجات الشارع ببطلهم غيرة معظم الأعضاء. ذلك أن أحداً منهم لم ينل من الهتافات، باستثناء الزعيم، نصف ما ناله الزوج في بضعة أيام.

كان نحيل الجسم مدركاً لذلك. لكن بقيت حكمته ورقة رابحة ألزمت الجميع بقبول ما تم الاتفاق عليه.

قبل يوم المحفل الأول، بقي الزوج في جناحه لا يغادره سبعة أيام متوالية. سبعة أيام مليئة بالأفكار المتخبطة ليلاً، واللقاءات المملة والمؤلمة نهاراً. لم تتسنّ له رؤية التلفاز ليعرف حجم شعبيته التي تخطت في ارتفاعها جبال الوطن، ولا تسنّت له فسحة الاطلاع على ما قالته الصحف، ولا ما خطه الكتاب وفلاسفة الوطن الذين كانوا حتى أسبوع مضى يباركون قمع المحتجين، ويتحدثون عن حتمية فصله شخصياً إلى أربعة أجزاء.

لم تتح له تلك الحركة الكثيفة من حوله أن يفكر ويحلل ويقرأ في وجوه الناس باحثاً عن صور المجرمين والمتطرفين الذين كانوا يدانون كمحركين حقيقيين لثورة الشارع. لكنه في الليل، قبل أن يغمض عينيه لثلاث ساعات أو أقل، كان صوت في داخله يفكر كيف هو الوطن متقلب، وكيف هو ضحية وجلاد في الوقت ذاته.

ضحية هو لأن له من يكتب نيابة عنه وينافق نيابة عنه. وهو الجلاد

لأنه سيطر على عقول البسطاء من خلال أفكار هؤلاء المنافقين. للحظة أدرك أن كل هؤلاء الذين تقاطروا على زيارته من عامة الناس ونخبتهم، ليسوا جديرين بوطن يريد منهم ما هو أكثر من الرياء. للحظة أخرى فكر أن لو كان القرار بيده لغيّر عبارة المتظاهرين من «الشعب يريد تغيير المحفل» إلى عبارة «المحفل يريد تغيير الشعب».

إلا أن حداثته في عالم السياسة، وفي موقف كالذي وجد فيه نفسه أمام الشارع دفعة واحدة، جعلته أكثر حيرة في تقرير من هو المخطئ ومن المصيب. فالشعب يستحق محفلاً أفضل، والمحفل نفسه يستحق شعباً أفضل. ودليله إلى ذلك أنه استطاع هو، بلا مجهود أو تعمّد، ودون حتى أن يقدم ولو شيئاً واحداً لهذا الوطن، أن يصل إلى منصب لم يبلغه أحد من عامة الناس من قبل. وإن كان من ثمن دفعه فليس أكثر من بضع ليال في زنزانة. من هنا أدرك أن الشعب قادر، إن أراد، على فعل ما يجعله في مكانة أفضل، لكنه ببساطة، وبساطة شديدة، لا يريد أن يفعل شيئاً.

تلك الأفكار التي كانت تراود الزوج في فسحة الليل، كانت تكشف عن تكيّف سريع مع وضعه الجديد، وقدرة على استيعاب الدروس الأولى في السياسة والشعب.

انعكس ذلك بوضوح مع نهاية اليوم السابع من إقامته في جناحه الفخم، فقد بدت تصرفاته أكثر نضجاً وحديثه أكثر منطقية مع بسطاء زواره أو أعضاء المحفل سواء بسواء، وكأنه عضو عريق منذ خمسين أو ستين عاماً. عندما أخبروه بأن داراً فخمة قد أعدت لسكناه في الحيّ الفاخر من المدينة، كان عندها يشبه حكيماً هندياً. ورغم أن

جسمه بدا هزيلاً عما كان عليه في الأيام الخوالي، بدا عقله أكبر من جمجمته التي تشبه حبة الفاصولياء.

لقد أعطته تلك الأيام في جناحه الأسطوري، الفرصة ليعرف الشارع بغير تلك الصورة التي كان يراه فيها. كما أعطته الفرصة ذاتها، ليقرأ الوطن من بعض أعضاء المحفل الأكثر قبولاً به، أو حتى الرافضين له والذين قد لا يكون رآهم بعد.

في الساعات الأخيرة من إقامته كانت صورتان بدأتا تغادران رأسه. الغسالة المعطوبة التي أوصلته إلى هنا، وزوجته التي أخذت ملامحها تختفي وسط أمواج البشر الذين يقدّسونه.

قبل أن يغادر جناحه، فتح النافذة التي أطل منها في يومه الأول على أشجار الحور العالية. فوجد الأشخاص أنفسهم الذين تسلقوا قممها المواجهة لنافذته ما يزالون هناك يهتفون ويغنون ويأكلون أيضاً، حتى إن أحدهم كان يشرب نرجيلة وهو متدلّ من غصن شجرة تواجه نافذته مباشرة، على رأسه طربوش أحمر فوقه صورة للزوج على صهوة جواد.

لم ير، وجهاً لوجه، جواداً في حياته، وها قد أصبح فارساً على غصن شجرة!

احتاج إلى أكثر من ساعة كاملة ليشق طريقه من جناحه إلى باب الفندق الخارجي. فقد تجمّعت الحشود بعضها فوق بعض على مستوى طابقين يحمل كبيرهم صغيرهم أو العكس أحياناً. وقبل أن يكمل عشر خطوات في بهو الفندق كاد يفقد الرؤية من بريق أجهزة التصوير وهي تومض مع كل خطوة له.

عندما أصبح خارج الفندق، اندفعت بضع حسناوات يطوّقنه وهن يخترقن حصار رجال ضخام التفوا حوله كسوار معصم لحمايته. إحداهن، وقد كانت الأجمل، طبعت قبلة على جبينه ثم على شفتيه وطوّقت خاصرته. فيما انسلت يده، وكأنه غير عامد، إلى مؤخرتها يتحسّس طراوتها.

إن الرجل الذي دخل من هذا الباب قبل أسبوع واحد، هو رجل آخر غير الذي يخرج منه الآن. لم يكن ليلام مع ما وجده من تقديس آلاف البشر له، الذين قضوا مثله أسبوعاً كاملاً يحيطون بالفندق ويملأون كل فراغ فيه.

الدقائق القليلة التي سبقت اعتلاءه سيارة مزدانة بالورود، صافحت يده نصف الوطن، وتحسّست أكثر من مؤخرة.

حالت الجماهير التي اصطفت حول سيارته دون تحرك الموكب لنصف ساعة. عندما انطلق، لم تكن سرعته لتتجاوز بضعة كيلومترات وسط أمواج بشرية اعتلت بعضها لتصافح بطل الوطن أو تراه عن قرب.

وسط الضوضاء التاريخية تلك، كان الصمت يملأ جمجمته. أحس بنفسه وحيداً. أدرك أن شيئاً يحدث في فضاء الوطن يؤثر على عقله وعلى الجموع من حوله. لقد كانت الآلة الإعلامية التي أطلقها المحفل، وجهاز الزعيم العجائبي ذو الأربعة عشر مفتاحاً، تلعب مباشرةً في تطور الأحداث لتمسّه هو شخصياً، بعد أن كان حصيناً في لحظاته الأولى. ومع أن الزوج لم يكن يعلم ما دار داخل المحفل بشأن اختياره ونشر أخبار بطولته التي لم يصنعها، وصندوق الزعيم الغامض، إلا أن الأحداث السريعة التي كانت تمر به، جعلته يدرك أن

هناك من يسيطر ولا شك على عقول الناس كلهم، وأن هذا الشيء لا بد وأن يكون عظيماً ليحدث تأثيراً كهذا.

جاب الموكب طرقات الوطن. الأعلام في كل مكان. الزهور في كل مكان. صوره هو في كل مكان، نصفها لا تشبهه. لسبب ما قرّر منظمو الموكب والمسؤولون عن خط سيره، أن لا يقتصر المرور على الشوارع الرئيسية والأحياء الفاخرة، بل أن يخترق الأحياء الشعبية وطرقها الضيقة الموحلة، التي لم تعرف من قبل سوى عربات الحمير.

وجد الزوج نفسه يمر في بعض الطرقات التي سلكها ذات يوم غير بعيد هو وزوجته جيئة وذهاباً إلى المستشفى.

كانت تلك المرة الأولى التي تطالعه صورتها منذ أوقف تدافع الناس الكبير حوله أيّ فسحة للتفكير فيها حتى كادت ملامحها تختفي. وجد نفسه يغوص في صمت داهمه ثانية، لينتقل منه إلى خواء روحي سكن نفسه. دون إرادة، انسابت دمعة من عينه وهو يتذكر وجهها في آخر منظر لها بجواره، ممدّدة على سريرها نائمة في رحم ألمها. وفي سلسلة تفاعل عاطفي غمره، أحس بأن الجريمة التي ارتكبت في المستشفى بحق زوجته يتشارك الجميع في مسؤولياتها. حتى هؤلاء الذين يحيطون به الآن، ويصرخون، هم مشاركون في الجريمة. لم يسأل أحدهم عنها. كأنها لم تكن. كأنها لا شيء. حتى جاره الآخر الذي زاره في جناحه منذ اليوم الأول، بل اللحظة الأولى، لم يسأل عنها وهو يقدّم التهنئة ويطلب منه أن يساعده في زرع لسانه الذي فقده بسبب الوطن.

سحابة حزن سكنت عينيه، فما عاد يرى سوى ضوء أبيض يحيط

به وكأنها روحها أتت تشاركه لحظاته التي خلدها الوطن في تاريخه المدرسي حتى اليوم.

للمرة الألف ربما، تساءل وهو يشق طريقه بين الحشود، إن كان يحلم أو تراه ميتاً يساق إلى جنة أو نار. شيء واحد أعاد إليه وعيه بأنه يجوب في عربة مصفحة كالأبطال شوارع الوطن الفاخرة والموحلة. إنها رائحة قمامة متكدسة منذ زمن أمام داره القديمة المحطمة. عندما عادت أصوات المحيطين تصرخ في قاع رأسه، وجدهم يشيرون بفخر إلى لوحة منصوبة أمام تلك الدار التي انتهكوا حرمتها هم بأنفسهم قبل أسبوع واحد. على اللوحة وضعت العبارة التالية: «مشروع بناء متحف وطني تخليداً للبطل الذي سكن هنا». وفيما هو يقرأ اللوحة، أتاه بوضوح شديد صوت أنين زوجته.

***

أخبروه أن موعده مع المحفل سيكون في التاسعة من صباح الغد. غلبه جبنه فلم يسأل: موعد مع من؟

تلك الليلة أيقظته أصوات من رآهم طوال الأسبوع الماضي. حاول أن يعثر على صوت يعرفه. ثم وجد لسانه يردّد كلمات لم ينطقها من قبل. وكأن أحداً أو شيئاً يملي عليه ما يقول.

فوق سريره، أزاح غطاءه بيد متردّدة. وفي تردد، وعلى ضوء شحيح من وراء الستائر العالية، نهض وأضاء حجرته وتأمّل كل قطعة فيها. لم تتح له فرصة رؤية السكن الذي أعدوه له. فيلا في حيّ راق، وخزانة مليئة بالثياب التي صمّمت من أجله. لم تكن الفيلا كبيرة

الحجم، لكنها شديدة الثراء في تفاصيلها وأثاثها. في محاولة لطرد توتر سكن جسمه منذ دخل المكان، جاب أرجاء المنزل وأشعل كل ضوء فيه. كانت هناك بضع حجرات نوم، وطاولة طعام كبيرة من خشب مصقول، وصالون تناثرت بعض قطعه على أرضية رخامية بذوق رفيع. جلس على أريكة جلدية بيضاء. في مواجهتها حائط خال من أي صورة بعكس الحوائط الأخرى التي تزيّنت بلوحات أشخاص يلبسون ما يشبه ثياب أعضاء المحفل، تعلو صدورهم أوسمة عديدة.

في ركن من المنزل، كانت هناك طاولة زجاجية أنيقة، يحملها جسد فتاة رخامية شبه عارية. فوقها هاتف أسود اللون بحجم كبير، يحمل أزراراً ذكرته بغسّالته الفقيدة. تأمل الهاتف الصامت كجثة غراب. أحس بعدم انتماء للمكان، وبوحشة فاقت تلك التي كان يحس بها في زنزانته. عاد ينظر إلى الحائط الأبيض المواجه للأريكة الجلدية، تقدّم إليه وأخذ يتحسّسه. تساءل في سره «إن كان سيصبح ذات يوم أذناً كبيرة»؟ رسم بإصبعه ملامح زوجته عليه كحارس يحميه في هذا المكان. كان يضع تفاصيل لها كرسّام من عصر النهضة وهو الذي لا يعرف كيف يرسم شجرة. ضغط بإصبعه على الحائط كما لو يريد للرسم أن يكتمل بدمه. أحس بألم في اصبعه. ألصق جبينه على الحائط فامتص منه هواجس أربكته. خاف وعاد خطوة إلى الوراء. لم يستوعب جيداً ما أخبره به الحائط، لكنه بدا شيئاً مخيفاً. لم يحدّد إن كان هو الخوف من وحدته أو خوف مما ينتظره.

تراجع إلى الوراء أكثر دون أن يزيح ناظريه عن رسمه الافتراضي الذي خطه إصبعه. تهيّأ له أن رسمه يأخذ من تلقاء نفسه لون بشرة

زوجته... ثم... أتته رائحتها فشرع يشتمّ الفضاء ويقترب من الحائط وقد عادت له بعض ثقته. ثانية، ودون أن يزيح عينيه عن الحائط، تراجع إلى حيث أريكته. أعياه كل شيء. تمدّد ونام حيث هو.

أيقظته في فزع فرقعات مدوّية في الخارج... أزاح ستارة كبيرة وأطل من النافذة فوجد السماء تزدان بألعاب نارية أطلقها بعضهم. فتح الباب الكبير وخطا إلى الخارج وأخذ يتأمل الألوان الزاهية في السماء. كانت الحديقة بثلاثة أضعاف مساحة المنزل. من حيث هو، استطاع أن يرى بعض الناس يفترشون الأرض خارج الباب الرئيسي الذي يفصله عن الشارع. كانت بعض الأوراق واللافتات معلقة على أغصان الشجر العالي. أحس بلفحة باردة فأقفل راجعاً. كانت الساعة تشير إلى الرابعة فجراً. في حجرته، فتح باب خزانة كبيرة تنوّعت ملابسها الفاخرة بما يليق بعضو محفل. قضى نصف ساعة وهو يحاول أن يلبس ما رآه أكثر ملاءمة لوقار المحفل، وعاد إلى أريكته وجلس ينتظر مصيره الغامض بكامل ثيابه. فخامة الثياب تتطلب ذوقاً عالياً في اختيار الملائم منها بعضها لبعض وله. لم يكن يملك ذوقاً كهذا في يومه الأول. فأثمن ما لبس في حياته هو أقل فخامة مما يلبس سائقه الذي خصّص له. وقد أدرك ذلك متمنياً لو كانت زوجته دليله إلى أناقة تلائم المكان الذي سيقصده. جلس يتأمل في صمت كل ما حوله، ويعيد النظر أكثر من مرة إلى المرآة الكبيرة في حجرة نومه ليتأكد من حسن هندامه. كانت الثياب على مقاسه وكأنها فصلت له قطعة قطعة. لكنها بقيت أكبر من شخصيته.

قضى جل وقته بعدها ينظر إلى إصبعه واللوحة التي رسمها على

الحائط. كان خاوياً إلا من خياله مطبوعاً هناك يحمل ملامح زوجته.
وعاد يسترجع بعض ما مر به. في استرجاعاته تلك سمع جلبة تأتيه من المطبخ غير البعيد عن طاولة الطعام الخشبية. توجه إلى مصدر الصوت بهدوء فوجد خادمة تهيّئ نفسها ليوم جديد. رأته وارتبكت واكتفت بأن ألقت عليه تحيّة باردة، وعادت تكمل عملها. رد التحية وهو ينظر إلى قامتها الممتلئة، وأقفل راجعاً. إلى يمينه كان هناك ممر صغير بآخره باب خشبي. شيء دفعه إلى ذلك الممر وفتح الباب فوجد نفسه في غرفة ضيقة تتوسّطها غسالة ثياب جديدة. كان ضوء أحمر حاد يأتي من طرفها العلوي. مد يده يتحسّسها ويعبث ببعض مفاتيحها. أخذت الغسالة تعمل بصوت بالكاد يسمع. ومع دورانها الفارغ إلا من مياه تدفقت إلى جوفها، سأل نفسه إلى أين ستقوده هذه الغسالة.

وكأنها ملهمته، أحس مع دورانها بأن شيئاً ينسل إلى روحه. انتصب واقفاً كمن يلقي تحية عسكرية، قبل أن يقفل الباب بهدوء ويعود إلى أريكته. أدرك في لحظته تلك أنه أمام عالم جديد يفتح له، وأن الغسالة التي تركها تدور وراءه، الخالية من أي ثياب تغسل، إن هي إلا مليئة به هو ليغسل جسده من ماضٍ ما عاد له وجود. أحس أن القدر يجلس معه.

قام وفتح الستائر المغلقة، فكان ضوء الفجر قد بدأ رحلته اليومية. وكما لو أن إزاحة الستائر كانت إشارة انتظرتها الأصوات النائمة في الخارج، دبت الحياة في الفضاء الصامت من حوله. بعد دقيقة أتاه صوت الخادمة الناعم تخبره أن إفطاره بات جاهزاً. في لحظات كانت أمامه مائدة عامرة بطعام يكفي الجياع الذين يحتفون به خلف

أسوار منزله. فكر لحظة لو دعاهم إلى هنا، لكنه خاف إن أقدم على خطوة كهذه أن يخالف عرفاً لا يعرفه، فلزم مكانه، وفارقته شهية الأكل. بعد قليل دخل عليه رجل في كامل أناقته وألقى عليه تحية الصباح. أخبره أنه سائقه الخاص. وقال له في تأدب شديد إنه رهن اشارته ساعة يشاء. كانت أناقة السائق بالفعل أفضل من أناقته هو.

خفق قلب الزوج بشدة وهو يفكر بموعده الصباحي، وعاد ألف سؤال يغزو رأسه من جديد: من سيرى؟ ماذا سيقول؟ وكيف سيكون اليوم الأول؟

كان يدرك بفطرة عفوية أن هذا اليوم الأول سيكون دليله لباقي الأيام، وأنه سيحدد مصيره ومستقبله إلى الأبد، هذا إن كان كل ما يحدث هو حقيقة بالفعل. لقد بقي حتى تلك اللحظة التي يغادر فيها منزله الجديد يشكك في جدية ما يحيط به. إن كان من شيء واحد، واحد فقط، يرتبط بواقع يعرفه، فهو ذاك اليأس المغطى بطبقة هشة من الأمل في عيون الناس الذين حملوه على أكتافهم.

فور أن فتحت أبواب المنزل الخارجية، في الثامنة والنصف، أحاط الناس بسيارته. كلهم يريدون الشيء ذاته: مصافحته أو مظلمة أو طلب شخصي. كان يأخذ ما يقدمونه من أوراق كثيرة حتى كاد مقعده يمتلئ بها. لاحظ أن مجموعة أخرى من الناس اصطفت غير بعيد عن منزله تحمل شعارات ضد المحفل، بل وضده هو شخصياً. من بين ما قرأ لافتة تعيب عليه قبول المنصب في محفل لا يفكر سوى بأعضائه فقط ومصالحهم الشخصية. لافتة أخرى حملت عبارة استخفت بقرار المحفل قبول عضو من عامة الناس، فأين ذهبت

مطالب أخرى أكثر أهمية؟ كان صوت المعترضين يغلب صوت المؤيدين رغم قلة عددهم. وبدا أنهم أكثر انظباطاً وتنظيماً. كما أن لهم مطالب محددة لا تطالهم شخصياً. ولأول مرة يدرك الزوج الفرق بين المؤيدين الذين يصفقون له والمعارضين الذين يقفون هناك. من يلتف حوله لا يحركهم حب شخصه هو ولا هم مع أو ضد مشاركته في القرار الوطني، بل مع غايات شخصية يسعون لها من خلاله ولو بدت متواضعة. ومع أنه لم يكن رجل دولة أو سياسة أو حتى صاحب قرار يتخطى عتبة بيته، إلا أنه كنّ نوعاً من التقدير لأولئك المعارضين له. فإن كانت مصلحة الوطن هي الأهم، فكل من مد له بورقة لمطالبه إنما يحصر الوطن في تلك الورقة فقط.

كانت تلك الحقيقة الأولى التي يكتشفها هذا الصباح كعضو محفل. وهي حقيقة أكدت له لماذا المحفل خائف من أي معارض له. لأنه نفسه لا يريد من يقف ضد تطلعات أعضائه الشخصية، والشخصية جداً. معنى هذا أن قبوله هو عضواً جديداً يملي عليه أن يسير في الاتجاه ذاته. فيمسي وطنياً بمقاييس المصلحة الشخصية. وهو إن لم يكن كذلك، فلن يدوم طويلاً في منصبه. لقد كانت تلك الحقيقة الثانية.

تساءل في سره وهو يشق طريقه إلى اليوم الأول، إن كان باستطاعته أن يكون وطنياً مخلصاً عندما يعمل لمصلحة البسطاء بكل آمالهم فيه؟ وهل ستتعارض وطنيته إن هو فعل ذلك مع بعض أعضاء المحفل المخلصين؟

لم يكن الزوج ليحتاج إلى عبقرية تكشف له أن الجماهير السعيدة به عضواً يمثلها في محفل الوطن ليست هي من اختارته بل المحفل

هو من فعل. صحيح أن ضغط الجماهير دفع باتجاه ضمان عضويته، لكن لم يكن هو المقصود بذاته لولا الغسالة تلك. إنها الحكاية التي لا تعرف الجماهير بها. بل ونسيت تماماً، وفي أسبوع واحد، أن هذا الذي تصدح باسمه بطلاً كان هو من تصدح باسمه خائناً ومجرماً. كانت تلك الحقيقة الثالثة.

الأفكار تتخبط في قوقعة رأسه كرجال يتخبطون في ثمالتهم، تكشف، ولو بتواضع، عن العالم الجديد الذي سيلجه بعد قليل.

لا يبعد المحفل عن المنزل كثيراً. ولم تستغرق الرحلة بالسيارة أكثر من ربع ساعة. لكنها فترة زمنية خرج بها بثلاث حقائق أكدت في مجملها شيئاً واحداً: أي محاولة للظهور بشكل استثنائي يخالف إرادة المحفل ستكون مرفوضة لو صبّت في مصلحة الجماهير أولاً.

باختصار، فإن دوره في المحفل لا ينبغي أن يتعارض والمصالح الذاتية لأي عضو. باختصار، يجب أن يعمل لمصلحة المحفل أولاً. باختصار، يجب أن يكون مع ما يريد المحفل... والمحفل وحده.

لقد كان الزوج في حاجة إلى نتيجة كهذه. فقد أدخلت إلى قلبه بعض اطمئنان. لكن قلبه عاد يخفق عندما وجد نفسه يقترب من بناء مهيب. فتحت أبواب عملاقة تحرسها آليات عسكرية وبضعة أفراد مسلحين. أخذ يتأمل من نافذة سيارته، وهي تدخل إلى فناء المحفل، البناء المهيب أمامه. كان ضخماً وشديد الثراء. اعتقد من قبل، أن ما كان يراه من خارج الأسوار لبعض أجزائه أثناء مروره اليومي القديم، إن هو إلا المحفل كله. لكنه من هنا، داخل الباحة الرئيسية، وأمام الباب الرئيسي، وفي هذه اللحظة، وجد نفسه أمام شيء أكبر

مما تصوّر. قدر أنه في مدينة داخل مدينة. كانت نوافذ البناء عالية وحصينة وكأنه أمام قلعة عتيقة. قامتها الشامخة تتواضع أمام امتدادها الأفقي. تحيط بها حدائق منسقة بعناية شديدة، تحفها أشجار عالية. كانت قمم بعضها عارية من هيبة المكان، وقرارات الإدانة والتأييد التي تصدر كل يوم من هنا.

* * *

كان مبكراً عن موعده بأقل من نصف ساعة. لم يكن هناك سوى بضعة حراس وموظفين في ثياب أنيقة. بعد إجراءات أمنية سريعة للعضو الجديد، أدخلوه قاعة استقبال صغيرة. لا تخيّل مسبقاً، في ذهنه، لشكل المحفل من الداخل أكثر مما يراه في التلفزيون عند بثّه لاجتماعات الأعضاء.

جلس وحيداً ينظر إلى ساعته في توتر. دخل عليه بعد دقائق موظف وضع أمامه كأس ماء وإناءً كريستالياً فيه قطع حلوى. وكأنه يحتمل مزيداً من التوتر جاءه موظف وسأله إن اراد التوجّه إلى قاعة المحفل الرئيسية.

أومأ في ارتباك وقال «بالطبع... بالطبع».

سار بخطاه المرتبكة خلف الموظف. تأمل مبهوراً الأروقة الممتدة على الجانبين، وقد طعمت جنباتها الواسعة وأسقفها العالية برسوم زاهية في إطارات ذهبية، وتساءل إن كانت ذهباً بالفعل. الأرضيات الرخامية طعمت هي أيضاً بالأزرق والأصفر النادر منها. كان خطوه عليها يصدر صوتاً يشبه الموسيقى في صفائه وتردّد صداه حتى عمق

الأروقة الممتدة إلى ما لا نهاية على الجانبين. حتى إنه حاول أن لا يضغط بقدميه خوفاً من أن يجلب أنظار أحد بمشيته تلك دون أن يكون هناك من أحد غيره ودليله. اعتقد أنه سيمشي طويلاً، قبل أن يتوقف أمام باب عملاق مطعم بإطارات ذهبية تشبه التي على الأسقف والحوائط. عندما فتح، ما كان في حاجة لمن يخبره أنه في قاعة المحفل الرئيسية، فقد تكفلت شهقة عميقة من صدره بذلك.

خطا بقلب كادت خفقاته تسمع في الطرف الآخر من المدينة. عند المدخل وقف يتأمل مبهوراً وخائفا القبة والثريا والأعمدة الرخامية. إنه مكان عمله، مكتبه، مصيره وقدره.

«هنا يصنع الوطن» قال محدثاً نفسه «يا إلهي...»

الشيء الوحيد الذي قفز إلى عقله في تلك اللحظة هو صورة زوجته. وبهدوء تمتم «ليتك معي». نظر إلى المقاعد الجلدية الوثيرة التي تحيط بالطاولة المهيبة. كانت طويلة وممتدة إلى حيث لا يمكن رؤية طرفها الآخر.

سار دون أن تتركه ارتباكاته بمحاذاة الطاولة ينظر إلى كل مقعد وقد وضعت أمامه حافظة جلدية، أوراق، أقلام فاخرة، ضفدع، مسمار، زجاجة عطر، كأس ماء كريستالي... وأشياء أخرى كثيرة. شرع ينظر إلى ما حوله وكأنه يربط بين قامته المتداخلة على بعضها كثوب مكرمش ومهابة المكان.

«عالمان مختلفان هنا.. وهناك في الخارج»... وأكمل خطوه «مختلفان تماماً».

أحس بقدميه لا تحملانه، وأراد الجلوس، لكنه خشي حتى من

لمس أقرب مقعد له. خشي أن لا يكون هو مكانه. خشي ثانية أن يخرق عرفاً يجهله، وداهمته أسئلة زادت من بلبلته:

كيف سيراه بقية الأعضاء؟

كيف سيقترب منهم؟

عالمان مختلفان، فأي العالمين مكانه؟

ردّدت الحوائط العالية وقع خطوه وهو يسير بمحاذاة الطاولة مثقلاً بالأسئلة. وكأن شيئاً قد أدار رأسه، وقعت عيناه على الصندوق الخشبي الذي يشبه الراديو القديم، غير بعيد عنه. إنه الصندوق ذو الأربعة عشر مفتاحاً الخاص بالزعيم. كان يحمل مهابة المكان. وبدا أن له أهمية خاصة مع شريط أحمر فاخر يرتبط بأربعة قضبان ذهبية تحيط به. اقترب منه حتى بضعة أمتار وتوقف. راح يطالعه مستفسراً عما يكون. ثم تقدم خطوة واحدة، واحدة فقط، انطلق بعدها صوت بالكاد يسمع. في لحظة عين، فتحت أبواب مموّهة من قلب الحوائط وتدفق عشرات الأشخاص ضخام الجثة شكلوا في لمح البصر حلقتين: أحاطت إحداهما بالجهاز والأخرى بالزوج.

هذا ما كان ينقصه... تجمّع كل خوف خلق منذ الأزل في صدره، فكاد يسقط على الأرض لولا أن حملته بعض الأيدي القوية برفق.

«عذراً أيها العضو الموقر، لكن يحظر الاقتراب من الصندوق».

قال أحد الرجال وبدا كأنه قائدهم. ثم حملوه ووضعوه كطفل صغير فوق آخر مقعد على الطاولة المهيبة.

كاد يبكي، فما منعه سوى بعض الخجل والريبة من الأجساد التي أحاطت به. لكنها كما ظهرت في لمحة عين، اختفت بالطريقة ذاتها

داخل أبوابها الجانبية التي يصعب تمييزها.

كان جسمه يرتعش وكأنه ذبابة سقطت في كأس ماء. وانكمش على نفسه أكثر. بدا أصغر حجماً مما كان قبل دقائق. أحس أنه يختفي تحت الثياب الأنيقة التي عليه. تمنى في هذا المكان المهيب من كل قلبه أن يكون الواقع حلماً. تمنى أن يعود إلى منزله القديم، وأن تكون زوجته ما تزال تنتظره هناك. كومة أمنيات غزت رأسه الصغير الذي أخذ شكل حبة فاصوليا تماماً. بعد قليل دخل عليه الموظف الأول نفسه وهو يحمل كوب ماء. كان في حاجة إليه. ومع أنه لم يعاقر الخمر يوماً، تمنى لو كانت الكأس تمتلئ به. لقد أراد أن يشرب ما يزيل خوفه وارتباكه، هو الحريص على أن لا يخرق أيّ بروتوكول أو عرف يبدو أنه ارتكب خطيئة في مكان محرم دون أن يعرف. أي خطوة هنا في غير مكانها تعد جريمة. الشيء الوحيد الذي قد لا يكون كذلك هو أن يمد يده ويأخذ كوب الماء. لكن حتى هذه تردّد فيها. بقي ينظر إلى الكأس أمامه. تطلب الأمر بضع دقائق قبل أن تدفعه جرأة طارئة وجفاف شديد في الحلق ليأخذ الكأس ويشرب. أتاه مذاق الماء غريباً، وخمّن في سره أن كل ما سيأتي في حياته، سيكون مثل هذا المذاق. «هل يشربون ماءً مختلفاً»؟ تساءل «هل يأكلون طعاماً لا نعرفه... هل ينامون مثلنا... هل يفعلونها مثلنا»؟ أسئلة طافت عقله وهو يعيد الكأس إلى مكانها بهدوء وقد زاد انكماشه على ذاته «أنا المختلف هنا... كيف سأكون مثلهم»؟ قادته أسئلته إلى أن يفكر بخطوة غبية، أن يخرج من هذا المكان وليكن ما يكون. حاول أن ينهض من كرسيه. مرة، ثلاث مرات، عشر مرات، لكنه لم يستطع.

قوته تخونه، وقدماه، وشيء آخر لم يعرفه. شيء يأتيه من الكرسي الفخم الذي يجلس عليه. شيء غامض وجميل. أحس بقوة تتغلغل إلى جسده. حاول أن ينهض من جديد. كان كلما حاول شعر أكثر بلذة البقاء جالساً عليه. نظر إلى اليدين المهيبتين لكرسيّه ومسح عليهما بلطف. ثم تحسّس الجلد الفاخر. وبصورة تلقائية، وجد نفسه ينظر إلى الصندوق ذي الاربعة عشر مفتاحاً في البعيد هناك. لكنه لم يلبث أن أدار وجهه خائفاً.

عندما دقت الساعة التاسعة صباحاً، فتح باب المحفل على مصراعيه. قوة غامضة كانت قد سكنت نفسه. انتصب واقفاً دون عناء وأخذ ينظر إلى حيث الباب. لم يدخل أحد. نظر إلى ساعته مرة وعشر مرات وهو ما يزال واقفاً دون أن يدخل أحد. بعد ربع ساعة، وهو ما يزال واقفاً، بدأ الأعضاء يتقاطرون. لكنهم لم يكتملوا تماماً قبل مرور أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، وهو ما يزال واقفاً. وكلما ازداد وقوفه، كانت تلك القوة الغامضة التي تسللت من الكرسي إلى جسده تغادره.

عاد إليه وهنه، وحتى تلعثمه وهو يرد تحية بعض الأعضاء الذين أخذوا مكانهم قربه أو في البعيد هناك. لم يعره أيهم اهتماماً استثنائياً. بل إن بعضهم تجاهله تماماً. أحس أنه شبح في وقفته تلك، وتمنى لو استطاع أن يجلس. لكنه بقي واقفاً حتى جلس الأعضاء كلهم... وأخيراً جلس. لو تأخر دقيقة واحدة لانهار من تلقاء ذاته. فور أن لامس جسده المقعد، أحس بالشيء الغامض، واللذيذ، يتسلل إليه مرة أخرى. أخذ ينظر برأس نصف مطأطئ إلى الأعضاء من حوله غير مصدق أنه يجلس معهم، وعلى مقعد يشبه مقعدهم، ويلبس ثياباً تشبه ثيابهم مع

اختلاف الذوق. كان ذلك الشيء الغامض يزداد تدفقاً إلى جسمه، من كرسيّه، حتى إنه استطاع رفع رأسه كاملاً بعد أقل من خمس دقائق.

عدد الأعضاء أكبر مما تصوّر. معنى هذا أن من زاره في جناحه الفندقي حيث كان قبل أن ينتقل إلى منزله، ليس سوى بضعة أعضاء فقط. وهذا يعني أنه ربع مقبول هنا. وعليه أن يتوقع بعض التحقير وحتى بعض العداء. لكنه ما دام جالساً على كرسيّه ذاك، فهو سعيد ولو اكتفى بالصمت. وفي حدس لا يعرف كيف أتاه، أدرك أنه لن يكون استثناءً، فإن لم يكن جميع الأعضاء متفقين على وجوده بينهم، فهم أيضاً قد لا يتفقون بعضهم على بعض. أما العداوات، فما دام هناك مقعد وثير تحت القبة الفاخرة، فإنها تصبح جزءاً من الحضور.

افتقاره إلى أي خبرة سياسية، أو مشاركة في صنع قرار وهو الذي عجز عن شراء غسالة جديدة، كانت المسألة التي يجب أن تقلقه. لكنه عوضاً عن ذلك بقي يفكر بمدى تقبّل وجوده. لم يفكر، حتى تلك اللحظة، كيف سيكون أداؤه هو، أو كيف سيخدم أولئك الذين رفعوه فوق أكتافهم ليدافع عن مطالبهم.

مع أن مقعد الزعيم على رأس الطاولة كان خاوياً، إلا أنه أخذ ينظر بما يشبه الاختلاس إلى وجوه الأعضاء وكأنه يبحث عن الزعيم بينهم. لكنه لم يكن. ولم يشارك في اجتماع المحفل. أخذ بعض الأعضاء ينظرون في أوراق كانت بين أيديهم، فيما انصرف آخرون إلى حوارات هامسة في ما بينهم. لزم هو الصمت واكتفى بهمسه مع نفسه وبتأمل خجول لتفاصيل تحيط به. كان الجميع يلبسون ثياباً لا تخفي ثراء أصحابها، وعناية لا تغيب بأدق التفاصيل. حتى أيديهم

كانت تختلف عن يديه هو وإن كانت ملابسه تشبه ملابسهم. الأقلام التي يحملونها، الساعات التي يلبسونها، أحذيتهم الجلدية، كلها تفاصيل تكشف ماهية الحياة التي يعيشها هؤلاء الأعضاء. أقربهم إلى يمينه عضو له شارب يكاد يغطي نصف وجهه تفوح منه رائحة جميلة، تليه عضوة لها ابتسامة عريضة تليق بجسمها الذي يشبه شجرة جوز، وبجوارها عضوة أخرى بدت منصرفة إلى بعض الأوراق، تضع ماكياجاً ينسكب على الطاولة من كثافته. أمامه مباشرة عضو يبدو أنه ولد غاضباً هكذا، وبجواره عضو آخر يصر على أن يرى العالم من وراء نظارة سوداء لعله ينام بها. في البعيد استطاع أن يميز بصعوبة العضو النحيل الجسم، بالقرب من مقعد الزعيم على رأس الطاولة، الذي كان أول من زاره في جناحه الفندقي، وبالقرب منه جلس صاحب صلعة محترمة أكثر بريقاً من مرآة مصقولة، وإلى يساره صاحب كرش وقورة فاض جزء منها فوق الطاولة. وبين مسافة مقعده ومقدم الطاولة جلس أعضاء لبعضهم لحى شديدة التشذيب وأخرى تعاند الجاذبية.

قبل أن يكمل زيارة الوجوه المجاورة تنحنح العضو النحيل الجسم فساد القاعة صمت عكس مكانة من سيتحدث.

«أبلغكم سلام الزعيم، وأرحّب باسم محفلنا الموقر بالعضو الجديد معنا». قال في اقتضاب وأشار بيده إلى مكان الزوج. حيّاه بعضهم بإيماءة سريعة، ولم يهتم آخرون بمجرد النظر إليه. هز رأسه بما حمله من بقايا ارتباك ورد التحية وقد نهض من مقعده «عالمان مختلفان ولا شك» قال يحدث نفسه ويقارن بين استقبال الشارع الحار لعضويته

في المحفل، واستقبال المحفل الأبرد من ثلج سيبيريا. مع هذا أحس بأن الجميع ينظرون إليه، دون أن يديروا رؤوسهم، واثقاً من أنهم يتفحصونه جيداً من وراء تجاهلهم، كما لو أنه كائن مخيف ومجهول. هو خائف منهم، وهم أيضاً منه خائفون. في أفضل الصور، هم لا يثقون به، كما هو لا يثق بأحد هنا.

«نجتمع اليوم أيها السادة لنناقش ما يمر به الوطن» قال نحيل الجسم «احتجاجات الشارع التي هدأت مؤخراً، قد تنطلق من جديد. فهناك المتطرفون، وهناك أعداء الخارج، وهناك بطبيعة الحال المجرمون والقتلة الذين يريدون إحداث فتنة. إن شرعية الوطن لا تتحقق بالقوة، بل بالتنمية، والمشاركة السياسية التي هي حق الجميع». لم يعلق أحد وإن قدر الزوج أن لبعضهم رأياً آخر. مضى نحيل الجسم في حديثه «من أجل هذا يجب أن نكرس جزءاً كبيراً من وقتنا لذلك ليس حفاظاً على سلامة الوطن فقط، بل وتحقيق آمال شعبه».

«وهل بقيت هناك تنمية أكبر من تلك التي نقوم بها اليوم»؟ تساءل أحد الأعضاء.

«نحن أفضل من دول كثيرة في العالم، بل ودول كثيرة تحيط بنا» أيّده عضو آخر.

«نعم... هذا صحيح» ردّد بعضهم.

ساعة كاملة من النقاش في المحفل دارت كلها بين عضو واحد فقط يطالب بالتنمية والمشاركة السياسية، وبقية ترى أن الوطن هو في أفضل حالاته.

«إنهم متطرفون لا أكثر» قال عضو له لحية مشذبة.

«ربما كان بعضهم كذلك... لكن البقية مجرمون» أجابه عضو بجواره.

أحس الزوج بنخزة وهو ينظر إلى بعضهم ينظرون إليه عندما نطق العضو بكلمة «مجرمون». اختل شيء في داخله وهو يفكر إن كانوا ما يزالون يرونه مذنباً دون ذنب.

«سواء أكانوا متطرفين أم مجرمين، فإن ما يحركهم طمعهم في السلطة، أما مسألة التنمية أيها العضو الموقر... فاسمح لي بالقول إننا ننفق كل عام على الوطن أكثر مما ننفق على محفلنا هذا» قال عضو ثالث.

«سأظل مؤمناً بشيء واحد أيها المحفل الموقر» قال عضو الأمن السريع الغضب «وهو أن القوة وحدها ما سيحمي الوطن، وأكملوا مشاريع التنمية كيفما تشاؤون».

أثار هذا العضو تحديداً، الذي لم يعرف الزوج حتى اللحظة منصبه، رهبة في نفسه. إن كان قلب الإنسان دليله، فقد ذكره هذا الدليل بالمحقق في السجن، وكأنه صورة من هذا العضو الذي يتحدث بحدة.

«أيها السادة...» قال نحيل المحفل «قد يكون الإرهاب أو التطرف أو أي شيء آخر هو ما يحرك الشارع. لكن هناك قرار اتخذ بأحقية الناس في أن يشاركوا في السلطة بممثل عنهم، وأعتقد أن العضو المبجّل الجديد في محفلنا هو خير من يفعل ذلك» وأشار ثانية إلى الزوج الذي ما عرف بما يجيب، وواصل العضو حديثه «وأقول تحسباً، أيها السادة، بعد أن هدأت صرخات الشارع، أننا في حاجة فوق ذلك إلى برامج تنمية أكثر شمولاً».

«لقد فعلنا كل ذلك... بل وفعلنا ما هو أكثر» قال أحد الأعضاء.

«أتفق مع العضو المبجّل» قالت عضوة المحفل الممتلئة الجسم «فنحن حتى اللحظة لم نعلن عن بدء رسمي لما أقره الزعيم من مشاريع تنمية الوطن في حاجة لها».

«المستشفى قد أضفنا له قسماً آخر. والمدارس ازداد عددها. وحتى رواتب الموظفين ارتفعت بنسبة لا تقل عن خمسة في المئة. فماذا يريدون أكثر من ذلك»؟

«غير كافٍ» قالت العضوة بصوت قوي.

«بل يكفي وأكثر» أجابها عضو آخر وردّد من بعده معظمهم العبارة ذاتها.

الشيء الذي خرج به الزوج من اجتماع اليوم الأول أن هذا المحفل لا يعرف الكثير عن الوطن، وأن الحوائط الرخامية العالية، والنظارات السوداء، والسيارات المصفحة، تحجب رؤية الوطن كما هي حقيقته عنهم.

هؤلاء الذين يرون التنمية في أقصى حالاتها، لم يذهبوا إلى المشفى الوحيد في الوطن، ولا يعرفون أن السجون أكثر من المدارس، وأن المدارس بلا مقاعد، وأن الكلاب التي تجوب الشوارع تخاف أن يأكلها الناس، وأن العصافير قد هجرت أوكارها. منذ اليوم الأول، أدرك الزوج، أن الوطن الذي يتحدّث عنه الأعضاء داخل المحفل، هو غير ذلك الوطن الذي يعرفه وراء الباب المهيب للمحفل.

خشي الزوج لو نطق برأيه. أحس بأن الكرسي الذي يجلس عليه وثير جداً، إلى الحد الذي يعقد اللسان عن نطق ما يعكر صفو المكان وفخامته. فكر في سره أنه إن أراد أن يقدم رأياً، فمن الأفضل أن

يكون بأدنى قدر من الإثارة، وإن كان الأفضل أن يبقى صامتاً.

انفض الاجتماع دون قرارات محددة، أو حتى اتفاق على رأي واحد. نهض الأعضاء من مقاعدهم، ونهض هو معهم بإحساس أكثر ثقة بأن الجميع كانوا ينظروا إليه بشكل ما، وتوجّس ما. بدأوا انصرافهم، واقترب هو من نحيل الجسم في تردد. سلم عليه مطبقاً على يده بكلتا يديه شاكراً على الترحيب به. سأله ما الذي ينبغي عليه فعله. «احضر وشارك في الرأي... هذا كل شيء» أجابه بصوت مطمئن ومضى.

كان الزوج آخر المغادرين للقاعة. فور أن تجاوز الباب الكبير أحس بقبضة قوية تمسك بمعصمه «تعال معي وابق صامتاً».

* * *

«هل تكرّم العضو المبجل وأخبرنا عن سبب اقترابه من الصندوق»؟ سأله موظف يجلس في مكتب فاخر في أحد أروقة المحفل. ومع أن السؤال كان بأدب شديد، والمكان في غاية الفخامة، إلا أنه سرعان ما تذكر المحقق وزنزانته.

«لا يوجد سبب محدد لذلك...» أجاب الزوج بصوت حاول أن يبدو متماسكاً «إنه الفضول فقط... لكني أعتذر بشدة، بشدة شديدة... إن... إن أسأت التصرّف».

«إن الزعيم...» قال الموظف وصمت قليلاً وكأنه يقرأ شيئاً في ارتباكات الزوج «قد أبدى انزعاجاً شديداً من اقترابك من هذا الصندوق».

«الزعيم...؟ وهل الصندوق خاص بالزعيم...»؟ تساءل في سره وقال «إنه جهل مني وسوء تصرف... أنا... أنا... لم أقصد شيئاً أيها السيد المحترم، إنه فضول غبي... أطلب الصفح من الزعيم الموقر... و... ومن المحفل كله».

«أيها العضو الموقر... تحت قبة المحفل، أنت تمثل الوطن، لكن الاقتراب من الصندوق شيء آخر».

«أعتذر ثانية... أعتذر» وطأطأ رأسه.

«هل تسمح لي بأن أسألكم ما الذي أثار فضولكم في هذا الجهاز»؟

«إنه... إنه مثير للفضول... أعني في هذا المكان أن تجد صندوقاً... جهازاً... إنه ولا شك» وغلبه الخوف فبدا حديثه يشبه طفلاً يبدأ الكلام لأول مرة «لكني... وأقسم أيها السيد المحترم، وهذا الصندوق المحترم، لم أفعل شيئاً... إنه محترم أليس كذلك، أقسم إنني لم أقصد شيئاً... شيئاً سيئاً».

«نعلم هذا ولا شك... نعلمه جيداً» أجاب الرجل الجالس قبالته.

«... لكن أيّها المحترم» قال الزوج وكأنه يتذكر شيئاً «لم يكن...» لم يكمل عبارته وصمت.

«لم يكن ماذا أيها العضو الموقر»؟

«أقصد... لم يكن الزعيم... هنا اليوم...»

«أيها العضو الموقر» أجاب الرجل بصوت رخيم «الزعيم موجود في كل مكان ولو لم تره بنفسك».

«نعم... نعم... لا شك في ذلك» أجاب الزوج دون أن يعرف ما يعني الرجل.

«أعتقد أنك لن تقترب من هذا الجهاز ثانية... أليس كذلك»؟

«بالطبع... بالطبع... كن واثقاً أيها السيد المحترم أني لن أفعل».

غادر الزوج المحفل مع الظهيرة تقريباً... وجد نفسه يهرول وكأنه هارب من المكان. حتى إن سائقه اضطر إلى اللحاق به على قدميه خارج المحفل ليخبره أن سيارته هناك، وأنه رهن إشارته.

في السيارة أخذت الأفكار في رأسه تخترق بعض السكينة التي داخلته وهو يخرج من ثوب اليوم الأول. إن كان من وصف لهذا اليوم فأمنية أن لو لم يكن. لكنه سرعان ما تذكر المقعد الخاص به على الطاولة العظيمة، المقعد الوثير، والشعور اللذيذ وإحساس القوة الذي أتاه منه. فعارض أمنيته الأولى بأمنية ثانية أن يبقى له ذلك المقعد ما دام في المحفل.

قبل أن يقترب من داره عاد يرى بعض الجموع تحيط بها. لم يعرف لحظتها هل هو سعيد برؤية هؤلاء البسطاء يحيطون به، أم هو خائف منهم؟ بين هذا وذاك استطاعت بعض أصوات المعارضين والمحتجين أن تخترق زجاج سيارته المصفحة. مطالبها إصلاح. مطالبها المحفل. مطالبها وضع أفضل. وتذكر على الفور تلك المداخلات بين الأعضاء. قدر في استماعاته تلك أن بعضهم ربما كان صادقاً في أن هؤلاء المحتجين طامعون في السلطة لا أكثر. لكنه لم ير بينهم، مرة أخرى، من يحمل سمات تطرّف أو إجرام. هناك الملتحي وهناك الحليق. هناك الصغير وهناك الكبير. وجميعهم يتلزمون الهدوء والانضباط .

أول ما فعل بعد أن دخل منزله الجديد تلك الظهيرة أن توجّه

مباشرة إلى الحائط الأبيض الذي رسم بإصبعه ملامح زوجته عليه البارحة. وقف يتأمّله وكأنه يراها بالفعل. غارقاً في تأمله دون أن يسمع صوت الخادمة من ورائه تخبره بأن الغداء جاهز، بدأ يرسم من جديد، وبإصبعه فقط. بعد نصف ساعة، بدأت ملامح امرأة تبدو أكثر وضوحاً على الحائط. توقف عن الرسم وتراجع خطوتين يتأمل ما رسم. من بعيد ليس هناك شيء. عن قرب، هناك هي ولا شك.

أطرق رأسه وكأنه ينظر إلى ماضيه مسكوباً على الأرض، متسائلاً أين تراها تكون. أراد أن يقسم على أن يكرّس حياته لمعرفة مصيرها. لكنه إن فعل فمن الأفضل أن يعرف المصير الذي ينتظره هو أولاً.

لم يتناول أكثر من وجبة طفل على الغداء. عندما نهض قال للخادمة «أعطي الطعام لأولئك الذين يقفون في الخارج».

همّ بالتوجّه إلى حجرة نومه، لكن قادته قدماه إلى حيث غسّالة الثياب المجاورة للمطبخ. وقف يتأمّلها وهي تغسل أشياء وضعتها فيها الخادمة. تذكر غسّالته. لا بد أنها ما تزال مع المحققين. لا بد أنهم عرفوا أنها غسالة إذاً. لكنه ما يزال حتى اللحظة، بعد انقضاء أسبوع أو أكثر، عضواً في المحفل. الريبة التي أحس كل الأعضاء ينظرون بها إليه، وإن لم يظهروا ذلك، سببها ولا شك تلك الغسالة، السلاح الخطير. لكن تجاهلهم له يعني أيضاً أنهم أدركوا لعبة الغسالة المعطوبة، ربما، وما بقاؤه في منصبه المحفلي إلا إسكات لصوت الشارع الغاضب. إنه يعود بتفكيره إلى النقطة الأولى.

«يكفي تفكيراً... وليكن ما يكون» قرر في سرّه ومضى إلى غرفته. أحس برغبة في النوم. كان يريد أن يهرب إليه. فإن كان ما يحدث ليس

حلماً رغماً عن إرادته، فليصنع حلماً بإرداته. بقي نائماً حتى أحس بصوت يوقظه. تهيّأ له أنه بدأ يصنع حلمه الخاص. لكنه بعد أن فتح عينيه متيقناً من استيقاظه، سمع الصوت ذاته. تساءل إن كان هو حلماً في حلم؟ استوى جالساً فوق سريره منصتاً إلى مصدر الصوت. لم يأته من إحدى زوايا حجرته، بل من خارجها. إنه صوت يشبه صوتها. قام بثياب نومه وغادر حجرته إلى الصالون الكبير. لم يكن من أثر للصوت. توجّه إلى حيث الحائط متأملاً آثار رسمته الإصبعية عليه.

لم يملك تفسيراً للصوت سوى أنه حنين لزوجته. حنين جارف لها. نظر من وراء نافذة كبيرة إلى الخارج، حيث بعض المتجمهرين ما يزالون مكانهم. شعر بأنه في سجن فخم. يحرسه أناس خائفون عليه، وآخرون يريدون النيل منه. حنّ لمنزله القديم. كما هو حنينه لها، وللحيّ الفقير الذي كانا يسكنانه. تلك الأشياء البسيطة التي كانت تسعده، قد سلبت منه. لو كان الأمر بيده لغادر المكان والمحفل والمقعد الوثير الذي أحبه. لكن... هل يستطيع؟ فكر أن يذهب إلى الحيّ الذي كان يسكنه، لكنه أحجم خوفاً من مشاعر حزن تأتيه ككوابيس ليلية، ومن أن يكون تحركه مرصوداً وقد يساء تفسيره.

«لا أصدقاء... لا أصدقاء...» تمتم وهو يعود إلى أريكته الجلدية غارقاً في بحيرة صمت. في هيئته التائهة تلك، بدا كشيخ كبير... حزين... ينتظر الموت وحده.

تلك الأمسية، عاد يضيء غرف المنزل الكبير كلها، حتى غرف الضيوف التي ليس بها أحد، والمطبخ والحمامات، والغرفة الصغيرة للغسالة. بدت الدار تشعّ كلؤلؤة في عتمة تجثم على صدره.

وسط هذا الوهج الذي ازداد مع حوائط المنزل البيضاء، عاد الزوج يكمل رسمه الإصبعي على الحائط. أمضى أكثر من ساعتين يضع تفاصيل هنا وهناك. من يرَهُ يرسم بطرف إصبعه المجرد شيئاً خاوياً على حائط أصم، يدرك ما وصل إليه يأس الرجل.

لكنه أنجز شيئاً بالفعل. إنه رسم امرأة يتدلى من الطرف الأخير لشعرها خصلة تبرز من الحائط. لقد بدا أن خياله ما يرسم لا هو، وأن هذا الخيال قد خلق واقعاً عجز الواقع عن صنعه. لم يكن وحده القادر على رؤية ما رسمه على الحائط، بل حتى كاميرات المراقبة التي أخفيت في كل ثريا وكل ركن وكل قطعة أثاث قد صوّرت الأمر نفسه.

بدأ عرق يتصبّب منه كمن يتسلق جبلاً. عرق لا مبرّر له، وحالة تيه لها ألف تبرير. لم يقطع خلوته سوى الخادمة تخبره أن العشاء ينتظره. سار إلى حيث طاولة الطعام يتأمّل ما أعد من أجله. التفت إلى الخادمة وكرّر عبارة الغداء ذاتها «أعطيه لأولئك المتجمهرين في الخارج» ومضى إلى حجرة نومه دون أن يتناول شيئاً.

تمدّد منهكاً على سريره. فور أن أغمض عينيه، أتاه اتصال هاتفي سيحدّد مصيره إلى الأبد:

«الزعيم يطلب رؤيتك في التاسعة صباحاً».

* * *

ساعة كاملة استغرقتها محاولة ربط أزرار ثيابه، وساعة أخرى لربط حذائه، ثم نصف ساعة وهو يشرب كأس ماء يأبى الدخول إلى جوفه. في الثامنة والربع، ألقى نظرة إلى الحائط الأبيض حيث خصلة الشعر

المتدلية من الحائط، ثم غادر المنزل غير واثق من عودته.

كان يبدو في كامل لياقته التي استطاع أن يقتبس بعضها من أعضاء المحفل أمس. عيناه اللتان تصنّعتا ثقة زائفة كانتا تخفيان جسداً محطماً وأعصاباً متهالكة أسوأ من أيام الزنزانة. ولو قدّر لأحد أن يجول وراء عينيه، لاكتشف أن ذلك الرجل المتأنق في السيارة الفاخرة التي تأخذه صباحاً لمقابلة الزعيم، هو آخر مختلف تماماً عن الزوج المرح، الساخر من كل شيء، والمكتفي بكل شيء، كما كان منذ بضعة أسابيع، أو حتى بضعة أيام.

فكرتان كانتا تتخبّطان في جنبات رأسه، كمطرقتيْ جرس كنيسة، منذ الهاتف المسائي. أولاً، أن هناك أمراً جللاً ليس أقله أن يكون أمر غسّالته قد اكتشف بالفعل وإلا ما طلب الزعيم رؤيته. الأمر الآخر هو أن اقترابه يوم أمس من صندوق الزعيم، كاد يقضي عليه، فما بال الاقتراب من الزعيم ذاته؟

كان ينظر إلى الطريق الذي تسلكه السيارة وكأنه يساق إلى مقصلة. إنه الزعيم الذي سيراه الآن، لا أعضاء محفل. إنه الزعيم الذي لم يره سوى في التلفاز منتصباً كسنديانة موشحاً بالأوسمة كشجرة عيد ميلاد.

حاول أن يهدّئ من روعه وهو يهز كلتا قدميه على مقعده الخلفي في سيارته. حشر في رأسه عنوة فكرة أكثر بساطة لتسهيل الأمر عليه. أن الزعيم سيلتقي بالأعضاء كلهم، لا هو وحده، وأنه قد طلب من كل واحد الحضور في التوقيت ذاته، فمن يكون هو ليراه الزعيم وحده؟

لو كان الأمر بيده ما نزل من سيارته بعد أن توقفت أمام باب

المحفل. لكنهم فتحوا له الباب في أدب اطمأن له قليلاً. لم يدر هل كانوا في انتظاره شخصياً أم هو الاستقبال المعتاد لأي عضو آخر. اصطف بضعة عاملين لتحيته في ابتسامة وإيماءة رأس خفيفة. لم يكن هو الاستقبال ذاته صباح أمس ولا شك.

فور أن ولج إلى القاعة الصغرى التي تؤدّي إلى القاعة الكبرى، تقدّم إليه رجل له طلة هادئة. رحّب به في أدب جم «تفضّل من هنا أيها العضو الموقر...» ومضى به عبر الرواق العالي الممتد إلى ما لا نهاية، حتى توقفا أمام غرفة فخمة. كاد يرتطم ببابها من شدة ارتباكه وعقله يردد عشرات المرات كلمتين في رأسه «العضو الموقر»، ويبحث بعينين زائغتين عن أعضاء آخرين. من الغرفة الفخمة الأولى دخل إلى غرفة أكثر فخامة وأكبر حجماً، ثم إلى أخرى أكثر فخامة وأكبر ثم رابعة فخامسة. ما عرف كم باباً فتح وأغلق، حتى وصل إلى غرفة هي بنصف حجم قاعة المحفل، وأكثر بهاءً وزخرفة. عرف لاحقاً أنها المكان الخاص بالزعيم. لا أحد هنا غيره. سيكون وحده معه إذاً. كم أرعبته الفكرة.

جلس متقرفصاً على مقعد من خشب محفور مذهّب. كانت الساعة تقترب من التاسعة. سأل نفسه إن كان العالم قد حدث فيه شيء قلب الأشياء إلى ضدها. هو لم يكد يمتص صدمة عضويته في المحفل، وجلوسه مع الأعضاء زميلاً لهم، فكيف به يلتقي زعيم الوطن؟ إنه الوطن كله، ورمزه، وقيادته و... «ما الذي يحدث معي»؟ سأل نفسه للمرة العاشرة منذ دلف إلى هنا، وأخذ يحرك ساقيه في توتر وكأنه الجالس دائماً على محرك سيارته المهترئة.

مع دخول الزعيم، برفقة عضو الأمن في المحفل، الذي ما كان يعرف حتى اللحظة أنه عضو أمن، كان جسد الزوج قد تخشب بكامله. عندما نهض، كان جسمه قد أخذ وضع الكرسي موشكاً على السقوط.

«هذا هو إذاً»؟

«نعم أيها الزعيم، إنه هو».

«وما باله يرتعد حتى ليكاد يسقط»؟

«انصب قامتك أيها الرجل» قال عضو الأمن في صوت جهوري آمر.

حاول الزوج أن يرفع من قامته فأحس بعظام ظهره تخرج من مكانها. بدا منهزماً وهو يحاول أن يقف مستقيماً ما استطاع أمام الحضرة العالية. عندما رفع رأسه وجد نفسه أمام رجل أنيق حريص على لياقته، بما يجعله أصغر من حقيقة عمره ثلاثين أو أكثر من الأعوام.

«إنه لا يخيف عصفوراً»؟ قال الزعيم «تماسك أيها الرجل، فأنت عضو في محفل الوطن».

بتلعثم وحلق أشبه بصحراء جافة نطق الزوج «فخر لي... جداً... أن أقف بين... بين أيديكم. أشكركم أيها الزعيم على... على منحي هذه الفرصة... لـ... لخدمة الوطن، أقصد... أقصد... خد... خدمتكم».

«خدمتنا هي خدمة للوطن...»

«أيها الزعيم»... همس عضو الأمن «من الحكمة الحذر منه، فما زال داخله من العامة».

«لمن هو ولاؤك اليوم»؟ سأله الزعيم.

«لكم... لكم سيدي و... ولا شك». أجاب الزوج وهو يفكر

بكلمة «اليوم» ما يدل على أن الزعيم لا يزال يشكك في نزاهته أو إجرامه.

بقي الزعيم ينظر إليه صامتاً فيما عضو الأمن يهمس من جديد في أذنه ما لم يسمعه الزوج الغارق في ارتباكه. أشار الزعيم إلى عضو الأمن بيده وكأنه يقول «أنا أدرى بالأمر منك» دون أن يزيح ناظريه عن الزوج الذي أحس بنافورة دماء ساخنة تضرب سقف جمجمته. فجأة أطلق الزعيم ضحكة مجلجلة قال البعض إنها سمعت من آخر حدود الوطن. أعاد ضحكته بجلجلة أقل، وجلس إلى كرسي فخم تعلوه ابتسامة كبيرة.

«تلفاز خرب إذاً...»؟ وأطلق ضحكة ثالثة.

«بل غسالة معطوبة» قال عضو الأمن.

«غسالة أم تلفاز... كلاهما يغسل شيئاً ما. هه هه... قل لي أيها العضو الجديد» بلع الزوج ريقه كمن يبلع حصاة وهو يسمع الزعيم يخاطبه «كيف كان يومك الأول في المحفل»؟

«كان... كان جيداً أيها الزعيم. جيداً... جداً... أدامكم الله».

«أحياناً... يكون الخطأ الذي نرتكبه في حياتنا هو أكثر الأشياء الصحيحة التي نفعلها دون أن ندري... وقد قادنا الخطأ الذي اعتقدناه إلى اختيارك لتكون ممثلاً عن البسطاء في الشارع».

«أنا... يا سيدي...» في الحقيقة لم يدرك الزوج مقصد الزعيم، أهو معه أم عليه، فما عرف بم يجيب.

«أنت ماذا»؟ سأل الزعيم بصوت أصاب أذن الزوج كرصاصة حارقة.

«أنا يا سيدي... لم أقل شيئاً يمسّ شخصكم الكريم يوماً... ولا... ولا شاركت في تظاهرة ولا حملت لافتة.. لافتة واحدة يا سيدي».

«لكنك أيضاً لم تشارك في تظاهرة تأييد» قال عضو الأمن.

«كنت... منصرفاً إلى علاج... زو... زوجتي» أجابه وهو ما يزال في وقفته المنكسرة تلك.

«وغسّالتك المعطوبة...» قال الزعيم في تبدّل مزاجي سريع.

« لم... أكن قادراً... على... على شراء واحدة جديدة».

«إنك رجل محظوظ... أتعلم ذلك»؟

«أنا... محظوظ... بخدمتكم سيدي».

راقت الردود البسيطة للزوج مزاج الزعيم «إن أحسنت خدمتنا، وخدمة المحفل، تكون قد خدمت الوطن. وتلك هي مهمتك».

«نعم سيدي... بكل... بكل تأكيد» أجاب وقد داخله ما يطمئنه قليلاً. تمنى تلك اللحظة لو تهبه السماء الجرأة كي يسأل الزعيم عن مصير زوجته. لكنه كان يحتاج إلى كل جرأة خلقت في تاريخ البشرية ليطرح سؤالاً كهذا. لا السماء وهبته ما يريد، ولا تاريخ البشرية كريم بما يكفي أمام رمز الوطن.

«إن أجمل ما أنت عليه اليوم هو عدم تعلقك بالسياسة. ابق كما أنت». قال الزعيم.

«أنا... لا أحبها... سيد» وقبل أن يكمل أطبق كلتا يديه على فمه وتسارعت نبضات قلبه محركة الثريا التي فوق رأسه. فقد نطق، وأمام الزعيم مباشرة، بكلمة «لا».

غريب... غريب جداً أن الزعيم وعضو الأمن الواقف على يمينه

اكتفيا بنظرة صامتة اخترقت رأسه حتى أحس بالهواء ينسل من ثقب فيه.

دون أي تعبير آخر، مضى الزعيم يقول «إن الأمور تتغيّر كما ترى... هكذا تستطيع أن تخبر الآخرين بأن محفلهم بات أكثر انفتاحاً».

«نعم... سيدي... إنه كذلك ولا شك».

«لكن... إياك أن تقولها ثانية».

«أعدك... أعدك سيدي».

«يبدو أنك ستكون عضواً جيداً في محفلنا. هذا جميل. والآن أريد أن أعرف منك لماذا هم الناس غاضبون منا»؟

«غاضبون... من هم سيدي»؟

«هؤلاء... الذين يتظاهرون ضدنا. فقد كنت تعيش بينهم».

فكر الزوج، في لحظة، أنه ربما خلق في هذه الدنيا كي يُحَقق معه فقط. البداية مع المحقق في الزنزانة، ثم موظف الأمن في المحفل، والآن الزعيم ذاته.

في ارتباك أجاب «سيدي... أنا لست أعلم... سبب ذلك. في الحقيقة... أعتقد... يعني... ربما أن أحداً يحرضهم».

«آآآه... كلام جميل. ألم أقل ذلك منذ البدء أيها العضو الموقر» قال الزعيم مخاطباً عضو الأمن الواقف بجواره.

«نعم أيها الزعيم. قلتم ذلك».

«من المحرّض برأيك»؟ سأل الزعيم.

«أعداء الوطن... ولا شك... نعم ولا شك».

«ومن يكون هؤلاء في رأيك»؟

«أنا... أنا يا سيدي لا أعرفهم. ولو عرفتهم... لأخبرتكم... ولا شك... نعم... بدون أدنى شك».

«ولأننا لا نعرف من يحرضهم على وجه الدقة، فإننا لا نملك سوى أن نعيد توجيه أبنائنا بغسلهم من تلك الأفكار التي يزرعها البعض في عقولهم».

«نعم... معكم الحق سيدي» أجاب الزوج دون أن يفهم أيضاً ما قصده الزعيم.

«... دعني أسألك شيئاً...» قال الزعيم «تلك الغسالة المعطوبة...»

سقط قلب الزوج بين قدميه وأجاب في تلعثم «ن... ن... نعم سيدي...»

«تلك الغسالة المعطوبة، كنت تصلحها، أليس كذلك»؟

«نعم... نعم سيدي... كنت أصلحها».

«هل تفهم جيداً في مسائل التقنية والإصلاح»؟

«ليس... ليس كثيراً. لكنني أحب... التعامل معها».

«... أجبني ولا تخفِ شيئاً».

«أقسم سيدي... بأني لن أخفي شيئاً».

اقترب الزعيم مسافة أربع خطوات من الزوج وسأله «ما الذي دفعك تحديداً... إلى الاقتراب من الصندوق في المحفل»؟

* * *

هل كان عليه أن يتناول نصف علبة دواء تخفف ضجيج قلبه

ليستوعب ما طلب منه الزعيم؟

لقد فعل ذلك فور أن دخل منزله. ودون إرادة منه، وجد نفسه يجلس نصف عار فوق سريره، كتمثال ناسك يتعبّد.

هل كان الزعيم يهزأ به؟

هل كان يختبره؟

هل ما قاله ينبئ عن مستقبل أكثر غموضاً مما هو فيه؟

هل هي خديعة ما؟

لقد ذهب إلى الزعيم غير واثق من عودته، فإذا به يعود محملاً بما لا يستطيع عقل أن يستوعبه. في جلسته الحجرية تلك شرع يكرّر الأسئلة ذاتها ردحاً من الوقت. ثم نهض يجول في أرجاء المنزل يبحث عن شيء لا يعرف ما هو.

توقف أمام الحائط الذي بدت فيه ملامح زوجته التي رسمها بإصبعه وهو يسأل نفسه ما إذا كان لقاؤه الأول بالزعيم، الزعيم نفسه، بشحمه ولحمه وعظمه، قد تم بهذا الشكل، وأن يطلب منه شخصياً، بشحمه ولحمه وعظمه، أن يستفيد من مهاراته التقنية العالية، كما وصفها بلسانه الموقر، من أجل خدمة المحفل والوطن.

«... ثم... من أكون أنا أيتها الغائبة؟ هل تتخيّلين هذا؟... هل تصدقين؟... ليتك كنت معي، ليتك...» ألصق رأسه على رسمها. وكأنه أحس بهمسة تصدر عنها عاد إلى الوراء فزعاً. «ماذا...؟ هل تتحدثين إلي»؟

وقف مذهولاً ينظر إلى الرسمة، ثم تلمسها، واقترب ثانية بهدوء. حدثته نفسه أن لو أكمل الرسمة، بتفاصيل أكثر عمقاً، فسيسمع

صوتها. لقد كانت هي الشيء الوحيد في عالمه القدري، وفق ما اعتقد، القادر على إخراجه من تفكير دنيوي متخبّط... إن استثنينا ما طلب الزعيم منه.

في وقفته تلك تداخل صوت الزعيم مع شيء يشبه صوت زوجته. إلا أن صوت الأول ما لبث أن أتاه من كل زاوية في المنزل. كأنها علامة تحذير له، أن لا يصرفه شيء في الدنيا، عما طلبه منه الزعيم، ولو كانت زوجته التي لا يعرف مصيرها.

خائر القوى، تائهاً، ألقى الزوج بجسده على الأريكة المقابلة للحائط الأبيض. صرف نظره عن رسم زوجته بتأمل السقف، الأرض، الأثاث الذي يحيط به، نظر إلى كل مكان إلا الحائط الذي أمامه. كان خائفاً من صوت الزعيم. وفي الوقت ذاته أكثر عجزاً عن تصوّر ما طلبه منه هذا الزعيم، بقامته العظيمة. فهل طلب منه بالفعل أن يتفقد صندوقه الخشبي في المحفل؟

لقد قالوا له، وحذروه، أن الاقتراب من الصندوق ممنوع، بل جريمة كاملة الأركان. مجرد الاقتراب منه قاده إلى تحقيق في يومه الأول داخل المحفل. الآن يطلب منه الزعيم بنفسه أن يقترب منه، يلمسه ويتفقده. لقد قال له بالحرف الواحد «أنت عضو مؤتمن على أمن الوطن، وفي الوقت ذاته ماهر في التعامل مع الأشياء التقنية، فانظر إلى الصندوق، وأخبرني لماذا بدأ يفقد تأثيره»؟ عاد ينظر إلى رسم زوجته «هل تصدقين أن تلك الغسالة المعطوبة وراء كل هذا»؟ خاطبها بصوت ودود، ما لبث أن أخفاه خشية حوائط الوطن التي تسمع كل شيء. اقترب من رسمها وكأنها إنسان يقف أمامه، وقال في همس

«ليتك تعلمين ما هو التأثير الذي بدأ الصندق يفقده... إنه بأربعة عشر مفتاحاً. نعم... أربعة عشر. كل مفتاح له مهمة وطنية وكأنه جندي في جبهة قتال. مفتاح للنصر. مفتاح للمناسبات الوطنية. وسبعة مفاتيح، أي نصف العدد، لتظاهرات التأييد أو الاستنكار التي يشهدها الوطن. إن أدار الزعيم أحدها، تك، هكذا فقط، تك، يتحول الصندوق الخشبي إلى منبر إعلامي يغسل عقل الوطن كله. هل تصدّقين هذا؟ تصدر منه ذبذبات تؤثر في كل شيء، وكأن رقاقة إلكترونية قد زرعت في عقل كل إنسان لحظة خلق، تحرّكه وفق ما يأتي من الصندوق... هل تصدقين شيئاً كهذا»؟

أطلق الزوج ضحكة خافتة، بدت أشبه ببكاء صامت، ماسحاً براحة يده الرسمة التي على الحائط.

«أنا... الرجل البسيط الذي لا يملك مالاً يصلح به غسالته المعطوبة، يريد منه زعيم الوطن أن يتفقد جهاز الوطن. يقول إن تأثيره ما عاد كما كان. الاحتجاجات تشتعل في البلاد. ولو كان الصندوق يعمل كما كان، لاستطاع مفتاح واحد أن ينهي المسألة. لكن أربعة عشر مفتاحاً عجزت عن ذلك. هكذا... زوو... بكل بساطة، ما عاد كلها كما كان... ليأخذ الصندوق حبّة فياغرا إذاً... هههه... نعم... أو حبتين» وصدرت عنه ضحكة، أو بكوة صغيرة، سرعان ما كتمها.

وقفته أمام الحائط، يحادث هامساً شيئاً عليه، أعطته ملامح الناسك المتعبّد ذاتها.

هزل جسمه مع اكتفائه بكأس ماء وبضع لقيمات في اليوم. كان يطلب من الخادمة الشيء ذاته، أن تأخذ الطعام إلى المحتشدين في

الخارج. ذاك المساء، أخبرته أنه لم يعد من أحد يحتشد في الخارج منذ عاد من لقاء الزعيم. لكن كيف عرفوا أنه التقى بالزعيم؟ سأل نفسه وهو يزيح الستائر فلم يجد أحداً من الذين كانوا يؤيّدونه يقف هناك. حتى الذين كانوا ضده، ما بقي منهم سوى بضع لافتات مهملة ممزقة تنتصب كخيال المآتة. لقد انصرف عنهم إلى المحفل، والتفكير بالمهمة الخطيرة التي طلبها الزعيم.

أحس بطاقة جسمه تنسل من قدميه الحافيتين وسط داره. لعله كان يلتمس القوة من البسطاء الذين كانوا يحتشدون في الخارج تأييداً له. هل يعني انصرافهم أنهم ما عادوا يؤيدونه أم انصرفوا لقضاء أعمالهم وسيعودون؟

لم يكن يدرك أنه في مكان غير بعيد عن منزله، كانت التظاهرات تكبر، وأن حظراً لمنع التجول قد صدر منذ الصباح.

شغلته مسألة العربة المصفحة، التي يراها تجثم لأول مرة قرب داره، وتفرّق الناس عنها، بضع دقائق عن تفكيره الأول. ولم يعرف كيف قادته قدماه الحافيتان إلى تلك الغرفة الصغيرة في نهاية الممر قرب المطبخ، حيث غسالة الثياب. قرفص قبالتها يعبث بمفتاح يضيئه ويطفئه. سألته الخادمة إن أراد مساعدة ما، لكنه كان شارداً في قرفصته تلك. لو كان للغسالة أن تفكر، لتساءلت ما يفعل أحمق يتقرفص أمامها في كل مناسبة ولا مناسبة؟

نهض كرجل آلي وتوجّه إلى حجرته. استلقى على سريره وهو يفكر في ما أمره الزعيم «اذهب إلى منزلك اليوم واسترح، وفي الغد، ابدأ ما أمرتك به».

«لكن... ماذا لو فشلت...؟ لعلي أجيد إصلاح غسالة معطوبة، تلفزيون، جهاز راديو، أو حتى حاسوب قديم، لكن صندوق الوطن شيء مختلف» حدث نفسه. إخفاقه في إصلاح الغسالة قاده إلى مواجهة مع زوجته، «لكن من يستطيع أن يواجه الزعيم»؟ لم تكن تلك المخاوف لتثير رعبه فقط بقدر ما كانت الفكرة نفسها تثير حيرته. فمن كان له أن يصدق، أن صندوقاً خشبياً يحكم الناس؟

«اعمل عليه في صمت، ولا تدع أحداً يرى ما تقوم به حتى أعضاء المحفل».

«لكن... سيدي... الصندوق في المحفل».

«اعمل عليه مساءً... عندما لا يكون أحد هناك».

«سيدي... ماذا... لو...»

«لا أريد أن أسمع شيئاً الآن... فقط انظر إليه أولاً، وأخبرني بما تراه».

بقي الزوج في غرفة نومه يفكر حتى وقت متأخر بلقاء الصباح القصير. تساءل عشرات المرات في سره كيف يثق به الزعيم، وهو العضو الجديد، مقارنة بأعضاء هم منذ ثمانين أو تسعين عاماً في خدمته؟ كيف يثق به وقد كان حتى الأمس فقط، مصدر إرهاب للأمة، ثم هو في اليوم التالي المخوّل وحده بالاطلاع على الصندوق الذي يبدو أنه أقرب للزعيم من عشرة آلاف عام هي زمن عضوية الأعضاء في المحفل بكاملهم؟

تمدّد على سريره يتأمل في السقف ويفكر في اختيار الزعيم له، وأيضاً، في الرابط بين صندوقه وغسالته؟

لعل انتماءه إلى بسطاء الوطن، وابتعاده الكوني عن السياسة، وموهبته في التعامل مع غسالة معطوبة، اجتمعت كلها ليكون الأمين على سر الزعيم... الزعيم نفسه، الزعيم ذاته، بشحمه ولحمه وعظمه، وبرائحة عطره التي تغطي بضعة أميال، وصوته الذي تعرفه جماهير الوطن أحياؤهم وأمواتهم... «نعم... هو كذلك الأمر ولا شك» قال محدثاً نفسه.

في لحظة توقف تفكيره، واتسعت حدقتا عينيه، وضرب بيده على جبينه «يا لي من غبي، يا لي من غبي» قال متمتماً «نعم... إنه هو ولا شك... إن كان هذا الشيء يسيطر على عقول الناس، فهو... فهو غسالة أخرى. غسالتي المعطوبة وصندوق الزعيم، نعم هو الأمر كذلك، كلاهما... غسالة، كلاهما يغسل شيئاً، وغسالة الزعيم هي ذاك الصندوق الخشبي الذي يغسل العقول».

فيما هو غارق في تفكيره الصاخب يهذي مع نفسه وسط هدوء يفرض سطوته، سمع صوتاً يأتيه، للمرة الثانية، من خارج غرفته. أوقف تفكيره ونهض. كان الصوت ذاته الذي سمعه من قبل. إنه صوتها. نهض مسرعاً وانطلق حتى وقف قبالة رسمة الحائط. كانت بقايا إضاءة خفيفة تنسحب من المكان. أنصت بكل حواسّه، وتسمّر مكانه. عاده الصوت ذاته، لكن بنبرة أضعف، من الحائط الأبيض، من رسم زوجته التي بالكاد ترى.

ألصق أذنه على موضع الفم في الرسمة. أحس بدفء يأتيه من فمها. بقي ملتصقاً للحظات قبل أن يعود منتصباً يمسد الرسمة كمن يحثها على الكلام. أحس أنها تخاطبه. «إنها في مكان ما وتريد أن

تقول شيئاً» هكذا فكر. عاد يضع أذنه على الحائط أكثر من مرة. ثم تخلص من بعض ثيابه على عجل، وأضاء الأنوار كاملة، وشرع يكمل الرسمة بإصبعه. داخله الإحساس السابق ذاته، بأن الرسمة وحدها ستخبره أين هي بل قد تنقذه مما هو فيه. رغبته الطاغية في وجودها إلى جواره، أعطته طاقة تسللت إلى جسده وهو يرسم لأكثر من ثلاث ساعات، وبإصبعه فقط، حتى بدأت تظهر تفاصيل دقيقة ومتجسّدة لها وكأنها تقف أمامه.

تراجع قليلاً إلى الوراء وأخذ ينصت. لم يسبق له أن رسم شيئاً في حياته. مع هذا استطاع أن يرسم، بإصبع مجرد، صورة كاملة لها. بدون ألوان، وهادئة. مضى ينصت لعله يسمع شيئاً، متوثباً تعلوه ابتسامة أمل. لكن الأمل سرعان ما فارقه وهو ينظر إلى حزن أخذ يزحف على ملامح رسمته. لم يتعمد أن يرسم حزناً كهذا. ولا كانت هي نفسها بهذه الهيئة طوال حياتها. سأل نفسه إن كان ما مر به من أحداث أنساه تفاصيل زوجته. تلمّس شفتيها بيد ترتعش ثم عينيها، طبع قبلة عليهما، ثم ألصق وجنته بالحائط وراح يهذي.

أتاه الصوت ثانية من الرسمة، واضحاً وقوياً. كان لها تتمتم صلواتها. لم يكن حلماً، ولا استجداءً لحلم، بل صوتها هي، يسمعه واضحاً لأول مرة منذ تفارقا.

سألها بنبرة منتحبة ملتصقاً بالحائط «... أستحلفك بالله أين أنت»؟

استمر صوت الصلاة في حضوره القوي، والزوج ملتصق بالحائط شارعاً كلتا يديه يحتضن رسمه. اختلط صوتهما معاً. بكاء وصلاة. كان ذلك آخر ما يذكره تلك الليلة، حتى شعر بيد الخادمة تهزه برفق

وهو متكوّم، نصف عار، على الأرض أسفل الحائط «سيدي... سيدي... إنها السابعة صباحاً».

* * *

أحس أنه نصف شبح. هذه المرة على الأقل. فتحت قبة المحفل، حيّاه أعضاء أكثر من اللقاء الأول. وعندما همّ بالجلوس في مقعده بآخر الطاولة الطويلة، قادته يد بإجلال إلى مقعد آخر ينتصف الطاولة. لم يأت الزعيم، هذه المرة أيضاً، لكن العضو النحيل كان هناك، وقد بدأ الجلسة بنفسه. تساءل الزوج في سره إن كان الأعضاء قد علموا بلقائه، البارحة، مع الزعيم. لماذا إذاً أصبح مقعده في موقع أفضل على الطاولة؟ شاهد اللقاء الوحيد هو عضو الأمن. إنه الحاضر الدائم ولو غاب نصف الأعضاء. وللحقيقة، فقد كان من النادر أن يتغيّب هذا العدد منهم في هذه الظروف التي يمر بها الوطن. فقد كانت أصوات المحتجين في ازدياد، وزادت معها قبضة الأمن ونشطت هراوته، رغم كل وعود الإصلاح والتنمية. مثل تلك الاحتجاجات ستزعج حتى الزوج نفسه. فقد أدرك بغريزة إنسان لا سياسي، أن وجوده كعضو داخل المحفل، ممثلاً عن الشارع البسيط، وفي سابقة لم يعهدها الوطن، مرتبط بهدوء الشارع. وهو ما لم يحدث. لقد كان الوضع يتصاعد.

حتى أمس، بل وحتى ساعات مضت، تمنى لو أن الأمر مجرد حلم. لكنه على كرسيّه الجلدي الوثير والجديد، أتته دفقة انتشاء لم يعرفها من قبل. أكثر بكثير من ذاك البعيد قرب نهايتها عند الطرف الآخر.

ظهره كان يواجه الصندوق الخاص بالزعيم. لم يجرؤ على النظر

إليه، كحال جميع الأعضاء. ثم لم النظر إليه ولديه ما سيبقى من اليوم ليقترب منه، ويفحصه؟ كان هذا الهاجس الأول الذي يشغل عقله ويبعده عن كل مهاترات الأعضاء ونقاشاتهم المتكررة. لكن الشيء الثاني، على النقيض، كان مراقبة انفعالات الأعضاء وتصرفاتهم، وكأنه يبحث عمّا يجمعه بهم. كان يتأمل تفاصيل ثيابهم وساعاتهم التي يبرق منها وهج الماس بألوان الطيف.

الساعة التي أعطيت له مع باقي الثياب في جناحه الفندقي، كانت راقية بدورها، وإن لم تشبه، في بريقها الألماسي، ما لدى الآخرين.

انتهت جلسة الصباح بعد ساعة. طرحت بعض القرارات، وتمّت المصادقة على بعضها الآخر. عندما سألوه عن رأيه اكتفى بالقول إنه مع ما تراه الأغلبية، يفعل ما تفعل، ويقرّر ما تقرّر.

وللمرة الثانية تأكد له أن المحفل لا يعرف شيئاً عن الشارع. القاعة الفخمة، الحوائط الرخامية العالية، السيارات المصفحة بزجاجها الأسود، كل ذلك يحجبهم دوماً عما يحدث خارج الباب الذهبي الفاخر للقاعة. هم يقررون بناءً على ما يصلهم من أخبار. وكثيراً ما أتت الأخبار بعكس حقيقتها.

كان الوقت يمضي أثناء الاجتماعات في بحث مواضيع لم يسمع بها الزوج من قبل. بعض الأخبار التي كان يجري تداولها لا تمس ولو حقيقة بسيطة عن الشارع. رغم ذلك لم يجرؤ على قول شيء، أو يقدم رأياً. كان خائفاً. لم يعلم يقيناً إن كان هو الخوف من العودة إلى السجن، أو حرمانه من الكرسي الوثير الذي يشعر وهو جالس عليه بانتشاء سحري.

انفض الاجتماع وانصرف الأعضاء إلى مكاتبهم، وانصرف هو إلى حجرة قاده إليها أحد موظفي المحفل. أبلغوه أن هذا سيكون مكتبه الدائم هنا ومقر عمله. كان أكبر من نصف منزله. حوائطه كسيت بخشب خمري فاخر، وأثاث من الجلد النادر. على الجانب الأيمن من مكتب ضخم أعد له، تراصت عشرة أجهزة هاتف، لا يعرف ما الحاجة إليها.

جلس الزوج وراء مكتبه يتأمل الهواتف العشرة، متذكراً هاتفه الصامت في المنزل وغسالته المعطوبة، وزوجته. قطع تفكيره دخول زائر لم يتوقعه. لم يعرف حتى ما إذا طرق الباب أم اقتحم بلا استئذان. بدا أن الزائر مستثنى من بروتوكول كهذا. لقد كان عضو الأمن ذا الملامح التي لا يمكن قراءة شيء منها. نهض الزوج مرتبكاً مستقبلاً ضيفه ببشاشة متصنعة.

«مكتب جميل...»

«أشكرك... سيدي...»

«ستبدأ مهمتك اليوم... آمل أن تكون قد أعددت لذلك جيداً».

«سأبذل جهدي... أعد بذلك».

«لن يعلم أحد بما ستقوم به... هل هذا واضح لك»؟

«لن يعلم أحد... بالطبع... أعد بذلك».

وقبل أن ينصرف عضو الأمن، استدار تجاه الزوج «هل كنت ملتحياً ذات مرة»؟

«أبداً... أبداً... ولا مرة واحدة في حياتي».

«وزوجتك...»؟

«عفواً سيدي... هل تقصد إن كانت ملتحية هي الأخرى».

«هل كانت امرأة متدينة»؟

«نعم... هي كذلك، لكن...»

«لكن ماذا...»؟

«أردت أن أسألكم سيدي» وانكمش الزوج قليلاً ثم أضاف «... أردت أن أسألكم إن كنتم تعرفون أين هي»؟

«سينتظر الزعيم رأيك بعد معاينتك الصندوق» قال عضو الأمن في جفاف وانصرف.

«ليتني ما سألت» قال الزوج يحدث نفسه واقفاً مشوّش الذهن. ندم أن سأل عنها في هذا الوقت بالذات. أحس أنه ضعيف وضئيل. يقين سكنه بأن أحداً هنا لا يحبه. وأن أحداً هنا لا يقيم للمشاعر وزناً.

جفوة عضو الأمن، تعني أيضاً أنه ما يزال موضع شك كبير، على الأقل لهذا العضو المرافق دوماً للزعيم. طليق هو، بل وعضو في محفل الوطن. لكنه بين باقي الأعضاء سجين نفسه. لا كبير فرق بين تلك الزنزانة وهنا. هناك العتمة والعطن. وهنا رفاهية مطلقة. لكن كليهما حوائط عالية ورجال أمن وسجن.

تذكر الزوج ما قاله المحقق ذات يوم «إن المرأة معركة كبيرة»، وفكر في وقفته المرتجفة تلك، أنه إن كانت هناك معركة عليه خوضها، لمعرفة مصير زوجته، أو تحديد مصيره هو، فإن سلاحه فيها، والسلاح الوحيد، نجاحه في تحقيق ما يريد الزعيم، والزعيم فقط. عندها، سيكون عليهم أن يواجهوه قوياً، لا أن يواجه هو أحداً بضعفه. سينتصر في المعركة بعدها. وإن كانت زوجته ما تزال على

قيد الحياة، وهو مجرد أمل لا إحساس، فإنها ستظهر عندئذ.

لم يخرجه من أفكاره سوى أعضاء توافدوا إلى مكتبه يهنئونه على انضمامه إليهم وكأنهم لم يروه سوى الآن. كان معهم في اجتماع البارحة، ولم يروه سوى الآن. كان معهم هذا الصباح، ولم يروه سوى الآن. تقدم مقعده إلى منتصف الطاولة جعلهم يرونه الآن فقط. «هل هو الزعيم من أمر أن يصبح مقعده متقدماً»؟ تساءل في سره ثانية وهو يصافح صاحب الكرش الوقورة «بالتأكيد هو، فمن يجرؤ على تغيير موقع كرسي في المحفل سواه»؟

أعياه طول الوقوف وكثرة السلام وأفكار المعركة. أسلم جسمه لكرسيه العالي وراء مكتبه الكبير. تسللت إليه نشوة تشبه تلك التي تأتيه من على كرسيه تحت قبة المحفل. عندما صافح آخر من حضر أحس بيده أقوى. جلسوا جميعاً في مكتبه وهو على رأسهم. الدنيا ترقص من حوله، وتكتسب لوناً آخر. لون لا يعرفه. على كرسيه الوثير، قبالة الأعضاء المهنئين، انسلت صورة زوجته من ذاكرته. كانت تختفي تدريجياً وهو مدرك لذلك دون أن يملك شيئاً. انسلت رغم إرادته حتى اختفت تماماً. في لحظات قليلة فقط، أصبح مكانها في عقله خواءً أسود. أخذ يتجاذب أطراف الحديث مع زائريه الذين كانوا حتى أمس لا يرونه. كان منطلقاً وهم ينصتون في اهتمام مريدين أمام مرشد صوفي.

امتدت الزيارة فوق الساعة بقليل، لم يتوقف فيها الحديث كثلة أصدقاء يعرف بعضهم بعضاً منذ زمن. لا شيء في ذاكرته المتعبة سوى صندوق الزعيم، ومعركة عضو الأمن، وفراغ كبير في الذاكرة

كانت تحتله زوجته التي انسلت منها رغم إرادته.

بالنسبة له هو، فقد كان يكثر من النظر إلى ساعته وكأن الزمن يهرب منه. كان مستمتعاً بهذا الجو الذي ألفه سريعاً، بل وأسرع مما كان قادراً على تصوره.

في هذا اللقاء مع الأعضاء، وباستثناء الحديث القصير الجاف والمربك مع عضو الأمن، سقطت هالة كان يرسمها الزوج لكل عضو يجلس أمامه. هالة بحجم المسافة بين حاضره وماضيه. أصبحوا أشخاصا عاديين. يأكلون مثله. يشربون مثله. ويتغوطون مثله. الخوف والارتباك ذهبا مع تلك الهالة التي سقطت والمقعد العالي الذي يجلس عليه. من فرط ثقته وجد نفسه يعتذر عن دعوة غداء هنا وعشاء هناك. كان اعتذاراً مهذباً ومتعالياً في الوقت ذاته. هو نفسه لا يعرف من أين أتاه تعال كهذا. هل من الكرسي أم من ضعف الأعضاء أمام الزعيم، هذا الضعف الذي جعلهم أصدقاء له فقط لأن كرسيّه اقترب قليلاً من رأس الطاولة؟

لقد عرفوا، ولا شك، أن الزعيم مهتم بأمره. هكذا فكر. لكنه تساءل ثانية إن كانوا يعرفون ما طلب الزعيم منه؟

لحظة أن نهض مودعاً ضيوفه، عادت إليه من جديد صورة زوجته تملأ فراغها في ذاكرته. عادت في لحظة إلى حيث كانت فور أن ترك مقعده. أحس برأسه يدور وكأنه ثمل من انتشاء كرسيه، ومن عودة صورتها المفاجئة بعد غيبتها المفاجئة.

مع الظهيرة كان الإنهاك قد نال منه. كان مسروراً ومضطرباً في الوقت ذاته. لكنه واثق من نفسه بشكل لم يعهده في نفسه من

قبل. انقضى يوم عمل بلا عمل. حصيلته انتشاء يروح ويأتي وذهن مضطرب وقدر لا يعرف أين سيأخذه.

انصرف إلى داره يشغله شيء واحد، لقاؤه مع صندوق الزعيم في المساء. لم يكن يعرف أن هذا المساء سيكون غريباً ومختلفاً.. مختلفاً أكثر مما تصوّر.

* * *

«إنه مبنى رائع».

«وما رأيك في الأعضاء»؟

«رائعون. لكنهم يتحدثون كثيراً».

«ألا تعجبك أحاديثهم»؟

«إنهم يهدرون الكثير من الوقت».

«ألا تعجبك أفكارهم»؟

«تعجبني أزياؤهم. هل رأيت ساعاتهم»؟

«إنها ثمينة... بالتأكيد».

«هي كذلك بالفعل... لكني أستغرب كيف يقتنون أثمن الساعات ولا يدركون قيمة الوقت».

* * *

وكأنها تجلس أمامه في ماضي الأيام، تناول طعامه بشهية لا بأس بها، جالساً قبالة رسمها على الحائط، منتعشاً بدفء يأتيه منها. إنها تتنفس أنفاسه.

ما عاد يعنيه تفرّق الناس من بابه، وتمركز حرس بلباس أسود مع عربة مدرعة أكبر حجماً مكانهم. جاءه اتصال ثم آخر. أصبح الهاتف أكثر نشاطاً، وهو الذي كان حتى أمس ميتاً. تمنى، كلما أتاه اتصال، لو كان منها، تخبره عن مصيرها، أو حتى موتها، فمن قال إن الاموات لا يتصلون؟

غادر مساءً في طريقه إلى المحفل، من أجل اللقاء الأول بصندوق الزعيم. لاحظ أن حوائط منزله قد ارتفعت عن مستواها السابق. سأل سائقه إن كان أحد قد عبث بالحوائط، فأخبره أنها تكبر من تلقاء ذاتها حسب مكانة ساكن المكان. لم يفهم الزوج عبارة «من تلقاء ذاتها»، و لم يهتم كثيراً وهو يفكر بالمهمة التي تنتظره.

هناك، كانوا يتوقعون حضوره. استقبال بعض موظفي المحفل أتى مبالغاً في حفاوته. بعد أن دخل إلى القاعة الكبرى، أوصدت الأبواب من ورائه وحده، وفق التعليمات.

وقف يتأمل الصندوق الخشبي بمفاتيحه الأربعة عشر وهو يحس بقشعريرة تختلف عن سابقاتها الكثيرات في مسيرته. بجوار الصندوق وضعت أدوات كاملة ليستعين بها. مفتاح ربط كبير، وآخر صغير، كماشة، قفازان، وبضع قطع أخرى. لبس القفازين وشرع يدير بعض المفاتيح الأربعة عشر بحرص. أتته ذبذبة صوتية حادة، يسمعها الموتى أنفسهم.

لم يعلم ماذا يفعل. فهو لم يستوعب حتى اللحظة أن جهازاً يملكه الزعيم، أو كائناً من كان، قادر على التحكم في إرادة الشارع، وأعضاء المحفل أنفسهم. فتح الغطاء الخشبي المصقول بهدوء، ثم

غطاءً آخر وجده تحته. وجد نفسه ينظر إلى بضعة أسلاك كهربائية وشرائح إلكترونية علاها التراب. تساءل في سره عن الذي صنع هذا الصندوق الغامض. وقدر أن من فعل ذلك لم يعد موجوداً وإلا كلفه الزعيم بهذا العمل بدلاً منه.

وقف يتأمل تلك الاسلاك الموصولة بشرائحها نصف ساعة. كل ما يمكن أن يفعل هو التأكد من قدرة الطاقة الصادرة من الشرائح الإلكترونية وإليها وتوصيلاتها. عدا ذلك فإن الصندوق ليس في حاجة إلى خبير تقني، بل إلى ساحر.

أعاد الغطاء بهدوء كما كان، وبصمت غادر القاعة. تقدّم منه رجل أخبره في أدب أن الزعيم يريد أن يراه الآن.

استغرب وجود الزعيم في المحفل مساءً، رغم ثقته المطلقة بأن كل خطوة قام بها أمام الصندوق كانت تحت أنظاره هو شخصياً.

في نفس مكان اللقاء الأول، كان اللقاء الثاني، وأيضاً بوجود عضو الأمن في المحفل.

«لم يطل تفقدك للجهاز...»

«سيدي...»

«ألم تكن في حاجة إلى وقت أطول كي تتمكن من معرفة تفاصيله»؟

«سيدي...» قال الزوج «إن حرمة الجهاز أكبر من قدرة إنسان مثلي على التبحّر فيه من اللقاء الأول».

كان ذلك جوابا ذكياً لم يتوقعه الزعيم ولا عضو الأمن.

دون أن ينتظر جواباً أضاف «أحتاج لبعض الوقت فقط».

«أنت رجل يعطي الأشياء قدرها» قال الزعيم في انشراح «قل

لي كم تحتاج من الوقت»؟

«أسبوع يكفي... ربما أكثر بقليل».

«إن الشارع الثائر لا يعرف حرمة لشيء... سأمنحك ثلاثة أيام».

«سيدي... سأبذل جهدي».

«قد يشفع بذل الجهد أمام مهمة عادية، لكن أمام مهمة وطنية كهذه، فإن بذل الجهد لا يكفي. أريد نتيجة، ونتيجة سريعة، وإن قدّر لها، بكل أسف، أن تتعارض مع حرمة جهازنا العزيز» قال الزعيم.

أومأ الزوج برأسه في خضوع لإرادة الزعيم.

«حتى أنا لا أعلم ما في الصندوق، فكن موضع ثقة لم يحظ بها غيركم» قال عضو الأمن بصوت يقطر تهديداً.

كان لمساء الزوج أن يكون أكثر اضطراباً لولا ذاك اللقاء القصير بالزعيم. لقد أجاد في ما قال له، موقناً في داخله أنه بقدر اقترابه من الزعيم خطوة، يبتعد عن باقي الأعضاء، وعضو الأمن تحديداً، ألف خطوة أخرى. كان رهاناً لم يتردّد في الإقدام عليه.

وقف أمام غسالة الثياب في منزله ينظر إليها من كل زاوية، ثم أحضر سكينا من المطبخ وفتح غطاءها. أخذ يعبث ببعض الأسلاك والمفاتيح وكأنه يبحث عن شيء لم يجده في صندوق الزعيم. لم تكن حرمة الصندوق إذاً ما دفعه إلى الاكتفاء بنظرة سريعة عليه، بل رغبة في إظهار وقار زائف من جهة، واستطلاع أولي لا يتحمّل أي خطأ من جهة أخرى.

أمام غسالته تلك، لم يكن يعرف عمّاذا يبحث تحديداً. فالصندوق نفسه لم يكن فيه شيء يمكن إصلاحه. أدرك حينها أنه في مأزق كبير.

أدار الغسالة وبقي يراقب حركتها وهي مفتوحة الغطاء أعلاها. لمعت فكرة في رأسه وكأن صوتاً قد حشرها في أذنه. ما دامت غسالة إذاً، فهي تعمل وفق ما يعطى لها من تعليمات، وهذا يعني أن حل مشكلة الصندوق لا يأتي من داخل ذاته بل من خارجه. هل كانت تلك فكرة غبية، أم ذكية؟ لا يعرف.

أمضى أمسيته يفكر في الصندوق والغسالة، وقرر أن يمضي في الغد وقتاً أطول مع سر الزعيم، مقدراً في سره هو، أن هناك ما لم يكتشفه بعد. لكن، هل تكفي الأيام الثلاثة التي حدّدت له؟ أنهكه التعب، وغلبه النعاس.

في اليوم التالي تكرّر ما حدث في سابقه. ومع أنه كان يخشى لو أعيد كرسيه إلى الطرف البعيد من الطاولة كما اليوم الأول، إلا انه انتشى عندما وجد نفسه يجلس في مكان البارحة القريب من رأس الطاولة. تآلفه مع كرسيه كان ينمو وكأنه يجلس عليه منذ سنوات. شغله هذا التآلف عن معظم نقاشات المحفل، كما شغله بالطبع التفكير في صندوق الوطن. لكنه عندما سمع أحد الأعضاء يتحدث عن المحتجين في الشارع وما يطالبون به من أشياء تطال مكانة الأعضاء، وجد نفسه يفيق من نشوة كرسيه وقد قطب جبينه، وبلا إرادة وجد نفسه يشارك برأي هو، ويا للغرابة، مع أولئك المؤيّدين لقمع المحتجين. هنا فقط تذكر، في خاطرة سريعة، أن الجماهير التي كانت تلتف حوله قد قدّمت له مطالب لم يقدّم شيئاً منها للمحفل. عوضاً عن ذلك هو يأخذ موقفاً ضدها أكثر مما هو معها. لم يفكر أنه كان يوماً من هؤلاء البسطاء، وأن له مطالب مثلهم، وزوجة مجهولة المصير. كانت نشوة الكرسي أقوى

من أي إحساس بهموم الآخرين ومطالبهم أو حتى مطالبه هو. كان يفترض لإنسان بسيط مثله، وجد نفسه في مركز القرار، عضواً موقراً، أن يسخّر كرسيّه لتحقيق آمال من رفعوه على أكتافهم. لكن عوضاً عن أن يصبح الكرسي وسيلة، أصبح الغاية بذاتها.

بعد وقت ليس بالطويل، تململ في اجتماع الصباح من الحديث عن الشارع واحتجاجاته، وكأنه يحاول الهرب مما هو مطالب به من أجل البسطاء. عندما فكر أن الأعضاء في المحفل لا يعرفون شيئاً عن الشارع في الخارج، وجد نفسه هو أيضاً، لا يعرف شيئاً عن الشارع في الخارج حتى عندما كان يعيش مع زوجته، منغلقاً على ذاته.

كانت تلك اللحظات، بين تعاطفه مع كرسيه، ومع من حملوه على الأكتاف، بداية تحوّل جديد في حياته دون أن يعلم هو نفسه بذلك. لقد قرّر صرف كل طاقة جسدية وفكرية من أجل الصندوق ذي الأربعة عشر مفتاحاً. لقد بدأت غرائزه البشرية المادية تعمل وحدها، مؤمناً بكل جارحة لديه أن مفتاح بقائه أو اختفائه مرهون بذاك الصندوق لا سواه. لم تكن عبقرية طارئة، أن فكر كذلك، بل غريزة بقاء.

قبل أن ينفض الاجتماع، شرع يتأمل في أعضاء المحفل واحداً تلو آخر، وكأنه يبحث عن حل لمعضلته على جباههم المقطبة.

أثناء بحثه جالت في رأسه الفكرة التالية:

الناس يكرهونه بالأمس ثم هو اليوم بطلهم.

أعضاء المحفل يزدرونه بالأمس ثم هو اليوم صديقهم.

بقي الزعيم... لكن، وإن كان الجميع أصدقاء للزعيم، فإن الزعيم نفسه ليس صديق أحد.

رأى الزوج في هذه الخاطرة أيقونة قد تنقذه لاحقاً من خطر الزعيم الذي ليس هو صديق أحد. فقرر أن يعمل وفق مصلحته الشخصية هو أولاً، ثم من يأتي بعده، ولو كان هو مرة ثانية.

زار مكتبه بقية أعضاء لم يكونوا قد أتوا البارحة. وتكرّر الأمر معهم وكأن اليوم نسخة عن الأمس، بكل الألوان والأصوات والهالة التي سقطت. الاختلاف الوحيد كان في إحساسه المتزايد بلذة مقعده، وتقرّب الأعضاء منه.

لم يغادر إلى منزله. بقي حيث هو إلى أن انصرف الأعضاء بعد الظهيرة. تناول غداءً خفيفاً في مكتبه ولزمه حتى الساعات الأولى من المساء. قام إلى حيث تلك العلبة التي يرتبط بها مصيره. ليتخطى عقبة الخوف من خطأ ما، تخيّل أنه أمام غسالة ثياب عادية. فتح الغطاء، وأخذ يمعن النظر ويقلب بين يديه كل قطعة يجدها، باحثاً عن شيء يعرفه في الشيء الغامض أمامه. أوصل سلكاً بآخر، ثم أعاده، وكرر الأمر مع باقي الاسلاك ومفاتيحها. كان قلبه يخفق بشدة كلما لمس شيئاً. وكثيراً ما ترك ما يمسك به حتى تخف ارتعاشة تعبر يديه. هنا، خطأ صغير واحد، بل جزء ألف من خطأ صغير، سيجعله شحماً جيداً لمفاصل هذا الصندوق. ما كان يفعله في وقفته تلك، مشمّراً عن ثيابه، لابساً قفازيه، ليس إصلاح عطب آلة، بل عطب وطن. لا عبث، لا خطأ، ولا تخمين. تخيّله أنه أمام غسالة هو أمر، والوقوف أمام صندوق الوطن الحقيقي هو أمر آخر. وفوق هذا عينا الزعيم اللتان يثق بأنهما تريانه الآن حيث لا يراهما.

أمضى الزوج هذه المرة أكثر من ساعتين، يفك ويربط ويدير مفتاحاً

تلو آخر. ساعتان عرف فيهما أين يذهب السلك الأصفر والأحمر والأخضر والى أي شريحة ينتمي وما هو دوره، وطبيعة الذبذبات التي يرسلها إلى عقول الآخرين. كان السلك الأصفر يبدو أكثر سماكة من غيره، بدا كظفيرة أسلاك مستقلة، ترتبط بمفاتيح الولاء للوطن. بعده في السماكة يأتي الأحمر المنتهي بمفتاح الأمن. هكذا أمكنه معرفة شيء من آلية هذا الصندوق العجيب. أمام مهلة ثلاثة أيام فقط، كان عليه أن يكون أكثر جرأة وسرعة ودقة في الوقت ذاته. بلغت جرأته أقصى مراحلها عندما طلب من أحد موظفي المحفل، قبل أن يهم بالمغادرة، أن لا يقترب أحد من الصندوق بقدر عشرة أمتار، أي بضعة أمتار أخرى فوق حدود الزعيم.

لِمَ فعل ذلك؟

ليس من سبب سوى إظهار توصله لشيء هام عن الصندوق العجائبي ذاك. مناورة هي لا أكثر. وقد حققت هدفها. فقد أرضت الخطوة غرور الزعيم، مؤكدة صحة نظرته في قدرة الرجل وأمانته في ما كلفه به. هذه المرة أتى طلب لقائه بالزعيم من طرفه هو. لم يتردّد، و لم يرتعد. بعد خمس دقائق كان يقف بثقة قبالته، ومعه عضو الأمن، يخبره بأن الأمور تسير على ما يرام وسيطلعه على النتيجة في الموعد المحدّد، وربما قبل ذلك. وختم المقابلة بطلب آخر لم يخلُ من فطنة خبيثة «لن يستغني الوطن عن ساعة عمل للصندوق، لكن الضرورة تتطلب أن نبقيه هادئاً ليوم واحد فقط حتى نعرف أين يكمن الخلل».

«ما تطلبه قد يكون مستحيلاً... لم يتوقف الصندوق عن العمل طوال عقود، فكيف نفعل ذلك الآن، وفي هذا الوقت بالذات»؟

«سيدي... سيساعد ذلك كثيراً في الوصول إلى ما نريد».

«أنت تذهب بعيداً في ما تطلب» قال عضو الأمن في صلف.

«أعلم ذلك سيدي... يوم واحد لن يحدث قدراً كبيراً من الضرر، لكنه أساسي. سأحاول جاهداً أن يكون أقل من يوم... أعد بذلك».

لم يملك الزعيم سوى الموافقة على مضض، رغم اعتراض عضو الأمن، وقد كان ذلك استثناءً تاريخياً بحق.

لم يكن الزوج بدوره ليعلم حينها، أن فطنته الخبيثة تلك ستوصله إلى غايته، دون أن يخطط لها.

في المساء، بقي جالساً يتأمل رسم زوجته على الحائط. داخله إحساس بالندم على انصرافه عنها طوال النهار، وانصرافه عن التفكير فيها ليلاً، كما كان يفعل دوماً قبل أن يجلس على كرسي المحفل. كل ما نطق به أمامها تلك الأمسية هو وعد بأن لا ينساها، وأن لا ينسى اولئك الذين حملوه على أكتافهم ذات يوم. لم يكن ذلك وعده الأول في أية حال.

في صبيحة اليوم الثالث، كانت مكافأة لقائه الأخير بالزعيم تنتظره.

* * *

استقبله عند باب المحفل الخارجي ثلاثة رجال أمن. وعند باب المحفل الداخلي، المؤدي إلى القاعة الكبيرة، كان خمسة من كبار موظفي المحفل يستقبلونه بترحاب ويقودونه إلى حيث وضع كرسيّه إلى مكان أقرب إلى رأس الطاولة من مكان البارحة، غير بعيد عن نحيل الجسم، ولصيقاً بصاحب الكرش العظيمة. كانت أنظار

الأعضاء، ذاك الصباح، مصوّبة نحوه. لن يعود شبحاً بعد اليوم. التكريم الذي حظي به أبهجه وأخافه. أبهجه لأن لذة الكرسي كانت أجمل في موقعه الجديد من سابقه، وأخافه لأنه بات لا يملك خياراً سوى تحقيق رغبة الزعيم في إصلاح صندوقه ولو اضطر للاستعانة بساحر حقيقي. إن لم يفعل، فلن يعود شبحاً، ولن يعود شيئاً.

لم يكن في حاجة إلى وحي يخبره أن عيون الأعضاء المصوّبة نحوه ليست بالراضية عنه، على الأقل لبعضها. لم يعنِه الأمر كثيراً ما دام قد أرضى الزعيم. وهو حتى اللحظة قد التقى به ثلاث مرات في فترة لم تتحقق لثلاثة أرباع أعضاء المحفل طوال عضويتهم. حتى إن بعضهم اعتقد بوجود قرابة غير معلنة تربط عضوهم الجديد هذا بالزعيم. البعض الآخر اعتقد أنه عين الزعيم زرعها بينهم لمعرفة ما يدور في المحفل، وكيف هو يتعامل مع الشارع المتصاعد في غضبه.

ذاك الصباح، أتت مشاركة الزوج، كعضو موقر وقريب من رأس الطاولة، كما لو أنه تمرّس على المشاركة السياسية من جده الرابع الذي لا يعرف اسماً له. قدّم جملة آراء، فاجأت الأعضاء في تطرّفها. شدد على مسألة الأمن، والقبضة الحديدية، وعدم المساس بحرمة المحفل، مهما كلف الأمر. إنه الشيء الوحيد، الذي شفع له عند عضو الأمن الذي لا شفاعة لأحد عنده.

ذاك الصباح، قال أشياء كثيرة. تحدث عن شارع الوطن الثائر، وقدّم تحليلاً بهر الأعضاء حول كيف يفكر، كيف يتصرّف، وما الذي يهتم به. حتى هم فوجئوا عندما قال بالحرف الواحد، رداً على مطالب الشارع بتغيير المحفل «إن شئتم الصدق أيها الأعضاء

الموقرون، فنحن من يجب أن يكون شعارنا: «المحفل يريد تغيير الشعب». إنه ما كان يؤمن به من قبل. لم يفكر ثانية في مطالب البسطاء التي وعد بها زوجته. لم يفكر بزوجته نفسها. كان المقعد القريب من رأس الطاولة يملأه نشوة تطرد كل شيء سواها، ولو كان وقوف زوجته بروحها وجسدها أمام مقعده.

أعجبت هذه الحماسة الوطنية القاسية للزوج نصف أعضاء المحفل. أما البقية فقد حيّرتهم فكرة أن يأتي عضو جديد بهذه النظرة التي كانوا يتوقعون عكسها. لكنهم في كل الاحوال رضوا بها ما دامت تسعى لعدم المساس بقدسيتهم.

الوحيد الذي أظهر تحفظاً علنياً وقوياً على آرائه، مع عضوة المحفل المكتنزة الجسد، كان نحيل الجسم الجالس إلى يمينه. من أجل ذلك، وبعد أن انفض الاجتماع، اختلى بالزوج في مكتبه.

«أترى حقاً حاجة الشارع إلى قبضة أمنية أكثر من تلك التي هي عليه الآن»؟

«نعم أيها العضو المبجل» أجاب الزوج بثبات جلف «واسمح لي بأن أقول شيئاً... لعلي لا أملك خبرتكم الكبيرة، لكني ولا شك أعرف الشارع وكيف يفكر أكثر مما يعرف الأعضاء الموقرون».

«لطالما اعتقدت أن التنمية هي الشيء القادر على إرضاء الناس»؟

«الأمن قبل الخبز في أهميته»؟

«اسمعني أيها العضو المبجل، لست أعرف من أي خلفية أتيت، لكني على يقين بأنك تخطئ الطريق. أعلم أن لك مكانة لدى الزعيم، لكن لن يشفع لك ذلك التمادي في غيّك ونشوتك متناسياً ما أنت هنا من أجله».

«أيها العضو الموقر» أجاب الزوج «إن العامة تهدم ولا تبني. وهي من اللامبالاة حد البلاهة كي تعرف ما تريد. لقد عشت بين هؤلاء وأعي تماماً كيف هم يفكرون. انظر إليهم، والى ثورتهم وغضبهم. أتحسبهم جوعى؟ ليسوا كذلك. مظلومين؟ ليسوا كلهم بالمظلومين. إنهم يريدون شيئاً لا يعرفون بأنفسهم ما يكون. يتظاهرون ولا يعرفون لم هم يتظاهرون. ساخطون على شيء لا يرونه. وناقمون على قدر ارتضوه. هم بسطاء ساذجون ربما. لكن من يحركهم يطمح إلى غاية منتهاها هنا... هذا المكان الموقر».

«ألم تكن منهم ذات يوم»؟

أحس الزوج أن لقاءه بالزعيم أهون من لقائه بنحيل الجسم. لكنه تظاهر بالثبات مؤمناً بأن رأياً خاطئاً أفضل من لا رأي.

«لا تنس أنك هنا لتكون صوتاً لأولئك الذين تنقلب الآن ضدهم» أضاف نحيل الجسم في نبرة تشبه عين صقر.

«أنا لست أنقلب ضد أحد أيها العضو المبجل. لكني من داخل المحفل الكريم، أرى ما عجزت عن رؤيته من خارجه».

«هل تقصد الكرسي الذي تجلس عليه»؟

«أقصد... أقصد...» تلعثم الزوج وأحس بمن قبض عليه من ضعف.

«أخبرني أيها العضو المبجّل...» قال نحيل الجسم «كيف كانت علاقتك بأصدقائك؟ بعائلتك؟ بجيرانك، وزملائك في العمل؟ قل لي كيف هي علاقتك بأولئك الذين ألقيت بهم في جوف آلامك القديمة»؟

«بعيداً... عن آلام الماضي»... قال الزوج وقد داهمه تلعثم فاضح «بعيداً... عنها، وعمّن تسبّبوا بها، فقد كانت جيدة...

نعم، كانت جيدة».

«...أنت تكذب»؟

نظر إليه الزوج وقد صعقه الرد.

«أنت تعرف ذلك» واصل نحيل الجسم في صوت راعد «أنت لا تثق بأقرب الناس إليك، هذا إن كان لك من قريب تحبّه».

«بلى... هناك من أحبه»؟

«وتثق به على نفسك»؟

استجدى الزوج قوة لم يجدها وقال «أيها العضو المبجل... من هو الذي يثق بأحد»؟

«إذاً أنت لا تثق بأحد»؟

«سيدي... إن هؤلاء الذين وثقت بهم، وكانوا أصدقاء لي وجيراناً، هم من انقلب عليّ يوم زج بي في السجن...»

«وهل كنت لتفعل الشيء ذاته لو أنت في مكانهم»؟

«ما كنت لأفعل، والدليل...» توقف الزوج عن الحديث فجأة، فأكمل نحيل الجسم عنه «والدليل أنك لم تشارك في عزاء الزعيم».

ارتبك الزوج قليلاً «سيدي، أنتم تعلمون القصة، كانت زوجتي مريضة».

«ولأنها كانت مريضة، ولأنهم داهموا منزلك، ولأنهم أداروا بظهورهم لك، تريد أن تنتقم منهم الآن»؟

«لا... غير صحيح. لا أريد الانتقام من أحد».

«ولو نازعوك على مقعد المحفل»؟

«أنا... أنا...»

«أنت ماذا أيها الموقر»؟

«سيدي» قال الزوج مستسلماً «الشارع يريد كل شيء، دون أن يفكر هو ماذا يمكن أن يقدم لنا. املأ بطونهم، وسترى كيف يصمتون. املأ جيوبهم بالمال، أو بالفتات منه إن شئت، وسترى كيف يصمتون، إملأ...»

قاطعه نحيل الجسم في حسم «وأنت؟ ما الذي ملأك حتى نما حب الوطن داخلك فجأة»؟

«سيدي... أنا أحب الوطن منذ... منذ طفولتي، وأحب هؤلاء الذين كانوا الجيران لي والأصدقاء، لكنني أراهم اليوم وقد سكنتهم رغبة التدمير والفوضى. هم يستحقون الاهتمام، نعم، يستحقونه، لكن هناك واجبات لا بد أن...»

«إن ما تصنعه أنت، هو الفوضى بعينها».

«أنا سيدي العضو المبجل أفعل ما أراه لمصلحة الوطن».

«إن المقعد الذي أنت عليه، هو مصلحتك التي تسعى إليها».

«هذا المقعد لمن يستحقه فقط» أجاب الزوج بنبرة المخلص الوحيد.

«وهل تستحقه أنت»؟

«لم... أطلبه... بل أنتم، وأنت تحديداً أيها العضو الموقر من قدّمه لي. ألا تذكر لقاءنا الأول في الفندق، ثم هنا في قاعة المحفل... ثم...»

«أذكر شيئاً واحداً فقط أيها العضو المبجل...» قاطعه نحيل الجسم «أن من أقف أمامه الآن، هو شخص آخر غير ذاك الذي رأيته أول مرة».

* * *

بقدر انزعاجه من لقاء نحيل الجسم، بعد ظهيرة ذلك اليوم، داخله شعور طاغٍ يحثه على وضع كل طاقته من أجل صندوق الزعيم. خلاصه مرهونٌ به. معركته تبدأ من هنا إن أراد النصر، كما هي تنتهي هنا.

حياته الطويلة في منزل متواضع، والقصيرة جداً، حتى تلك اللحظة، تحت سقف المحفل، أكدت له مرة إثر أخرى، أن إرضاء الزعيم وحده يكفي.

كان عليه أن يعمل بسرعة. فذاك الترحيب من الأعضاء ما يزال هشاً. قربه من الزعيم ما يزال هشاً. وجوده في منزل راقٍ ما يزال هشاً هو الآخر. كل شيء قد ينتهي في لحظة عين.

عمّ الصمت المحفل بعد أن غادر الأعضاء. بقي الزوج وحده. سحب دفتراً بالقرب منه، وأخذ يرسم ما رآه في الصندوق. لم تكن له ذاكرة فوتوغرافية، لكن في تلك اللحظة، وتحت وطأة ما يعيش، نبغت له ذاكرة رقمية. أنجز رسمة تطابق الصندوق بكل محتوياته. وضع فكرة هنا، وأخرى هناك، رقماً هنا ورقماً هناك. بعد ساعة أو أكثر، بدت الورقة تشبه مخطوطة لآينشتاين.

أخذ الورقة ومضى بها إلى قاعة المحفل الخاوية. غاص في مقعده، مستمداً انتشاءً يزيده قوة وثقة بذاته. نظر إلى الورقة أمامه، ثم إلى المقاعد الخاوية للأعضاء، فالصندوق الخشبي وراءه.

فكر أن يستعين ببعض الكتب التي تتحدث عن الطاقة والتأثير والتقنية. لكنه عدل عن الفكرة. فكر لو استعان ببعض الكتب السياسية،

لكنه عدل عن الفكرة أيضاً ذلك أنه لم يقرأ كتاباً واحداً في حياته.

نهض باتجاه الصندوق المعطل عن العمل ليوم واحد كما قرر هو. أزاح الغطاء وأخذ يقارن بين رسمه وما يراه على الواقع. كانا شديدَي التطابق. أقفل الصندوق دون أن يمد يده إليه، وانصرف مغادراً. لم يستدعه أحد لرؤية الزعيم. ولم يعلم في الأساس إن كان موجوداً في مكتبه بالمحفل وإن كان واثقاً من أنه يراه.

قرر أن لا يذهب إلى منزله مباشرة، وطلب من سائقه أن يقوم بجولة في المدينة الهادئة في هذا الوقت من المساء. لم تكن المدينة هادئة. فقد رأى من وراء الزجاج المعتم تظاهرات الثائرين وإن بدت أقل حجماً. شعاراتهم تطال الزعيم وحده. وبعكسها هتافات مؤيّدين في الطرف المقابل من الشارع. كانت هذه الأخيرة تكبر وهي تهتف بشعارات تأييد تطال أعضاء المحفل وحدهم. تساءل مستغرباً، كيف للأمر أن يحدث بهذه الصورة المعكوسة وصندوق الزعيم عاطل عن العمل منذ البارحة؟ كيف لا تكبر التظاهرات المناوئة والصندوق لا يعمل؟ وكيف تركز على الزعيم وحده؟ وكيف تكبر هتافات التأييد مركزة على الأعضاء وحدهم دون الزعيم؟

طلب من سائقه التنقل في أكثر من مكان، مسجلاً ملاحظاته عن عدد المتظاهرين المؤيّدين والمناهضين. في معظم الأماكن، كان المؤيّدون يحملون الهتافات التي تؤيّد أعضاء المحفل فقط، دون الزعيم. المؤيدة منها والمندِّدة جمعها قاسم غريب: هتافات لا تخلو من شعارات متطرفة هذه المرة كانت واضحة ومباشرة ومستفزة.

قرّر التوجه إلى الحي الشعبي الذي كان يسكنه. لم تكن من

تجمعات هناك باستثناء بضع غاضبين. فور أن اقترب منهم، رأى ما أخافه. لافتات تحمل اسمه هو منددة بصمته عن مطالبهم، وبتخاذله عن استقبالهم، واستسلامه الشديد لإرادة المحفل. كان بين المحتجين رجل يعلوه طربوش أحمر وقد حمل لوحة كتب عليها «اشتروك بحريتنا، وبعتنا بمقعد واحد». لم يعلم يقيناً إن كان قد رأى الطربوش ذاته في تظاهرة عكسية.

طلب من السائق أن يستدير عائداً إلى منزله، قبل أن يسمع بيضة تصيب زجاج نافذته الخلفي ألقاها عليه أحدهم. أثناء مروره أمام المنزل القديم الذي سكنه يوماً، رأى اللوحة التي تحمل اسم مشروع متحف يحمل اسمه وقد لطخت بوجبة محترمة من البيض الفاسد والطماطم العفنة.

كشفت تلك الرحلة القصيرة أشياء كان في حاجة إليها. وشعر بثقة تدخل نفسه، رغم استيائه من تنديد البعض به. لكنه استطاع على الأقل الوصول إلى شيء مهم، أو اقترب منه كثيراً.

في منزله، حيث ساعة نومه تقترب، كان أول ما فعله أن توجّه إلى غسالة الثياب بجوار المطبخ. نزع غطاءها وأخذ يقارن بين رسمه وما يراه أمامه. كان التشابه كبيراً، وإن لم يكن كما لدى الصندوق في المحفل. فتح باب الغسالة الزجاجي وأدار أسطوانتها الداخلية بيده. أقفل الغطاء، وأدار مفتاح التشغيل. بدأت الغسالة تعمل فيما هو يراقب. أوقفها، ثم أدارها، وكرر الأمر بضع مرات كما يفعل كل مرة. عاد إلى أريكته في مواجهة الحائط تعلوه ابتسامة غامضة. تمدد عليها قبل أن يحس بمن يهمس في أذنه. نهض ونظر إلى رسم زوجته قبالته. تقدّم

منها، حتى وقف لا يفصله عنها سوى خطوة قدم. وضع يده على بعد سنتمرات قليلة من فمها، فأحس بالدفء الذي كان وقد أصبح بارداً.

«غاضبة أنت مني»؟

سألها مدركاً إخلاله بوعده لها.

«لكني... سألت عنك» قال في صوت يرثي به نفسه.

«منهك أنا... منهك جداً» أرخى رأسه ثم رفعه إلى حيث عيناها «عشت مهزوماً بما يكفي، لن يهزمني أحد بعد اليوم. معركة هي وسأنتصر فيها»... قال وانصرف إلى مخدعه. قبل أن يصل باب حجرته أضاف بصوت عالٍ «ستكونين معي». قالها وكأنه يتذكرها عرضاً. أقفل الباب من ورائه بهدوء، لكنه بنفس الهدوء فتحه وعاد إلى حيث الرسمة، على الحائط، يتأملها ثانية. لقد سمع، من داخل حجرته، همس صلاتها، وكأنها تعاتبه وتغفر له في الوقت ذاته.

غسل خطيئته بوعد جديد وصلاة سريعة من أجلها، وعاد من جديد إلى حجرته. حاول أن يغفو فلم يستطع. كان رأسه يعمل وعلى الصندوق أن يعود بدوره للعمل الليلة. سرت في عينيه ومضات وكأنها موصلات كهربائية تشبه تلك التي في صندوق الزعيم وغسالة ثيابه. ثم أتت ومضة أكبر قفزت به من فوق سريره كمن أصيب بصعقة كهربائية. نهض من فوره، واستبدل ثيابه وانطلق إلى المحفل دون أن ينظر إلى رسمة زوجته كما اعتاد أن يفعل.

تحت القبة العظيمة، فرد الورقة التي معه قرب الصندوق، وأخذ يجس بيديه كل سلك ومفتاح. ثم أخذ يقلب ناظريه بين المقاعد الخاوية في المحفل، والصندوق المفتوح الغطاء أمامه والورقة الآينشتانية التي

معه. مع هذا الخليط من الصور، أتته أصوات المتظاهرين ولافتاتهم بشعاراتها المتطرفة.

كتب شيئاً على الورقة، وأعاد النظر إلى الصندوق، وسرح قليلاً. عبث ببعض الوصلات الداخلية، ثم أدار أحد المفاتيح، ثم آخر، حتى اختبر الأربعة عشر مفتاحاً. ومع المفتاح الأخير استمع جيداً إلى أصوات المحتجين التي سمعها في جولته العشوائية قبل ساعات. ثم، كما لو هو أمر يتوقعه، أتته أصوات بعض أعضاء المحفل ممزوجة بنغمات الكرستال المتدلية من سقف القبة العظيمة. ندت عنه ضحكة خفيفة. لقد كان يكتشف شيئاً مهماً. وليتأكد من النتيجة التي وصل إليها أدار بضعة مفاتيح للصندوق. أصاخ السمع قليلاً، ثم قليلاً أكثر، ثم أعاد كل شيء إلى مكانه، وانصرف إلى منزله تعلوه ابتسامة منتصر.

في اليوم التالي، بدأ صباحه بجولة على الأحياء الشعبية التي زارها أمس. كانت الحركة بطيئة وهادئة. لكنه سجل بعض الملاحظات الأخرى. شارك في اجتماع المحفل الصباحي وهو يحاول قراءة ما في عيون الأعضاء. لا يعرف لماذا أتاه إحساس أنهم هم أيضاً يحاولون قراءة ما في عينيه. فور أن انتهى، وبدلاً من التوجه إلى مكتبه الشخصي، غادر إلى جولة جديدة لبعض طرقات الوطن وأحيائه الشعبية وأزقته. سجل الملاحظة التالية: تظاهرات التنديد أكبر من البارحة، تنتقد الزعيم والمحفل. تظاهرات التأييد أكبر، معظمها للأعضاء، وقليلها للزعيم. كلتاهما عنصرية ومتطرفة.

عاودته ابتسامة المساء وهو يسجل ملاحظاته بتفاصيل دقيقة. استغرقت الجولة معظم نهاره، فلم يذهب إلى داره. قبل أن يحل

المساء، توجّه إلى المحفل. مع الصندوق بدأت جولة جديدة من البحث والتحليل. يقارن بين ملاحظات اليوم والبارحة، متأملاً خريطة الغسالة والصندوق. كان يعمل بانتشاء. مع عودة الصندوق إلى عمله كان ينتصر. لقد وجد حل معضلته أقرب مما كان يتوقع. لقد كان حل الأحجية بين يديه منذ اللحظة الأولى. أغلق غطاء الصندوق بهدوء، وعاد يجلس إلى كرسيه قرب رأس الطاولة، متأملاً مقعد الزعيم.

نهض بعد دقائق على محيّاه ابتسامة تشبه الهلال، وغادر القاعة الكبيرة. توقف لحظة وهو يسند ظهره إلى الباب الكبير. كان متردداً في خطوته القادمة. لكنه ما لبث أن اتخذ قراره. أشار بيده إلى أحد موظفي المحفل قرب الجناح الخاص بالزعيم وسأله:

«هل بالإمكان رؤية الزعيم الآن... لديّ أخبار ينتظرها»؟

* * *

كانت تلك المرة الأولى التي يلتقي فيها بالزعيم وحده دون عضو الأمن.

«لقد أعدت الصندوق للعمل ثانية» بادره الزعيم.

«نعم... منذ البارحة سيدي».

«هل ساعدك الأمر في شيء».

«سيدي...» قال الزوج بصوت الواثق «لقد اطلعت على الصندوق وأعتقد أني اكتشفت السبب، أو لنقل أهم سبب».

نهض الزعيم من مقعده واقترب منه «ما الذي وجدته»؟

«سيدي... ما سأقوله هو رأي قبل أن يكون حقيقة مطلقة. فكما تعرفون سيدي، ليس من السهل، في ثلاثة أيام فقط، معرفة كل شيء

لجهاز عظيم كهذا».

اقترب من الزوج أكثر «رأي...»؟

«هناك ما قد يجعله أكثر من ذلك»؟

«أخبرني...»

أحس الزوج برعشة، تغلب عليها سريعاً، وقد وقف الزعيم قبالته تماماً يصغي في انتباه «سيدي... لا يشكو الجهاز من علة فيه».

«ماذا إذاً»؟

«تفحصت كل قطعة فيه سيدي. كل قطعة، وجميعها تعمل جيداً».

«وماذا أيضاً»؟

«سيدي... قد لا أكون عميق المعرفة بتقنية متقدمة تليق بجهازكم العظيم، لكن لا يتطلب الأمر تقنية بقدر ما يتطلب إلماماً تاماً بالظروف التي تحيط بعمله». صمت لحظة وكأنه متردّد في ما سيقول «إن غسالة حديثة قد تكون أكثر تعقيداً... رغم ذلك فهذه التقنية البسيطة للصندوق هي ما تجعله فعالاً».

«ما علاقة الظروف المحيطة بآلية عمله؟ وأي ظروف تلك التي تتحدث عنها... أفصح»؟ قال الزعيم في لهجة حادة.

«سيدي... إن الصندوق يعمل بطاقته المعتادة. وهو قادر على تكييف نفسه حسب الوضع العام في الوطن».

«لماذا ضعف تأثيره حتى أصبح مثل... مثل رجل هرم»؟

«سيدي... لقد أعطيتك رأياً علمياً في الصندوق، لكن... هل تسمحون لي برأي سياسي يجيب عن سؤالكم»؟

«سياسي...»؟ تساءل الزعيم مستنكراً «وهل تعرف شيئاً في السياسة أنت»؟

«إنه مجرد رأي سيدي... كما أخبرتكم» أجاب الزوج وهو يشعر برأسه الذي يشبه حبة الفاصولياء ينكمش «تقبّلوا اعتذاري إن رأيتم في ذلك تطاولاً على ما تملكون من حنكة سياسية وخبرة عتيقة، لكني أمين على تحقيق غايتكم» ومال إلى الأمام في انحناءة خضوع.

«قل ما لديك».

رفع الزوج عينيه وهو على انحناءته تلك وقال «إنه يعمل بطاقته، لكن هناك طاقة أخرى تعمل معه، إلا أنها... تفوقه قوة...»

«طاقة أخرى تفوقه قوة؟ عمَّ تتحدث أنت»؟ أجاب الزعيم في حدة.

«إنها طاقة تطغى عليه... طاقة... من داخل المحفل سيدي» ورفع رأسه قليلاً.

«ما هذا العبث...؟ أفصح أكثر أيها الرجل».

«سيدي... قد يكون الأمر غير متعمّد...» وعاد يطأطئ الرأس إلا من عينين ترقبان شفتي الزعيم.

«أفصح... أفصح» قال الزعيم بصوت غاضب.

«سيدي... أعتقد أن هناك شيئاً داخل المحفل، لا نعلم بوجوده، هو ما يضعف تأثير صندوقنا الوطني، أو لنقل هو ما يجعل طاقته تبدو أضعف مما هي عليه».

«احذر أيها العضو الموقر، فليس داخل المحفل سوى أعضاء موقرين وموظفين أمناء لا أشك في ولائهم لنا وللوطن».

«ومن أكون سيدي حتى أشكك في ولاء أحد من الأعضاء الموقرين؟ لكن... إن فكرنا بالأمر قليلاً، فسنجد أن الصندوق يعمل كما هو، وأنتم بقوة تأثيركم العظيمة كما هي»...

«والأعضاء كما هم منذ عشرات السنين أيضاً» قال الزعيم مكملاً.

«أعلم ذلك سيدي، لكن الشارع ليس كما هو».

«ماذا تقصد»؟

«لقد أوقفت تأثير الصندوق ليوم واحد، كما أخبرتكم، حتى أتمكن من معرفة الخلل فيه. وجب أن ينعكس الأمر مباشرة على الشارع، وهو ما لم يحدث. وهذا تحديداً ما يجعلني أقول إن هناك شيئاً يحول دون إيصال تأثير الصندوق إلى خارج المحفل، أو يجعله أقل تأثيراً مقابل شيء آخر أكثر تأثيراً منه في الشارع».

اتسعت حدقتا الزعيم واقترب من الزوج حتى شعر بأنفاسه تلفح وجهه «ما تقوله خطير أيها العضو الموقر».

«أعلم ذلك سيدي، ومن أجل هذا أحببت أن لا أنتظر أكثر».

«وما يكون في رأيك ذاك الشيء الذي يفوق جهازنا في قوة تأثيره»؟

«آمل أن لا يغضبك رأيي، لكنه مجرد اعتقاد».

«قل... أيها الرجل فقد مللت من هذه الأحجية».

«أعتقد... أن هناك أكثر من جهاز داخل المحفل، أو خارجه ربما، له طاقة تأثير عالية، تعمل وفق إرادة أخرى».

فغر الزعيم فاه «جهاز آخر... غير جهازنا نحن، وإرادة أخرى غير إرادتنا»؟

«بل قد تكون مجموعة أجهزة سيدي».

«من يملكها، من يديرها، وأين هي»؟

«أخشى سيدي، أن يكون...» صمت الزوج في تردّد ثم أضاف «أن يكون لكل عضو جهاز خاص به لا يعلم به سواه».

امتلأت عينا الزعيم دهشة وهو يسأل «لماذا يفعل أحدهم شيئاً كهذا»؟

«التحكم في الشارع... سيدي».

«من يملك الجرأة ليكون له التأثير في الشارع مثل ما لي أنا»؟ أشاح الزعيم بوجهه وخطا باتجاه مقعده، ثم التفت إلى الزوج المسمّر مكانه وقال رافعاً سبابته في تهديد «إن صدق توقعك، فستكون لذلك نتائج كارثية... لكن ما سقته من دليل لا يكفي لإثبات رأيك الخطير الذي تقول به».

«سيدي... لا يتحرك الشارع من تلقاء ذاته إن لم يدفعه شيء قوي باتجاه ما حسبما أرى. قوي إلى درجة تدفع بالأطفال إلى صفوف المحتجين. صندوق الوطن وجد كي يصنع رأياً ويخلق توجهاً لدى الناس، لكن توجهات الشارع الآن تختلف عن غاية الصندوق، وهذا يعني أن هناك صناديق أخرى تشارك في العمل وفق خط خاص بها، صناديق لا نعلم عنها شيئاً سيدي. كما أني أعتقد أيضاً... أنها تعمل منذ فترة ليست بالقصيرة».

«منذ متى في اعتقادك»؟

«سنوات طويلة ربما...».

«دون علمي»؟ سأل الزعيم في هدوء واستنكار.

«إنها قوة لا تراها العين... واعتقد أيضاً سيدي، أن إيحاءً كان يعطى، دون قصد ربما، بأن التأثير على الشارع يأتي من صندوقكم العظيم وحده، فيما هو يأتي من تلك الصناديق التي لا نعرفها».

«هل تعتقد أن لتلك الصناديق، إن افترضنا وجودها، مجرد افتراض، علاقةً بما يحدث في الشارع وهي التي تحول دون عودة الهدوء إليه»؟

«سيدي... هي تصنع الاثنين معاً: التأييد والتنديد. لا أستطيع أن أجزم بالقطع، لكن إن صدق توقعي، فإن لدى بعض الأعضاء، بعضهم على الاقل، صناديق قادرة على تحريك الشارع بما يخالف إرادتكم».

«تحريكه في أي اتجاه...»؟

بتردّد وحذر أجاب الزوج «في اتجاه متطرف».

«سياسي أم ديني»؟

«أعتقد أنه ديني سيدي، فهو الأكثر تأثيراً في الناس».

نظر إليه الزعيم فأحس به يثقب رأسه، تماماً كما المحقق «أيها العضو الموقر، كيف لرجل لم يمارس السياسة يوماً، أن يصل به التفكير بمحفل الوطن إلى هذا الحد»؟

ارتبك الزوج قليلاً، وقبل أن يجيب واصل الزعيم حديثه « لم يمض على وجودك بيننا سوى بضعة أيام فقط، ووصلت إلى كل هذا»؟

«سيدي... سيدي... لعلي لا أفقه في السياسة، ولا أعرف شيئاً عن الأعضاء الموقرين، لكنني عشت بين هؤلاء الذين يتظاهرون ردحاً من الزمن... وأعرف تماماً كيف يفكرون وماذا يريدون. إن ما يبدون عليه من تطرف قد يبدو خادعاً، لكنه عميق في نفوسهم. ومن شأن ذلك أن يجعلهم عرضة لتأثير من بيده القوة أن شاركهم الفكر ذاته.

وأعتقد أن في محفل الوطن الموقر من يشاركهم هذا الفكر، وهو لن يفعل ذلك جهاراً. له صندوق ولا شك، يحرك به الشارع».

«أنت بذلك تتهم أحداً بالخيانة...؟ هم هنا قبل ولادتك أنت».

«سيدي... لقد استأمنتني على صندوق الوطن، وأحد أسراره، والأمانة أن أكون صريحاً في ما أراه».

أدار الزعيم ظهره ثانية وخطا حتى وقف أمام لوحة كبيرة «من تراه يكون...»؟ ونظر إلى حيث الزوج «أم هو شبح في محفلنا فلا نراه»؟

«سيدي... وحدكم القادرون على تحديد من يكون... أو يكونون... ولا أتهم بالخيانة أحداً، ولعل من قام بذلك لا يقصد شراً وإنما أراد... أراد فقط أن يدفع بالمجتمع ليكون أكثر إيماناً».

«ما أراه في الشارع إن هو إلا تطرف».

«ربما أدى الأمر في النهاية سيدي... إلى ما تقولون بالفعل».

كان يمكن لتلك المحادثة أن تكون آخر ما يشهد الزوج في حياته. و لم يكن قد قدر ذلك بالفعل قبل أن تدفعه حماسة الحياة في المحفل، ونشوة المقعد، إلى مواجهة الزعيم بما لم يتوقع. بدا كما لو أن ينبوع خبرة سياسية قد تفجر من داخله، لا ينقصه خبث أو دهاء.

انتهت مقابلة الزعيم بأن طلب من الزوج أن يكون عينيه وأذنيه تحت قبة المحفل. هكذا استأمنه للمرة الثانية على مهمة لا يعلم بها غيرهما. أصبح الزوج، بعد ذلك اللقاء، رجلاً آخر. حتى وجهه تغيّر إلى ما يشبه اليقطينة. لا خوف ولا ارتباك، هو وقت العمل فقط.

ما لم يعرفه الزوج، أن عيوناً وآذاناً أخرى، ستفعل تجاهه ما طلب منه الزعيم أن يفعل تجاه الآخرين.

* * *

عربتان مدرعتان، لا واحدة، شاهدهما تقفان على باب منزله. كانت تلك ملاحظته الأولى قبل أن تأتي ملاحظته الثانية وهو يدخل منزله مساءً، حيث ارتفعت الأسوار الخارجية، من تلقاء ذاتها، إلى ما فوق مستوى أشجار الحديقة. الملاحظة الثالثة جسدتها الملامح الحزينة التي كست وجه زوجته على الحائط الأبيض. عندما اقترب منها يتحسّسها، أحس ببرودة وكأنه يلمس وجهاً ميتاً. لم تتحرك مشاعره وهو يبتعد خطوة إلى الوراء في هدوء متأملاً خصلة الشعر الصغيرة التي تساقط بعضها من طرف الحائط.

استغرب كيف هي الأشياء تتغير من حوله بإيقاع سريع. كان عليه أن يدرك أنه هو من يتغيّر أكثر من الأشياء. لذة كرسيه في المحفل، تلك اللذة المتعاظمة مع كل اقتراب له من رأس الطاولة، كانت تجعله يتغير. في أيام قليلة فقط، بات يشبه رجلاً ليس هو. عندما لاحظ وجود المدرّعتين على باب منزله، لم يلحظ ارتفاع عدد من تجمهر ضده. هو الآن عضو حقيقي في المحفل. قريب من الزعيم. صاحب رأي في مستقبل الوطن. في بضعة أيام فقط بدا كأن إنساناً آخر قد خلق للتو، بهذا الحجم، وبذلك الرأس الذي يشبه اليقطينة. نسي كل معاناة سابقة، أو هكذا ظن. نسي ما ألّم به وزوجته، بل نسي الزوجة نفسها. إن كان من شيء يربط بين من كان ومن هو الآن فليس أكثر من تلك الغسالة التي وقف يتأملها بعد وقفته أمام الحائط الأبيض. للحظات، ولحظات فقط، فكر بأن ما قاله للزعيم سيقوده إما ليكون

المقرب منه كعين وأذن، أو ينقلب عليه فتقطع الأذن وتفقأ العين. لكن حدساً أخبره بأن أحداث الوطن تفتح الباب أمام أي احتمال، بما في ذلك توقعه بشأن الصناديق الخفية الأخرى. انصرف إلى سريره تعلوه مسحة تعال كما لو تدين له البشرية ببقائها.

تعاليه لا يطمس بالضرورة كل ماضيه. فما هو محفور في عمق الذاكرة، سيعود بصورة معكوسة إلى السطح، فيصبح الضعف انتقاماً، والانكسار تعالياً، أما الألم فسيعود فرحة تستمد نشوتها من أحزان الآخرين.

الهاتف الأسود الجاثم على عموده الرخامي ما عاد يصمت حتى ساعات الليل المتأخرة. أعضاء محفل يتصلون. أصدقاء خلقوا فجأة يتصلون. أقرباء لم يسمع بهم يتصلون. رجالات وطن وأصحاب حاجات، وظالمون ومظلومون يتصلون. أصبح العالم كله يعرف إلى أين يسير هذا الرجل الذي منح وحده حق الاقتراب من صندوق الوطن، ومن الزعيم ذاته. لا يشيء يغيب عن الوطن، ولا خبر يختفي فوق ترابه، باستثناء مصير الزوجة. الزوجة التي تراجعت أهميتها أمام نشوة المقعد والاقتراب من الزعيم حتى كاد آخر خيط من ملامحها على الحائط يختفي.

عندما استلقى منهكاً على فراشه من يوم امتلأ بألف يوم، لم ينتبه إلى صوت قادم من الصالون الكبير، وغلبه النعاس.

لم تراوده أحلام كثيرة أو قليلة، فقط بضعة تقلبات على مضجعه أرقت منامه بعض الشيء، فقط بعض الشيء. عدا ذلك نام كطفل لا يفكر بما فعل وما سيفعل أكثر من التقرب إلى الزعيم. لقد بات مؤمناً بأن الإنسان وحده، لا سواه، قادر على صنع قدره.

قبل أن يشق الصباح عتمة باردة، كان الرجل الجديد القديم يقف قبالة رسم زوجته على الحائط. لم يكن هناك شيء أكثر من بقايا خصلة سقط أغلبها. و لم يكن في داخله أي إحساس خاص، أكثر من سؤال فضول عن غياب همهمة صلواتها. لم يعلم أن انتشاءاته حالت دون سماعها. لو قدّر له أن يسمع بعضها، لأدرك أنها صلاة وداع.

تناول إفطاره على عجل وغادر مع البدايات الأولى للصباح. على خط سيره الصباحي إلى المحفل، رأى بقايا أحداث شهدتها الشوارع البارحة. عندما سأل سائقه عن حطام متناثرة بقاياه هنا وهناك أخبره بأن صداماً حدث بين بعض الشباب ورجال الأمن.

«متطرفون حقيقيون» قال في نفسه، وكأنه الشاهد على ما حدث. قال يوماً إنه أكثر دراية بالشارع عندما كان يعيش فيه، وأكثر دراية بالشارع من باقي أعضاء المحفل لأنه يرى ما لا يرونه. غاب عن نفسه وحديثها أن ما يراه إن هو إلا نتيجة لا سبب، وأن الناس الذين رفعوه على الأكتاف، هم أنفسهم، بل وهم تحديداً الذين لا يراهم. وكما حائط المنزل يرتفع من تلقاء ذاته، كما هو زجاج سيارته يزداد قتامة من تلقاء ذاته. علاقته بالشارع كانت تضعف، وهذا الصباح وصلت إلى الصفر. ما عاد يرى سوى بقايا حطام رمى به «المتطرفون، المأجورون، الإرهابيون» المتهمون دائماً، قبله وبعده.

عندما دخل إلى المحفل، بكل ما صاحب ذلك من طقوس استقبال مقدسة، كانت فكرة «التطرّف» قد سيطرت على عقله. لم يكن من داع لأن يفكر كثيراً، إذ أتته الأمور على طبق من ذهب كما اشتهي. ففكرة المتطرفين تلك هي نفسها التي حدث بها الزعيم. وما رآه صباح

اليوم من آثار صدام معهم عزز فكرته بل ومكانته أمامه. ما عليه اليوم فعله هو الانتقال إلى مرحلة البحث عن تلك الصناديق المخفية للأعضاء، الذين يحركون الشارع في اتجاه لا يريده الوطن وزعيمه.

«سيدي... إن تساهلنا في أمر تلك الصناديق، فسيخرج الشارع عن السيطرة، وستطبق سلطة متطرفة على مقاليد الوطن». شدد الزوج على رأيه ثانية وهو يبدأ يومه بلقاء الزعيم، وأيضاً، في غياب عضو الأمن.

هذه العبارة وحدها، في لقاء قصير وسريع بالحضرة العالية، أطلقت يده بصلاحيات لا يعرفها حتى عضو الأمن... ربما.

لم يضع الزوج الفرصة، ولم يفته حسن استغلال أدنى وأعظم صلاحية منحت له. فشكل دائرة لأشخاص يحيطون به، يمكن القول إنهم نصف أوفياء. جعلهم عيونه وآذانه. طلب منهم أن تكون لهم أيضاً عيون وآذان في كل مكان، داخل المحفل وخارجه، وأن يكون لمن يختارونه عيون وآذان أخرى في حلقات أصغر. العيون والآذان التي زرعها الزوج، مع العيون والآذان التي زرعها الزعيم نفسه على هذا الزوج، تختصر الوطن في عين واحدة ترى أحلام النائمين وأذن تسمع همس الموتى في قبورهم.

السيطرة على المحفل ستكون من خلال الشارع، والسيطرة على الشارع ستكون من خلال المحفل. والسيطرة على كليهما، لن تتحقق دون الوصول إلى تلك الصناديق السرية لبعض الأعضاء، والتي قد يكون بعضها مخفياً في الشارع نفسه. هكذا كانت فلسفته، وعليها بنى خطته.

بدأت تصله ثلاثة تقارير في اليوم. واحد في التاسعة صباحاً،

يخبره ما فعل الأعضاء والوطن من منتصف الليل وحتى الصباح. من نام، من تغوط، من خان زوجته أو خانته، من عقد صفقة ومن فاتته. ثم تقرير في الثانية بعد الظهر، يخبره من عمل و لم يعمل، من باع واشترى. ثم تقرير في منتصف الليل يخبره من تظاهر ومن تآمر، ماذا قال هذا وبماذا أجاب ذاك، ومن ولد ومن مات. حتى الموتى، وضعت في أكفانهم آذان تخبر ماذا يقول بعضهم لبعض عندما يدفنون. من يباركون ويلعنون.

ذات يوم أتاه تقرير عن جاره القديم. لقد طلق زوجته في ثورة غضب. وتلفظ بكلمات نابية ضدها، وضد أهلها، وساعة مولدها والوطن الذي نشأت عليه. لم يتردّد الزوج، في تقديم ملفه كاملاً، وباهراً بطريقة جيدة، إلى الأمن ليزجوا بالجار في السجن. هل كان انتقاماً منه؟ لم يفكر الزوج بالأمر. لكنه كان سعيداً بما فعل.

ليس هو بالغبي، ولا هم كذلك. فأعضاء المحفل يعلمون بمدى النفوذ المتعاظم للزوج، ولا سيما نحيل الجسم. لم يتبيّنوا ذلك من عيونهم وآذانهم المنتشرة في كل مكان، بل تكفي مداخلات الزوج القوية في كل اجتماع. فقد كان من الجرأة بحيث خالف رأي ثلاثة أرباع الأعضاء في معظم ما يرونه. كلهم باتوا يعرفون قدره، ويعرفون مدى قوة عيونه وآذانه. إن أرجع بعضهم الأمر إلى الأحداث الاستثنائية في الوطن وإرادة الزعيم، فإن بعضهم الآخر أدرك أن في الأمر ما هو أكثر من مجرد صعود سريع لعضو خبيث. إلا أن أحدهم لم يدر بخلده، حتى تلك اللحظة على الأقل، أن الزوج قد اكتشف بالفعل قصة الصناديق لدى بعضهم، وأنهم هم المستهدفون له الآن أكثر من الشارع الثائر.

أصبح غياب الزوج عن بيته يزداد طولاً. وكثيراً ما قضى ليلته إما ساهراً في مكتبه يعمل ويتلقى التقارير أو يعدها، وإما في أماكن لا يعرف بوجودها سوى قلة. كان لا بد أن يلتقي بأطقمه في مكان لا يراه ولا يعرفه أحد بما في ذلك عضو الأمن. إنها أوامر الزعيم نفسه.

عندما عاد إلى منزله ذات ليلة، قادته قدماه المنهكتان إلى الحائط. لم يجد سوى الخصلة الأخيرة وقد يبست وسقطت على الأرض. لم يعرها اهتماماً وانصرف إلى حجرته.

قبل أن ينام، ودون تفسير، اتصل بأحدهم وطلب منه التالي: «أريد تقريراً عن اختفاء السيدة التي كانت ذات يوم زوجتي» أعطاه اسمها كاملاً وتاريخ الاختفاء. وأغلق الهاتف على طلب آخر: «أريد تقريراً عن الطبيب الشاب الذي اختفى من مستشفى الوطن في هذا اليوم والساعة».

ليس الإخلاص ما دفعه إلى معرفة مصيرها تلك الليلة بل هو الفضول لا أكثر، كحال سؤاله عن الطبيب الشاب.

في الصباح الباكر، جاءه أحدهم بالتقرير التالي:

«الزوجة... مجهولة المصير...

الطبيب، وشى به أحدهم إلى السلطات لما أظهره أثناء عمله من تعاطف مع المصابين في الاحتجاجات. سجن عدة أيام ثم طرد من الوظيفة. بات يعاقر الخمر كل ليلة. آخر مرة شوهد فيها كان يحتضن زجاجة خمر يعزف عليها كآلة عود في حديقة مهملة. في الصباح التالي وجدوه ميتاً. دفن في قبر مجهول بعد أن وضعت فلينة آخر زجاجة نبيذ شربها في مؤخرته».

انتهى التقرير.

* * *

«قل يا صديقي...» سأل وكأس في يده «هل تؤمن بما يقولون»؟

«أنت لم تسمع شيئاً بعد...» أجابت الكأس الأخرى.

«أصحيح أن له يدين أطول من قامته، وساقين بارتفاع سارية الوطن، وأن قبة المحفل بالكاد تستوعب رأسه»؟

«لقد كان له، ذات يوم، ما تقول... اليوم، أصبح كل ما فيه كبيراً إلا قلبه».

«لكنه ما يزال يذكرها».

«في الشدائد يحتاج الرجل إلى امرأة واحدة أكثر مما يحتاج إلى جيش من الرجال».

«هل تراها نسيته حيث هي الآن...»؟

«املأ كأسي...».

«... هل نسيته...»؟

«في المرأة شيء من الإله... إنها تغفر الأخطاء الكبيرة بلا مقابل... وتنتقم أيضاً».

* * *

أخطأ الزوج في تقدير خصومه. كانوا يزدادون كل يوم. من عضو الأمن، وحتى المحتجين في الشارع، دون إغفال عدد لا بأس به من أعضاء المحفل وعلى رأسهم نحيل الجسم بما يملكه من فضيلة انتظار.

الابتسامات العظيمة التي كان يستقبله بها أعضاء المحفل، وموظفوه، وبعض العامة من الناس، كانت تخفي سخطاً يكبر كل لحظة. لم يبال. همّه إرضاء الزعيم وحده. وهذا خطأه الثاني عندما عجز دهاؤه عن إخباره بأن الاقتراب من المركز يحمي ويحرق في الوقت ذاته، وأن أعضاءً في المحفل، وبعضهم هنا منذ ما يزيد على 70 عاماً، لن يدعوا رجلاً، أياً كان، يتخطى حضورهم.

سيدرك الزوج، متأخراً ربما، أن وراء القمة التي ينشدها جرف كبير. لكن حتى يصل إلى ذلك، عمل بإخلاص مضنٍ للوصول إلى الصناديق التي بات مؤمناً حتى المطلق بأنها أقوى مما تصوّر.

«التطرف في الوطن ممنوع، أياً كان مصدره» هكذا قال الزعيم في لقاء مسائي بالزوج.

«سيدي... إنهم يتحركون بسرعة».

«تحرك بسرعة أنت أيضاً، واكتشف أين وكيف هي صناديقهم تعمل».

«اسمح لي سيدي أن أسأل...هل ستواجه الأعضاء بتلك الصناديق حال وقوعها بين أيدينا»؟

«جدها أولاً ثم نرى ما سنعمل».

«سيدي... أخشى أن يداهمنا الوقت إن بقينا صامتين».

«وهل تريد أن تدمّر الوطن من أجل اعتقاد لم تتيقن منه بعد»؟

«لقد بات الاعتقاد يقيناً سيدي، وهم لم يبدأوا للتو فقط، بل منذ زمن أطول مما نظن».

«لا أريد كلاماً يائساً...»

«ليس كلاماً...»

«لا تقاطعني...» قال الزعيم في غضب «أنا أعلم بالوطن منك، ومن الأعضاء كلهم. أنا هنا قبلكم جميعاً، وأعرف ما يدور ليس على الأرض فقط بل وفي سمائها وجوفها. لسنا متأخرين في شيء. وإن صدق توقعك بوجود أعضاء يحركون الشارع كيفما يريدون، فلن يجرؤ أحدهم على تحدي إرادتي. إن الشارع سيتحرك كما أريد أنا، لا هم».

«سيدي... أنت تملك المال، وهم يملكونه. ولو كانت لدى الأعضاء الموقرين أهداف لا تثير الشك، فلماذا لديهم صناديق لا نعلم بها؟ اضف إلى ذلك سيدي أنهم يستغلون كل ثغرة».

«كلامك يزعجني...»

«تقبّلوا عذري سيدي... لكن الحقيقة... تزعج دائماً».

«في رأسك شيء... أليس كذلك»؟

«إن أذنت... قلت ما أفكر به».

«قل...»

«الرأي عندي أن تبدأ أنت... بيدك وحدك تهب الصلاحية لمن تريد أو...»

«أو ماذا»؟

«أو تعفيهم منها...»

«هل جننت»؟ قال الزعيم في حدة.

انكمش الزوج قليلاً، لكنه بقي ثابتاً في نظرته.

«أتعلم أنه لم يسبق لعضو أن تنحّى أو أعفي من منصبه؟ كيف تريدني أن أرتكب سابقة كتلك»؟

«سيدي... إن مصلحة الوطن تصنع سابقتها إن اقتضت الضرورة... فماذا سنفعل إن وجدنا بعضهم يعمل ضد مصلحة الوطن»؟

«لن يقف أحد معهم... لا أحد».

«اسمح لي سيدي بالقول إن نصف الشارع ربما كان معهم».

«أنت لا تعرف شيئاً عن الشارع كما لا تعرف شيئاً عن قانون المحفل».

«سيدي... قراءة الشارع تبدو عصيّة على الجميع... لكنني أؤكد لك، أن في داخل المحفل من يحركه في اتجاه غاية في التطرف، وبما يخالف قانون المحفل نفسه».

«في لقائنا القادم، أريد أدلة... لا ظنوناً».

عندما غادر الزوج مكتب الزعيم، أخبرته عيونه بمن دخل إليه وراءه: العضو نحيل الجسم، عضو الأمن، وأربعة أعضاء آخرين. كان لقاء الزعيم بهم قصيراً حسبما قالت العيون.

عضو المحفل لا يشك به، فهو رجل حكيم أبعد ما يكون عن التطرف. عضو الأمن مثله تقريباً. يبقى الأربعة الآخرون. قد لا يكونون أصحاب صناديق سرية. لكن واحداً أو اثنين على الأقل قد يكونان كذلك بالفعل. المشترك الذي جمع الرجال الستة ليس اتفاقهم على محاربة التطرف وتهدئة الشارع، بل النيل منه هو. كان عليه أن يتحرك سريعاً، فبدأ بالأعضاء الأربعة.

قضت خطته أن يتعاون أولاً مع عضو الأمن ونحيل الجسم. إن حالفه التوفيق في كسبهما، فسيكون في مأمن من الآخرين. ولتحقيق غايته، شرع منذ تلك الليلة يشارك عضو الأمن بعض افكاره. كان

رأياً سديداً ما قرره، ولا سيما أن هذا الأخير بدأ يحس بالخطر على نفوذه مع تعاظم نفوذ العضو الجديد. وإشراكه في المعلومات التي تم الوصول إليها أسهم في اقتراب الرجلين خطوة واحدة من بعضهما. خطوة أحدثت فارقاً كبيراً. لكن الزوج فشل مع نحيل الجسم. فقد كان لهذا الأخير رأي أكثر حكمة في التعاطي مع الأمور المتوترة في الوطن، مؤمناً بضرورة الإصلاح لا تحويل المجتمع إلى عين وأذن لا يثق أحدها بالآخر. لقد كان هذا العضو تحديداً، أول من رحّب به في المحفل. وهو الآن أشدهم رفضاً له دون خداع أو مواربة.

انصرف معظم وقت الزوج في تلقي التقارير وإرسالها، والاجتماع مع عضو الأمن في لقاءات تمتد إلى الصباح أحياناً. لكن حتى هذه الرفقة، التي باركها الزعيم، أتت مشروطة بإبقاء كل شيء عن صندوق الوطن، والصناديق السرية الأخرى، طيّ الكتمان لا يعرف بها حتى عضو الأمن الذي كان المرافق شبه الدائم للزعيم.

كانت معادلة صعبة أن يشرك الزوج أحد الرجلين في عمله دون أن يطلعه على ما يبحث عنه. قد لا يصدقه بشأن الصندوق من جهة، وقد، وهذا احتمال لا بد أن يؤخذ في الحسبان مهما حسنت النيات، قد يكون لأي منهما أيضاً صندوق مماثل.

الحائط في منزله أصبح أبيض كما كان في اليوم الأول. ورسمة زوجته اختفت بكاملها، وما عاد يقف أمامها ولا يراها. لم يكن يملك وقتاً، ولا اهتماماً. كل ما عمله كان السؤال عنها، وعن الطبيب فقط، ومن باب الفضول وحده، بعد ذلك ما عادت تخطر له. اللذة التي كانت تأتيه من مقعده في المحفل، باتت تأتيه من كل مقعد

في داره. لذة تصمّ أذنيه عن أصوات غير بعيدة عن بيته. صرخات محتجين، وهراوات تضرب.

اقتصر نومه على ساعة أو اثنتين. واقتصر طعامه على وجة واحدة. وجه اليقطينة عاد يشبه حبة الفاصوليا الضامرة من الإرهاق. والعينان برزتا كعيني ملاكم أشبع ضرباً.

التقارير أصبحت أكثر دقة ورعباً في الوقت ذاته. هناك بؤر في الوطن، ينشط فيها التطرف. موجات أفكار تأتي باتجاه تلك البؤر، ومنها تنطلق إلى كل مكان. مصدر الموجات سيحدد موقع الصناديق، ومن يكون أصحابها. العيون ترصد كل شيء، وسيل المعلومات المتدفق لا يتوقف.

مع ازدياد الخطر حوله كدائرة تضيق كان لا يبعد عن هدفه الأساسي كثيراً. ومع بحثه الحثيث عن تلك الصناديق، وجد نفسه مهموماً بما هو أكثر من العثور عليها إلى معرفة التأثير الذي أحدثته في المجتمع.

وهذه النقطة الأخيرة تحديداً، شكلت له بداية جديدة... ونهاية مبكرة في آن واحد.

* * *

«إن الأمر يتفاقم في الشارع، وأنت ما تزال تبحث عن صناديق بتّ أشك في وجودها».

«سيدي... لو لم تكن موجودة، لعمل صندوقكم المخلص ذو الاربعة عشرة مفتاحاً كما كان يفعل منذ قرن أو يزيد... لقد بت قريباً

من هدفي. فقط قليل من الوقت... ومن الصلاحيات الأخرى».

«لك من الصلاحيات ما لا يملكه نصف أعضاء المحفل، فما الذي تحتاج إليه بعد. اعمل بما أعطي لك. واحذر أن تمس حرمة المحفل».

«سيدي... أتفهم ثقتكم الغالية بي وبهم، لكن هل تعتقدون أن بعضهم، فقط بعضهم، يستحق هذه الثقة؟ اعذرني سيدي على جرأتي، فما قصدت سوى أولئك الذي يغسلون عقول الوطن دون علمنا».

أمام صمت الزعيم استرسل الزوج بلا وجل «لقد أعطتهم ثقتكم الغالية الفرصة للعمل في صمت، ولعلي أقول... إنهم باتوا قريباً جداً من هدفهم».

«متقدمون إلى أي حد»؟

«الى الحد الذي...»

«تكلم...»

«... إلى الحد الذي ليصبح الشارع كله تحت قبضتهم».

«أنت تهذي ولا شك... فهؤلاء لا يهدمون الوطن بل يبنونه».

«هذا ما يعتقدونه هم سيدي... ولعله ما كنا نعتقد نحن أيضاً. لكن تلك الأفكار التي يغسلون بها العقول إن هي إلا دليل جازم على نشاط صناديقهم الخرى، وهي التي ستهدم الوطن في يوم ما».

«لو هم كما تقول، فلم لا يستطيعون التأثير على الشارع الثائر؟ لو كانوا كما تقول، لم أضاعوا فرصة السيطرة على المحفل في ظروف كهذه؟ أنت تبالغ كثيراً أيها الرجل، كثيراً جداً».

«هم يفعلون كل ذلك سيدي. هم من يحرك الأحداث... وأخشى أن مباركتكم لوطنية الأعضاء تشكل غطاءً يحكمون تحته

سيطرتهم». صمت الزوج قليلاً ثم قال «لا يخيفني الخصم، ولن أفاجأ بمن قد يكون، لكن ترعبني الابتسامات المصطنعة».

«هل فكرت لحظة أيها الموقر ما سأفعل بك إن اكتشفت خطأ ما تقوم به»؟

«... لك أن تفعل بي... ما تشاء سيدي» قال الزوج بصوت ثابت، لكن ريقه بات يشبه ثقباً في حجر.

رغم شك الزعيم حيناً، وثقته ببعض كلام الزوج حيناً آخر، كانت النتيجة المزيد من الصلاحيات للزوج ولو بصفة مؤقتة. ما كان ذلك ليخفى على أعضاء المحفل، خاصة عضو الأمن الذي كان على الأرجح أول من يدخل على الزعيم بعد مغادرة الزوج.

هل كان عضو الأمن يشاركه مخاوفه؟ تساءل الزوج في سرّه مرات عدة. إنه أكثر من يخاف منه. ورغم أنه يتشارك الكثير من المعلومات معه، والكثير من اللقاءات الليلية، إلا أن افتراض جهل عضو الأمن بأمر الصناديق قد لا يدفعه إلى مشاركته الرأي بشأن الأعضاء أو بعضهم. هذا بافتراض أن الزعيم لم يخبر عضو الأمن بشأن الصناديق التي يبحث عنها الزوج.

كانت موهبته في الحذر وأخذ كل افتراض على محمل الجد، تستنزف طاقته وساعات يومه. كان من الطبيعي لرجل في وضعه أن يتكاثر الأعداء والغيورون من حوله. كان يعي ذلك تماماً. يتسمون له في المحفل، وفي الأماكن العامة التي قليلاً، بل نادراً، ما قصدها، واثقاً أن تلك الابتسامات كلما كبرت على الوجوه تضاءل الود في صدور أصحابها.

تعليماته واضحة، المزيد من التقارير، والمزيد من الرقابة. الشارع

ثائر لا يهم. الناس غاضبون لا يهم. الأعضاء ناقمون لا يهم. انفصل بكامله عنهم. لم يعد يسأل عن أحد. والرسائل التي تلقاها ذات يوم من أولئك المؤملين به خيراً، أمر بحرقها في حديقة منزله في ليلة باردة.

في واحدة من تلك الليالي، أحس بشيء غير عادي يحيط به. شيء يحرك فيه شيئاً. قام من وراء مكتب صغير وضعه في أحد أركان منزله، وفتح باب الحديقة. ارتفعت الأسوار إلى ضعف ارتفاع الأشجار، من تلقاء ذاتها. تأمل الفضاء الصامت فوقه وحوله إلا من ذبذبات تخترق الجسد. بعض أجهزته في المنزل أخذت تعطي ذبذبات غريبة، وكأنها تؤدي تحيّة لأجسام لا ترى. وقف في عتمة الليلة يصيخ السمع لتلك الذبذبات بضع دقائق. بهدوء عاد إلى الداخل وتوجه إلى غسالة الثياب قرب المطبخ. وجدها كما توقع تماماً، تدور بكل قوة جافة من الماء خالية من الثياب. لم تكن الخادمة من أدارها، ولا هو. لكنه بصورة ما، خارج باب منزله، علم أنه سيجدها تعمل. وقف يتأملها مبتسماً يفكر في أن ما يحدث إما هو رسالة تحذير له، أو رسالة تؤكد أنه في الطريق الصحيح، الاحتمال الثالث أن يكون الاثنين معاً.

جلس على الكنبة البيضاء في صالون منزله. يتأمل في الحائط الأبيض أمامه دون قصد. حاول للحظة أن يتذكر ما كان على الحائط من قبل «هل كانت هناك رسمة ما»؟ لقد فصلته فجوة زمنية عن شيء فعله هو بإصبعه منذ بضعة أسابيع فقط. لم ينفصل فقط عن تلك الرسمة وحدها، بل عن كل شيء.بما في ذلك تاريخه الشخصي ومن أين أتى.

وسط ذبذبة متصلة وأصوات متقطعة تأتيه من أجهزة كثيرة تحيط به، وضع رأسه بين يديه يفكر، ويعيد النظر، من حين لحين، إلى

الحائط. في أسفله سمر ناظريه على الخصلة الملقاة على الأرض. قام إليها وحملها بين أصابعه. أحس بشيء يأتيه منها، وتغذي ذاكرته بصورة مبهمة. قبل أن يسترجع أي شيء، أفلتت الخصلة من يده. تأمل سقوطها دون أن يحرّك ساكناً، واكتفى بإلقاء نظرة إلى الحائط الخاوي أمامه. عاد إلى مكتبه الصغير وألقى بجسمه على كرسيه. أتاه، بدل إحساس النشوة المعتاد، صوت أحدهم يدخل عليه. سلمه ورقة وانصرف. ابتسامة عميقة علت محياه وهو يقرأ الرسالة. ابتسامة نصر. لقد اقترب أخيراً من غايته. اقترب إلى درجة خطيرة.

* * *

جافاه النوم حتى اللحظات الأولى من الفجر. أكمل هندامه المحفلي وانطلق إلى عمله. طالع اليوم السيئ بدأ مع أول حجر أصاب سيارته. كانت الطرقات ساكنة بسبب إضراب عام في الوطن. «من أين أتى الحجر إذاً»؟ سأل نفسه.

عندما توقفت سيارته أمام المحفل، كانت أشبه بفهد أرقط من حجارة أخرى كثيرة أصابتها «هل سقطت من السماء بحق السماء»؟ سأل سائقه وهو ينظر إلى الطرقات القريبة والبعيدة الخاوية.

سكنته تقطيبة وهو يدلف إلى المحفل، شاعراً بضيق غريب في صدره. لولا أنه يحمل أخباراً تهم الزعيم، وتبشره باكتشافه أخيراً لأول صندوق ومن يقف وراءه، لعاد أدراجه. كان، كعادته، أول الواصلين. لكنه اليوم كان أبكر من عادته. استقبله أحد الموظفين بحماسة فاترة.

أراد أن يرى الزعيم. قالوا «سنخبره بطلبك».

دخل إلى مكتبه وانتظر. لم يأت خبر من الزعيم. بعد نصف ساعة خرج، ففاجأه رجلان يقفان على بابه. سألهما إن أتت موافقة الزعيم. أومأ أحدهما بالنفي. عاد إلى مكتبه وهو يتساءل عن سر الرجلين على بابه. لم يكونا هنا في الأيام الماضية. أحس أنهما سجانان لا حارسان. ربما من ملامحهما القاسية. لم ير أن ملامحه في تلك اللحظة كانت أكثر قساوة.

بعد ساعة من الانتظار، قضاها يتفحص في أوراق أحضرها معه، سمع الأعضاء يدلفون إلى المحفل. فتح باب مكتبه من جديد فوجده مقفلاً من الخارج. فزع للحظة، وحاول جذب مقبض الباب بقوة، لكنه بقي مقفلاً. أتاه صوت همهمة الأعضاء يتجمّعون. حاول ثانية فتح الباب عنوة فإذا أحدهم يفتحه بهدوء. ثار غاضباً، لكن أحد الرجلين طلب أن يتبعهما في هدوء. حمل أوراقه، لكن طلب منه أن يدع كل شيء على مكتبه. وافق على مضض، وسار وراءهما.

ظن أنه يساق لملاقاة الزعيم، لكنه أخذ إلى غرفة ليست بعيدة عن مكتبه، وطلب منه أن ينتظر هناك.

أثناء سيره من مكتبه إلى تلك الغرفة، التقى ببضعة أعضاء لم يبادر أي منهم بإلقاء تحية عابرة. سكنته تقطيبة أحس بأنه يعود شبحاً من جديد، كيومه الأول. خفق قلبه بقوة. أنبأته غريزة أمنيّة تراكمت داخله في الأيام الماضية أن هناك خطباً جللاً لا يعرف به. لعله لم يكن في حاجة إلى تلك الغريزة مع ذلك الاستقبال الفاتر من موظفي المحفل وأعضائه الذين كان بعضهم إلى الأمس فقط، زواراً شبه مقيمين في مكتبه.

الغرفة التي وضع بها صغيرة مقارنة بباقي غرف المحفل. تراصّت بداخلها بضع مقاعد وكأنها صيوان عزاء. لا هاتف ولا جهاز

حاسوب أو تلفاز. لم يكن يعرف بوجود غرفة بائسة كهذه في المحفل. هي في المجمل لا تعطي إحساساً مطمئناً بما سيأتي.

بقي في تلك الغرفة ساعتين كاملتين، كلما حاول خلالهما الاستفسار بشأن لقاء الزعيم كان يطلب منه أن ينتظر. شعر بحوائط الغرفة تطبق على صدره، ففتح الباب وهرول خارجه. اعترضه الرجل ذاته دافعاً إياه برفق إلى داخل الحجرة وأطبق الباب دون كلمة واحدة.

كاد ينفجر غضباً لولا أن فتح الباب ثانية، وطُلب منه أن يعود إلى مكتبه الأول. لم يكن غبياً ليدرك أن وضعه في هذه الغرفة طوال تلك الفترة كان يهدف إلى إبعاده عن لقاء أعضاء المحفل اليومي الذي كان يدور قريباً من مكتبه. لم يريدوه أن يسمع ما يدور. لكن من هم أولئك الذين لا يريدونه؟ فكر لو أن الزعيم قد أمر بذلك. جلس وراء مكتبه دون أن يعثر على الأوراق التي أمر بتركها هناك. لقد اختفت. الهواتف العشرة التي كانت هناك اختفت هي أيضاً. لم يكلف نفسه عناء التأكد من أن باب مكتبه قد أوصد عليه. ارتمى على مقعده فأحسه صلباً قاسياً وكأنه يجلس على قطعة حجر. لقد غادرت المقعد الفخم لذته.

لا شيء يعمله سوى المحافظة على اتزان أعصابه، وإن أحس بنفسه شجرة تتساقط أوراقها. مع بداية الظهيرة، أحس وقد أصبح شجرة عارية.

أطبق على مكتبه هدوء وكأنه عالم متوحد لا يسكنه سواه. أدرك أن رؤية الزعيم لن تتم اليوم. وقد لا تتم في الغد أو بعده أيضاً، على الأقل حتى يعرف ما يدور من حوله. لكن لا بد من لقائه. ما أقلقه

كثيراً هو اختفاء تلك الأوراق.

فتح باب مكتبه مع الثالثة بعد الظهر. طلب منه أن يعود إلى منزله. لم يكن أحد في المحفل سوى بضعة موظفين تجاهلوه كحال الأعضاء. خارج المحفل رأى سيارته تحمل آثار حجارة الصباح. لم يكلف السائق نفسه عناء تنظيفها. الشوارع خالية بسبب الإضراب المتزايد. وكما الصباح حملت الظهيرة أصوات حجارة تساقطت على السيارة من لا مكان ولا أحد. كأن الشياطين كانت ترجمه.

أحداث اليوم السيئة لم تخفه كما أخافته رؤية أسوار منزله وقد انخفض ارتفاعها إلى ما كانت عليه في اليوم الأول. هي بالفعل ترتفع من تلقاء ذاتها وتنخفض بالمثل.

داخل منزله، ألقى بجسمه على الأريكة أمام الحائط الذي رآه شديد البياض كما لو صبغ للتو. كل شيء يعود إلى اليوم الأول، بما في ذلك الهاتف الذي أصيب بسكتة صوتية.

نهض إلى الغرفة الصغيرة المجاورة للمطبخ حيث توجد غسالة الثياب، وهناك كانت المفاجأة. فقد وجد بدلاً من الغسالة الجديدة، غسالته القديمة المعطوبة. فوقها مفاتيح عدّته التي تركها عليها وورقة الإرشادات ذاتها. إنها رسالة صريحة له. من أرسلها؟ وما هدفه منها؟ سأل نفسه وقد عادت إليه ارتعاشات اليوم الأول. أحس بقدميه لا تحملانه. جلس على الأرض قبالة الغسالة. تلمسها بأصابع ترتجف. رغم قدمها وعطبها، كانت تشبه حجراً سحرياً أيقظ ذاكرة قديمة. عادت إليه صورة زوجته بهيئتها الأخيرة كما رآها نائمة فوق سريرها. أرخى رأسه في انكسار وكأنه يرثي ذاته. بقي بضع لحظات

قبل أن ينتفض واقفاً فجأة. لم يرد أن تغزوه ذاكرة مليئة بالألم. ضرب الغسالة بقدمه، وصفق باب الغرفة الصغيرة.

لكن الذاكرة المليئة بالألم كانت أقوى في حضورها من تجاهله. أحس بخجل وهو ينظر إلى ما كان في وقت رسمة زوجته. غادرته الرسمة عندما تجاهلها. محت ذاتها كما تفعل الأسوار العالية لمنزله. أحس بحاجته إليها. رغبة صراخ قوي داهمته، قبل أن تأخذه نوبة بكاء «أنا لم أتخلّ عنك... لم أتخلّ عنك... أتسمعين؟ أنت من تخليت عني... نعم أنت... أتسمعين؟ أنت... أنت...» وتهالك على مقعده.

حاول أن يستجمع قوته. أراد أن يبدو قوياً لأي زائر محتمل. قرر أن يستحم ويهدأ ليفكر جيداً بخطوته القادمة. جلس بعد حمامه يقلب في ما يحدث معه. «هل انتهى كل شيء»؟ سؤال طرحه بعدد دقات قلبه. أدرك أن شيئاً يحاك ضده، أقوى مما تخيّله في الصباح. إن كان من شيء عليه فعله، فهو اللقاء بالزعيم مهما كان الثمن. فما يعرفه، أو بالأحرى، ما استطاع الوصول إليه لن يفقد أهميته وهو أقوى من أي طالع سيّئ.

طلب على الهاتف مكتب الزعيم الخاص. انكسرت آماله كسفينة تغرق عندما بقي ينتظر جواباً على مكالمته طوال المساء. المسألة إذاً أن لا يتواصل مع أحد. هل معنى هذا أنهم عرفوا بأمر اكتشافه؟ زاده اعتقاد كهذا إصراراً على الوصول إلى الزعيم. قرر المواجهة ولو كانت الأخيرة. طلب سائقه ليأخذه إلى المحفل ثانية. أخبره السائق أن أسباباً أمنية تحول دون مغادرة المنزل «ومن الأفضل البقاء هنا حتى انتظار الإشارة» قال السائق دون أن يعرف الزوج عن أي إشارة يتحدث.

عاد يكرّر الاتصال بالزعيم، أخبروه بجفاء أن طلبه قد قُدّم دون

تفاصيل أخرى. حتى خادمته أحس بجفافها معه. إنه سجن كبير، وخادمته أمست سجانته.

عاد الضيق يجثم على جسده كله، فهرول إلى باب منزله، فتحه وعرّى صدره. أتته رائحة غريبة نتنة وكأنه على رأس قمامة. فتح ذراعيه على اتساعهما ليتأكد أنه ليس في سجن حقيقي. طالعته خارج أسوار المنزل ثلاث عربات مدرعة، بدل اثنتين، وحرس كثير. هو أسير إذاً ولو فتح ذراعيه وشق ثيابه. في لحظة خطر له أنه سيكون، بعد قليل، في داره العتيقة المهدمة، أو في الزنزانة التي أتى منها إلى هنا.

غلب خوفه إصراره، فأقفل عائداً إلى داخل المنزل كمقاتل جريح. على أريكته عادته ارتعاشات تكاد تسمع، وقلب يخفق كطبول حرب. نظر إلى الحائط أمامه. أخذ في صمته يستجديه أن ينطق بصوتها، بصوته، بصوت الشيطان، بأي صوت ممكن، المهم أن يسمع ما يخرجه من تلك الأفكار المسننة فوق رأسه كتاج المسيح المصلوب.

* * *

«ما يرعبني ليس تلك الهياكل
العظمية... بل حقيقة أني ما عدت
أخاف منها».

تشيخوف

* * *

الأيام التي تلت، كانت أكثر إثارة للحفيظة وأدعى للخوف أن يتجسّد هيكلاً عظمياً يحذر من القادم.

الهاتف صامت. والمكالمة التي ينتظرها من الزعيم، بناءً على طلبه، بات شبه موقن أنها لن تأتي. طالت ذقنه كما هي ساعاته وأيام زنزانته. توقف عن الأكل، وجافاه النوم. أقصى طموحه الآن أن يعرف ما يحدث معه. أمضى ساعاته في المنزل كأسير بلا سجان إن استثنى خادمته الجافة أكثر من سجانه السابق. حاول مغادرة المنزل مرة واثنتين، وفي كل مرة يكرر السائق العبارة ذاتها «دواع أمنية تحول دون ذلك». عندما ثار عليه ذات مرة وضرب رأسه بكأسٍ ماء، اختفى وما عاد للظهور.

بقي وحده في المنزل جاحظ العينين. في اليوم الرابع اختفت الخادمة هي الأخرى. ما يربطه بعالم الأحياء الآن هو الحرس المسلح في الخارج، وشاشة تلفاز انقطع البث منها هذا المساء. نظر إلى الهاتف الصامت البعيد عنه. أدرك أنه سيكون ميتاً، وقد صدق حدسه.

إنه سجين لا يعرف سبب سجنه. كل شيء يعود به إلى الوراء حتى أحس بنفسه يرتطم بحائط زنزانته الأولى. فكر لحظة أن الوطن قد سقط بيد الثوار. لكن لو حدث ذلك لرأى تجمعاً لهم أمام منزله، وربما داهموه. فكر أن الزعيم غاضب منه. لكن لو كان الأمر كذلك لاستدعوه للمثول أمامه. فكر بأشياء كثيرة، لكن جميعها لا يبرّر عزله عن العالم، والحرس المسلح خارج منزله يحول دون خروجه منه.

مضى على حاله تلك خمسة أيام كاملة. كان جسده يذبل كنبتة صغيرة. قناعته تزداد بأن اسوأ توقعاته يحدث معه، وهو إقصاؤه عن الزعيم بتدبير متقن. فكرة الإقصاء تخيفه، لأن بقاءه في دائرة الزعيم كان الضمانة الوحيدة لبقائه قوياً، بل وبقائه على قيد الحياة.

تدريجياً بدأت كل فكرة سوداء تزور رأسه تفقد رعبها، حتى بات أكثر تقبلاً لأي احتمال سيّئ، بما في ذلك إقصاؤه، أو سجنه، المهم أن يخرج من هذا المكان الذي بات أسوأ من أسوأ سجن عطن.

إصراره على لقاء الزعيم الذي كان حيوياً، بل قاتلاً بالنسبة له، تحوّل إلى إصرار على مغادرة مكانه هذا والوطن كله.

الشيء الوحيد الذي أحس به يسلي عنه في أيامه الخمسة تلك، هو مناجاة بدأها في الليلة الرابعة لزوجته. وحده في المنزل. لا سائق ولا خادمة، ولا هاتف أو تلفاز، وحرس يحول دون خروجه، فماذا غير طيفها يناجيه؟

في الليلة التي بدأت فيها مناجاته، حاول أن يصيخ السمع إلى صوتها. تماماً، كما في المرة الأولى. من شدة كربه، كان يتهيّأ له سماع صوت كل ربع ساعة، فيهرول بثيابه التي لم يغيّرها منذ الليلة الأولى، يجوب كل ركن في الدار يبحث عن الصوت. في لحظة يأس فكر أن الانتحار أفضل من الموت البطيء هذا.

لقد تعمدوا إذلاله. قال في نفسه. لكنه لم يعرف من هم الذين تعمدوا، الأعضاء أم الزعيم. كال في سره سباباً وشتائم لكل شيء، حتى الزعيم ذاته. تدريجياً بدأ السباب يصبح صوتاً أعلى من سور المنزل الذي عاد إلى وضعه الأول. تذكر الليلة التي تحوّل فيها أحد حوائط منزله القديم إلى أذن

كبيرة، وقدّر أن داره التي هو فيها الآن كلها أذن كبيرة.

ما عاد الأمر يهمه وهو يوزع سخطه وبصاقه على أرجاء المنزل قبل أن يسكن إلى حجرة نومه، متصيّداً أي صوت يأتيه. بات إلى الجنون أقرب من الجنون نفسه.

ممدداً على سريره، في منتصف ليلة اليوم الخامس، سمع صوتاً يأتيه من خارج المنزل. اقترب من باب حجرته منصتاً بهدوء إلى أصوات قادمة. فتح الباب بارتياب على صوت عربة تتوقف في فناء المنزل. جمد في مكانه وكأن قدميه غرستا في الأرض، لكن قلبه كان يخفق بقوة. سمّر عينيه على الباب الرئيسي مترقباً زائر منتصف الليل.

بلا استئذان، فُتح الباب، ودخل أربعة رجال لا يبدو أن أحدهم ابتسم يوماً. دون أن ينظروا إليه، تنحّوا جانباً مفسحين الطريق لعضو المحفل النحيل الجسم.

* * *

من تحت شجرة سقيمة، وقف الزوج ينظر إلى مراسم تشييعه إلى مثواه الأخير. وضع النعش المغطى بعلم الوطن على عربة مسلحة، تحيطه فرقة عسكرية تسير بخطى مهيبة تليق بجنازة عضو المحفل الذي وافته المنية... منيّته هو.

لا مشيّعين أكثر من ثلة الجنود تلك، وبضعة أفراد جمعهم الفضول لرؤية جنازة عضو محفل لم يفطم محفلياً بعد. غموض وفاته وحده كان مثار الاهتمام لا الوفاة ذاتها.

لم يعرف الزوج وهو يراقب جنازته إن كان سعيداً، حزيناً، أو

خائفاً. فكما بدأ كل شيء سريعاً، انتهى بالطريقة ذاتها. الشيء الذي فكر به في وقفته تلك هو زوجته التي ما سأل عنها أحد، ولا شيّعت حتى في جنازة كما هي جنازته التي تعبر أمامه.

«إنه الحل الأمثل إن شئت النصيحة» قال نحيل الجسم في حواره الأخير معه عندما زاره في منزله منتصف تلك الليلة.

«كل ما أطلبه أيها العضو الموقر...» قال الزوج بصوت فيه بقايا أمل «... هو لقاء الزعيم، خمس دقائق فقط، ولو لمرة أخيرة».

«لا ضرورة لذلك... لكن إن شئت أن تخبره شيئاً، فقل لي وستصله رسالتك».

«لا أستطيع أن أخبرك ما أتمنّي عليه... وحده فقط يجب أن يعرف ما أريد أن أقول».

«إن قصدت أمر اكتشافك لصناديق بعض أعضاء المحفل الموقر، فذاك أمر أعرفه».

صعق الزوج...

«لا تندهش بما تسمعه مني... فأنا أعلم بأمرها. كل من في المحفل يعلم ما كنت تفعل». اقترب نحيل الجسم وهو يسمع خفقان قلبه «هل تحسَب أنك قادر، بكل بؤسك وفقرك السياسي، على مواجهة العارفين بأمور الوطن أكثر منك؟»

بقي الزوج صامتاً مصعوقاً...

«لقد خانك ذكاؤك... حسبتَ المحفل مجرد أعضاء قد هرموا، لا يفقهون شيئاً مما يدور حولهم».

«أنا... أنا...»

«أنت لا شيء. وإن كنت شيئاً، فليس أكثر من خائن كبير».

«أنا... خائن»؟

«خنت من رفعوك على أكتافهم منصرفاً عن مطالبهم إلى غايات نفسك».

«فعلت ما طلب الزعيم...»

«وهل طلب أن تتجسّس على أعضاء المحفل الموقرين، أم كانت هي مشورتك؟ حسبت أنك قدّمت اكتشافاً خطيراً عندما أخبرت الزعيم بوجود صناديق مماثلة لصندوقه، فما أدراك بأسرار الوطن؟ ثم ما أدراك بأن الزعيم نفسه لا يعلم بذلك»؟

«... وهل... هل كان يعلم»؟ سأل الزوج وقد ازداد ذهولاً.

«إنه من الذكاء ليعلم أن كل إنسان يملك صندوقاً كما هو كل إنسان يملك غسالة مثل تلك التي قادتك إلى هنا. عندما تكون تحت قبة المحفل، عليك أن تعمل لتكون لك سلطة قوية على من تريد في الشارع. ولولا تلك الصناديق التي يملكها الأعضاء، لما بقي الوطن متحكماً في قدره».

«لكنكم... لكنكم أيها العضو المبجل تقودون الوطن إلى مصير مجهول».

«وما المصير الذي كنت تقود الوطن إليه؟ الشارع ما يزال ثائراً، والأعضاء وحدهم، بنفوذهم، وصناديقهم، قادرون على السيطرة عليه، لا أنت».

«لكن التطرف... يحكم قبضته».

«ما تراه تطرفاً، نراه نحن حصناً يحمي الوطن من أعدائه».

«لكن التطرف...» قال الزوج وقد تمالكته بعض الشجاعة «يحرق الحصن بمن فيه. أتعلم أيها العضو الموقر إلى أي مدى هم

يتحكمون في الشارع؟ أتعلم أنهم أصبحوا، بصناديقهم تلك، أكثر قوة من الزعيم، وأنهم يرسمون أقدار كل فرد في الوطن... لقد استطاعوا أن يصنعوا...»

«أنا أدرى بما صنعوا...» قال نحيل الجسم مقاطعاً «أدرى بما هو أكثر من ذلك أيضاً. ألم تكن تسعى إلى الشيء ذاته»؟

«أنا...؟ لقد كنت أحاول أن...»

«تحاول ماذا؟ أنت لم تحاول شيئاً من أجل الوطن، بل من أجل ذاتك فقط».

«أنا»؟

«نعم أنت. فحتى أنت صنعت صندوقاً خاصاً بك يعمل من أجلك وحدك».

«أنا»؟

«تلك التقارير التي تصلك ثلاث مرات في اليوم، والعيون والآذان التي زرعتها في كل مكان، ما تسمّي ذلك كله؟ أليست هي صندوقاً آخر تبنيه من أجلك»؟

«كان هدفي...»

«كان هدفك منفعة ذاتك وحدها...» قال نحيل الجسم في نبرة حادة «هل تعتقد أنك وحدك من يملك العيون والآذان. كنت غبياً يوم اعتقدت ذلك... كان على حدسك أن ينبئك من يملك القوة بين يديه، من يملك آذان الوطن وعيونه».

«ما فعلته هو من أجل الوطن، والزعيم يعلم ذلك».

«لم يطلب منك الزعيم أن تشعل فتنة في الوطن. لقد كان خطأ

أتحمّل وزره أن أعطينا القوة لإنسان ضعيف مثلك. تريد أن تنتقم من الناس والمحفل وتكون الوطن والزعيم. لقد نسيت أننا وإن كنا جميعاً أصدقاء للزعيم، فإن الزعيم ليس صديق أحد».

انهار الزوج على مقعده، وفي انكسار سأل نحيل الجسم «انتهى كل شيء إذاً»؟

«تقديراً لمكانة المحفل، فقط لمكانة المحفل، سنعلن وفاتك. وستغادر هذا المكان في صمت، لا شيء معك سوى ذكرياتك، ولتختفِ حيث شئت إلى الأبد».

«ذكرياتي»؟

«قلت لك من قبل، إن الذكريات أجمل من واقعها أحياناً».

نظر الزوج في وهن إلى نحيل الجسم الذي أضاف «اعلم أن موتك المزيّف هو نجاة لك لا تقدير لشخصك».

«نجاة لي من المحفل، أم من الزعيم»؟

«من الشارع».

«وما الذي فعلته بحق الشارع»؟

«هو من جعلك عضواً في محفلنا، لا غسالتك المعطوبة».

«تعلمون بأمر الغسالة إذاً ولا تعلمون بأني لم أضمر الشر للوطن يوماً، ولم أمتلك قطعة سلاح ولا هدّدت أحداً في حياتي».

«نعلم أيضاً أنه عندما أصبحت في منصبك هذا، سكنك الشر. لقد خنت نفسك أيضاً، كما خنت زوجتك».

تحرّك شيء داخل الزوج وهو يسأل في صوته الواهن «زوجتي»؟

«نعم... زوجتك. ألم تنس أمرها»؟

«لا... لم أنسها... لقد... لقد حاولت أن أعرف مصيرها».

«ثم نسيتها... لكننا لم ننسها»؟

«وهل تعرف... أين هي»؟

«لولا أن يثير موتكما معاً بعض الريبة، لشيّعناها معك».

«هل هي ميتة إذاً»؟

«سنعلن وفاتك اليوم...»

«هل هي ميتة...»؟

«ليكن يوم وفاتك، بداية أخرى لك، بعيداً عن هنا، وعن الأعين الثائرة ضدك».

«ضدي... أعين ثائرة ضدي»؟

«كنت أملهم. ولو كان من يقتل الأمل في النفوس مجرماً، لكان الموت أقل ما تستحق من عقاب».

ثم ختم نحيل الجسم حديثه قائلاً «ستكون جنازة تليق بعضو محفل. سنضمن ذلك... لكن ما لا نضمنه هو أن لا يبول أحد على قبرك».

التصق الزوج بجذع الشجرة السقيمة وهو يرى جنازته تسير ببطء إلى مثواه الأخير على أطراف الوطن. عقله متوقف. قلبه ينبض ببطء. عيناه متحجرتان على المنظر الغريب أمامه. يداه على الشجرة تيبستا أكثر من الشجرة نفسها.

هل كان يحلم بأنه عضو في المحفل؟ هل كان متزوّجاً؟ هل كان موجوداً في الحياة؟

* * *

تناقل الناس الحكاية التالية:

فجر كل يوم، كان يُسمع من القبر، حيث دفن عضو المحفل، صوت أنين، وأحياناً صوت غناء.

قال البعض إن الله يعذبه على ما فعل بحق زوجته، وبحق البسطاء الذين سحق الأمل في نفوسهم. آخرون قالوا إنه صوت غناء لا يأتي من القبر بل من رجل هرم يجلس عليه لا يعرف أحد من يكون.

لا أحد يعلم الحقيقة. فما عاد في الوطن من يفيق مع الفجر.

على وقع هتافات الشعب الثائر، يصطحب موظّف بسيط زوجته إلى المستشفى، لإجراء عملية جراحية مستعجلة. يكتشف أن البلاد كلّها في حالة حداد عام على أحد أقارب الزعيم. يخبره الأطباء أن موعد العملية قد أجّل لمدة أسبوع. يفقد أعصابه ويصرخ «لا»، الكلمة المحرّمة في البلاد بأمر من الزعيم نفسه.

يمضي الرجل وقته في السجن بتهمة تحريض الشعب على الثورة. يقترح محفل الوطن، حيث تصنع القرارات، الاستعانة به لتهدئة الانتفاضة، فينصّب عضواً في المحفل نفسه، ويُعلَن بطلاً سيخرج البلاد من الأزمة.

رواية تستلهم عوالمها الغرائبية من الشارع الغارق في متاهة ثوراته، لتطرح سؤال الحرية في سياق حكائي ممتع.

هاني نقشبندي كاتب وصحافي سعودي. صدر له في الرواية عن دار الساقي «اختلاس» و«سلام» و«ليلة واحدة في دبي».


ISBN 978-1-85516-866-4
9 781855 168664 >

